

رُعد السامع

٢١

مَعْنَا فَرِيدَا

ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ
صَحَابِيٌّ كَبِيرٌ وَمَلِكٌ مُجَاهِدٌ

مُسِيرٌ مُحَمَّدٌ الْغَضَبَانِ

دار الفقه
دمشق

مُعْجَاوِزُ نَزَائِلِ الْيُسُفْيَانِ

صَحَابِيَّ كَبِيرٍ وَمَلِكٍ مَجَاهِدٍ

تَأْلِيفُ

مُسِيرِ مُحَمَّدٍ الْغُضْبَانِ

طَبْعَتُهُ ثَانِيَّةٌ مَزِيدَةٌ وَمُنْقَحَةٌ

الطبعة الثالثة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عبر طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هذا الرجل

انفقدت الكلمة على معاوية واجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين ، فلم يزل بالأمر مستقلاً إلى سنة وفاته ، والجهاد في بلاد العدو قائم ، وكلمة الله عالية ، والغنائم ترد إليه من اطراف الأرض ، والمسلمون معه في راحة وعدل ، وصفح وعفو .

الامام ابن كثير

معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين ، ملك الإسلام ، أبو عبد الرحمن ، القرشي الأموي ، المكي .

الامام الذهبي

ما رايت أحداً أعظم حُلماً ، ولا أكثر سُودداً ، ولا أبعد أناةً ، ولا ألين مخرجاً ، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية .

قبيصة بن جابر

سئل المعافى بن عمران :

أيهما أفضل : معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟

ففضب وقال للسائل :

أتجعل رجلاً من الصحابة ، مثل رجل من التابعين ؟! معاوية صاحبه ، وصهره ، وكاتبه ، وأمينه على وحي الله !!

إن معاوية كان عود العرب ، وجدّ العرب ، قطع الله عز وجل به الفتنة ، وملكه على العباد ، وفتح به البلاد .

الضحاك بن قيس

بَيْنَ يَدَيِ الْبَحْثِ

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعد :

ما أعتقد أن شخصية في تاريخنا الإسلامي ، ومن الرعيل الأول من الصحابة الذين تربؤا على يدي رسول الله ﷺ وعاشوا وحي السماء ؛ قد نالها من التشويه والدس والافتراء ما نال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . لقد أصبح كثير من المعلومات ثابتة في أذهان الناس لا تقبل الشك ولا تقبل الجدل ، لا تتناسب أبداً والمستوى اللائق بصحابة رسول الله ﷺ . وصورة معاوية في أذهان الناس أنه طالب سلطة ، وسياسي بارع ، ونهّاز للفرص ، لا يرعوي عن شيء في سبيل الوصول إلى الحكم . صارع من أجل السلطة وسعى إلى قتل عشرات الألوف من الناس لكي يصل إلى الخلافة .

وهذه الصورة تتنافى مع حسّ المسلم وفطرته ؛ لكنه لا يجد لها بديلاً ، فكتب التاريخ تذكر ذلك .

وعندما جاء المؤرخون المحدثون وكتبوا عن معاوية ، زادوا الطين بلة ، وكرّسوا هذه المفاهيم في أذهان الناس وزادوهم قناعة بها .

فكان لا بد من الكتابة عن معاوية بن أبي سفيان .

لقد اقدمت على هذا الامر وانا اعلم وعورة الطريق واشواكه ،
واعلم اني سأخوض في بحر من الروايات ، هيهات ان ينال الدر
من احشائها إلا من امدده الله بعبونه وعنايته .

واحب ان اعلن من اول الطريق اني لم اصل إلى الصورة
الصحيحة الكاملة من خلال الروايات التاريخية ، ولكن حسبي ان
ارود الطريق ، ولعل باحثاً يأتي من بعدي يرسم الصورة كاملة
صحيحة .

ولماذا لم أرسم الصورة كما احب وأرغب؟

لاني كنت لا أجد في كثير من المواطن إلا الرواية الضعيفة او
المنكرة ، فأفضل ان أتجاوز هذا الوطن من أن أثبته برواية ضعيفة
او موضوعة .

وأود ان أوضح للأخ القارئ المنهج الذي سرت عليه من بداية
البحث إلى نهايته ، وان أذكر بعض المصادر والجهات التي أفدت
منها ، وبذلك نسير معاً ونحن على بيّنة من خطة البحث وموارده :
أولاً : كان دليلي في البحث قبل الحوادث التاريخية ،
الاحاديث النبوية ؛ تلك الاحاديث التي صحت عن رسول الله ﷺ
وانبأ بها - بما علمه الله - عن وقائع ستحدث ، كان هذا هو الدليل
الذي تحركت من خلاله قبل كل شيء .

فالحديث الصحيح هو بعد كتاب الله مصدر الحق في هذا
الوجود .

وإذا كانت الروايات التاريخية لم تمحص بعد ؛ فإن حديث
رسول الله قد بلغ بفضل علمائه وجهدهم وتوفيق الله لهم المرتبة
الثانية بعد كتاب الله تعالى .

فلو ان كل الروايات التاريخية في قضية ما خالفت حديثاً صحيحاً ؛ لأعرضت عن هذه الروايات كلها وأخذت بالحديث .

ثانياً : وكان الخط الثاني الذي سرت فيه هو تمحيص الروايات التاريخية والكشف عن رجال أسانيدها في كتب التراجم والجرح والتعديل ، ولكن الفرق كبير كبير بين الرواية التاريخية ، والحديث النبوي .

فما تشدد المحدثون في الأخذ عنه في حديث رسول الله ؛ تساهل المؤرخون والإخباريون في الرواية عنه .

واضرب مثلاً على ذلك :

لقد كان ابن جرير الطبري يكثر من الرواية عن : السري ، عن شعيب ، عن سيف . فماذا قالت كتب التراجم عن هؤلاء :

فالسري قال عنه ابن أبي حاتم : صدوق ، وقالوا عن شعيب - كما أورد ذلك الذهبي - : راوية كتب سيف عنه ، فيه جهالة . وسيف قال عنه يحيى بن معين : ضعيف ، وقال أبو حاتم : متروك !!

لكن علماء الرجال شهدوا لسيف في التاريخ والفتوح ووثقوه وقالوا عنه : كان إخبارياً عارفاً ، وقالوا عنه : ثقة في التاريخ ، ضعيف في الحديث .

فإذن لن نطمع أن نصل في الحدث التاريخي إلى مستوى الحديث النبوي . ولكننا نحاول أن نصل به بعيداً عن الكذابين ، وبعيداً عن المجهولين .

ثالثاً : الرواية التي نرفضها هي التي تحمل أسماء لم يتعرض لها علماء الرجال بشيء ، ولم يذكروا عنها شيئاً ؛ وخاصة إذا كانت

تعارض مع مستوى صحابة رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم ،
فرواتها مجهولون . ولا ندري ماذا يدخلون على هذا التاريخ من زيف .

رابعاً : لا تقبل اية رواية خالية من السند . وهي التي يقال
فيها : وزعم ، وقيل ، وروي .

خامساً : إن المدقق في تاريخ الطبري . وهو عمدتنا في البحث
— لأنه هو الوحيد الذي يحوي السند ويمكن تمحيص رواياته —
يلاحظ أن أحد رواته وهو لوط بن يحيى والذي يكنى بأبي مخنف ؛
قد روى جزءاً كبيراً جداً من تاريخ هذه الحقبة ، بل يكاد لا يخلو
حدث تاريخي إلا وله فيه رواية ؛ خاصة بعد وقعة الجمل .

ولا ابالغ إذا قلت : إن جلَّ التحريف في وقائع هذه الحقبة
من تاريخنا — إن لم أقل كله — مصدره أبو مخنف الشيعي الذي
لم يقبل إخبارياً ولم يقبل محدثاً ، ولو أن روايات أبي مخنف
حذفت من تاريخ الطبري لزال أكثر التشويه في تاريخنا الإسلامي .

سادساً : هناك كتاب آخر هو « تاريخ خليفة بن خياط »
الذي نشر بتحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري . وخليفة بن
خياط من شيوخ البخاري ، ومن طائفة رجال الحديث ، ومنهجه
في التأليف هو منهجهم ، وعن هذا المنهج يقول محقق كتابه
الدكتور العمري :

« وكان خليفة محدثاً اهتم بجمع الحديث وكتابة المسند ،
فلا عجب أن يهتم بالإسناد حتى في روايته التاريخية ، ولم يكن
خليفة أول من استعمل الإسناد في دراسة التاريخ ؛ فقد كان المحدثون
الذين يهتمون بالأخبار ينقلونها بالأسانيد . وقد امتد الاهتمام
بالإسناد إلى أهل الأدب أيضاً في هذه الفترة المبكرة ، على أن دقة

الإسناد آنذاك ظلت ملازمة للحديث ، أما الأخبار ؛ فقد أبدى أصحابها تساهلاً في استعمال الإسناد ؛ ولذلك نجد خليفة بن خياط يلتزم الإسناد بدقة في الحديث ويتساهل باستعماله في الأخبار والأنساب ، ويرجع ذلك إلى أهمية الحديث وتعلق الأحكام به ، فلا بد من التشدد في نقده قبل قبوله والإسناد هو المحور الأساسي الذي يدور حوله النقد .

أما الأخبار فلا تترتب عليها أحكام تتعلق بمصالح الناس وأمور حياتهم ، لذلك كان التساهل في أسانيد الأخبار مما تعارف عليه المحدثون ؛ فرووا ما كان في إسنادها انقطاع أو إرسال ، كما رووا عن بعض المجروحين الذين لا يقبلون مروياتهم في الحديث ، فلاغربة أن ينقل خليفة عن ابن الكلبي والواقدي مثلاً . وهم متهمون عند المحدثين ...

وكذلك اهتم بذكر الإسناد كثيراً عند ذكر الأحداث التي تحتاج أخبارها إلى تدقيق ، لتأثير الأهواء فيها ، مثل : الفتنة زمن عثمان ، موقعة الجمل ، موقعة صفين ، أخذ معاوية بيعة أهل الحجاز لابنه يزيد ، وقعة الحرة ، ثورة ابن الأشعث . ونجده يعتمد في هذه الأخبار على المحدثين في الدرجة الأولى (١) .

وأقول : إنني مدين ولا شك لهذا المؤرخ والمحدث الكبير في بعض الفترات الهامة من تاريخنا الإسلامي ، فلقد أفدت منه كثيراً وكان بالنسبة لي كماء السماء يسقط على الأرض اليابسة ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، لقد روى لي ظمأ قلبي ، وأنا أنقب في التواريخ باحثاً عما يطمئن إليه قلبي وترتاح إليه نفسي .

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٤ ، طبعة دار القلم بدمشق .

سابعاً : ولا شك أن كتاب العواصم من القواصم ، وتحقيق وتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب عليه ومن بعده الأستاذ محمود مهدي استانبولي ؛ كان له أثر كبير في اتساع آفاق البحث ، ومدتي بمصادر جديدة أعطت إضاءات أوضح على الأحداث .

ثامناً : ولعل الفضل الأكبر في تدقيق هذا الكتاب وتصويبه كان لشيخنا وأستاذنا العلامة محمد سعيد طنطاوي ، الذي حصر العلم في قلبه لا في كتبه ، فقد قرأ الكتاب وأبدى عليه ملاحظات كثيرة حملتني على إعادة النظر فيه ومراعاة جميع هذه الملاحظات ، ومع ذلك فأنا على يقين أن الكتاب لن يحوز على رضاه ؛ لأنه ينشد الأكمل والأمثل دائماً . وهذا ما لا نملكه .

وأرفعه نداء له باسم الشباب الإسلامي من على صفحات هذا الكتاب أن يتناول قلمه ، ويمد الشباب المتعطش بتراجم مركزة مستوفاة دقيقة عن شخصيات التاريخ الإسلامي ، فهي أمانة في عنقه . وقد يفضب لهذا النداء ؛ لكننا نحرص على كلمة الحق نقولها أكثر من حرصنا على مراعاة العواطف ، ولو أنه كتب في هذه المجالات لا ستفنى الشباب الإسلامي عن كثير من الكتابات التي لم تنل الحظ الجيد من التحقيق والتدقيق .

تاسعاً : ولا أنسى الجهد المشكور الذي بذله الأخ الحبيب محمد حسن بريفش والملاحظات القيمة التي قدمها على الكتاب ، وقد كان يرفض أية نقطة ضعف فيه ، ويجتهد في إبعادها عنه وهو أعرف الناس بخطتي في البحث ، ولا يمنعني هذا من أن أثبت رأيه في هذه المحاولة ، وهي أنني جنحت إلى المبالغة في حق معاوية رضي الله عنه ؛ حتى ليحس القارئ أن لو بايعه الناس

من بداية الطريق لثم تجاوز كل الأزمات والحروب العنيفة
في تاريخنا الإسلامي !!

هذا رايه . ولو اقتنعت به لأعرضت عن إصدار الكتاب .

اما رأيي فهو اني ارفع الحيف والظلم الذي وقع في تاريخ
معاوية دون أي مساس ولو مرة واحدة بأمر المؤمنين علي بن ابي
طالب رضي الله عنه .

اما لماذا لم اناقش آراء امير المؤمنين علي ؛ فلأن الكتاب ترجمة
لمعاوية وليس ترجمة لعلي ، فلا بدّ من عرض وجهة نظر معاوية
بأمانة كاملة . ويكفيني وانا اذكر امير المؤمنين علياً ان اقدم حديثاً
صحيحاً يكون حكماً في كل القضايا التي جرت بينه وبين معاوية .

انا اعتذر لمعاوية ، لاني على ثقة انه كان يقصد الحق . ولا
يضره بعد ذلك ان يكون أصاب الحقّ أم أخطاه .

اما انه كان يعرف نفسه انه على باطل ويقاتل عليه فهذا كلام
مرفوض لأن رسول الله ﷺ شهد للطائفتين انهما يقصدان الحق ،
وعلي رضي الله عنه والمسلمون معه أصابوه ، ومعاوية رضي الله عنه
والمسلمون معه أخطؤوه . وذلك كما ثبت في الحديث الصحيح
الذي رواه مسلم :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما
مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة » .

والحديث في رواية الإمام أحمد له تتمّة قيمة ، ونصه :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة ،
فبينما هم كذلك مرّق منهم مارقة، تقتلهم اولى الطائفتين بالحق » .

والمارقة التي خرجت قد قاتلها علي رضي الله عنه وهم الخوارج .

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث فقال :

« قال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن الضحاك المشرقي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ في حديث (ذكر قوماً يخرجون على فرقة من الناس مختلفة ، يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق) أخرجاه في الصحيحين (١) .

والحديث الصحيح الذي ورد في مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه :

« يا عمار تقتلك الفئة الباغية » . يؤكد أن الفئة الباغية هي فئة معاوية ، ولكنه لا يعني أبداً أن معاوية والمسلمين معه يعرفون ذلك ويصرون على البغي .

وأعود لأقول ما قاله أهل السنة في هذا الصدد :

« أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن علياً ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعاً من أهل الحق ، وكانوا مخلصين في ذلك ، والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد . كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه . وهم لإخلاصهم في اجتهادهم مثابون عليه في حالتي الإصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطيء . وليس بعد رسول الله ﷺ بشر معصوم أن يخطيء ، وقد يخطيء بعضهم في أمور ويصيب في أخرى وكذلك الآخرون .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٩٩ .

ومن مرق عن الحق في إثارة الفتنة على عثمان لا يعد من إحدى الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها ؛ لأن الذين تلوث أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان - كائناً من كانوا - استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم ؛ سواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم الحد أو لم يستطع . وفي حالة عدم استطاعته ؛ فإن مواصلتهم القتال بين صالحى المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي - كما فعلوا في وقعة الجمل وما بعدها - يعد إصراراً منهم على الاستمرار في الاجرام ماداموا على ذلك .

فاذا قلنا أن الطائفتين كانتا من أهل الحق ، فإنما نريد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته ﷺ من التابعين .

ونرى أن علياً المبشر بالجنة أعلى مقاماً عند الله من معاوية خال المؤمنين وصاحب رسول رب العالمين ، وكلاهما من أهل الخير .

وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره « (١) .

وليس الكتاب إلا عرضاً لهذه العقيدة في الطائفتين من خلال الواقع التاريخي ، فإن وفقت في ذلك فالحمد والمنة لله سبحانه ومنه العون ، وإن لم أوفق فحسبي أني شققت الطريق .

(١) العواصم من القواصم ، من تعليق الأستاذ محب الدين الخطيب على الكتاب ص ١٦٩ .

عاشراً : واحب أن اسوق الشكر الجزيل لفضيلة الأستاذ المؤرخ الشيخ نايف العباس ، فقد أفدت منه أموراً كثيرة ، ولقد أجرى قلمه في هذا الكتاب ، فصحح العديد من الأحداث والوقائع ، والروايات والأسماء ، وقوّم المائل من الآراء والأحكام والتعبيرات ، فجزاه الله عني وعن المسلمين كل خير .

كما احب أن اشكر الأخ الأستاذ محمد علي دولة المدير المسؤول في دار القلم وصاحبها ، فقد كان له الفضل في إصدار هذا الكتاب ، ولقد قرأ مخطوطته كلمة كلمة ، فصوّب ودقّق وأفاد .

وفي الختام :

أود أن اعتذر للأخ القارئ من بداية لقائي معه اني سأطنب في عرض الفتنة الكبرى التي حصلت في خلافة عثمان وادت إلى استشهاده ؛ رغم أن الكتاب ترجمة لمعاوية رضي الله عنه ؛ وذلك لقناعتي انه لا يمكن أن تفسر الحوادث كلها في الصراع والحرب بين الطائفتين ؛ إلا بدراسة واقع العالم الإسلامي إثر مقتل عثمان ولأن هذه القضية هي محور الأحداث كلها فيما بعد .

أسأل الله - سبحانه - أن يجنبنا العثرة . وأن يغفر لنا ما أخطأنا فيه في اجتهادنا ، ويثيبنا على ما أصبنا فيه . وأن يكون عملنا هذا في كفة حسناتنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .



مقدمة الطبعة الثانية

طال غياب الكتاب ، وتأخر طبعه ، ولم أعر على نسخة منه منذ سنين .
و كنت بانتظار ملاحظات الإخوة القراء ، وأنا أخوض هذا البحث
الشائك . ولكن الانتظار مضى دون جديد .

تُرى ألم يطلع أحد على الكتاب ؟

ما أعتقد ذلك . لكن لعلّ يداً امتدت إلى الكتاب فاستنفذت نُسخه من
الأسواق .

ومن خلال الصلة المباشرة جاءني ملاحظتان كان لهما أثر في ببيان الكتاب .
الملاحظة الأولى : من شيخنا وأستاذنا الحبيب العلامة محمد سعيد
الطنطاوي . الذي علّق على الكتاب بقوله :

هذا الكتاب عن الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وأنت بحاجة إلى
كتاب آخر عن معاوية ، تدرس جوانب العظمة في شخصيته وعبقريته . . .
وهمت بذلك لكني رأيت همّتي تقصر عن العودة إلى هذا الصحابي الجليل
لأصوغ البناء من جديد . ومع ذلك لم أدع الأمر . فوقفت عند معاوية أستجلي

جوانب العظمة في شخصيته وعبقريته من مواقفه من أهل بيته ، ومواقفه من قادة الأمة . ومواقفه من خصومه ، ومواقفه من الأمة ، وجوانب الإبداع في هذه الشخصية . وأضفت هذه الفصول إلى الكتاب ، على أمل أن أسدّ هذه الثغرة التي لم يتعرّض لها أحد .

فعشرون عاماً من الملّك عامرة بالأحداث والمواقف ، لم يرق فيها دم ، أعادت العافية للأمة . لم تكن لتمرّ وسط عواصف العواطف الجامحة الجائحة ضده ، لو لم يكن من العبقريّة الفذة بحيث يمتص هذه العواطف ويوجّهها إلى الجهاد والبناء من جديد .

وأصدّق قارئني بعد ذلك . هل حازت هذه الإضافة على رضا شيخنا الحبيب؟ وأقولها صادقاً: لا . لكن حسبي أن أبذل جهد المقل . وحسبي أن أقول له : يا فارس الساحة ، تقدم فليس لها سواك .

ولا بدّ لي أن أشير إلى الجديد في المنهج الذي اتبعته في هذه الفصول المضافة ؛ فالأمانة العلمية تقتضي ذلك .

لم أركّز كثيراً على تحقيق وتوثيق هذه النصوص ، لأنني لست أمام خلاف في الرأي أرجح فيه . ولست أمام طعن في صحابي جليل أذود عنه الأهواء والفتن . ولست أمام حكم عقيدي أو فقهي ، أخشى أن أضيع في متاهاته . فلا بدّ لي من الوقوف على صحيحه .

إنما أنا في هذه الفصول أمام دراسة تاريخية ، وترجمة شخصية في أمور ليست محل تنازع واختلاف . بمقدار ما هي موطن تأكيد لصحة الخط الذي ابتدأته

ووثقته. إنه بمثابة تعميق لهذه الخطوط، وإيضاح في اللون والصورة. وملء فراغات البناء الثابت الأركان.

وهذه الفصول هي: قيادات بني أمية تحتج وتنذر، معاوية وأشراف أهل البيت، معاوية وموقفه من الخصوم، معاوية والرعية.

أما الملاحظة الثانية: فكانت من الأخ الهندي المفضل مقصود حسن الفيضي ومن العاملين في علم الحديث، فهي في الحقيقة ملاحظات علمية دقيقة لحمتها في رجال الإسناد والجرح والتعديل. تقبلت هذه الملاحظات شاكرًا. وحاولت جاهدًا أن أعدّل كل ما اقتنعت بخطئه.

وإن كان بعضها قد توقفت عنده لأنه يدخل في إطار المتن لا السند. وهذا الأمر موطن حوار ليس بالضرورة أن يسلم بصحته من الأخ الكريم. وله من أعماقي وافر شكري على هذه المساهمة العلمية.

وأخيرًا بيني وبين الأخ الناشر، الأستاذ محمد علي دولة، الذي كنت معه بين كثر وفرّ. فهو يحمل هموم قراءة الكتاب وضخامته التي قد تحول دون إقبال القراء عليه، وسلامته التي حدث به أن يشارك المؤلف أحيانًا في الرأي أو يخالفه. وصبر عليّ، وصبرت عليه، إلى أن آذن الله تعالى بأن تكون هذه الطبعة الثانية بين يدي القارئ. فله شكري ثانية.

راجيًا الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن يغفر ما فيه من زلل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الملك المجاهد والزاهد المجاهد

إنه الإسلام العظيم الذي يجمع في ساحته كل النماذج البشرية .
لتؤدي طاقاتها كاملة .

ومن هذه النماذج : الزاهد المجاهد . . . والملك المجاهد .

الزاهد المجاهد أبو ذر الغفاري الذي طلب الإمارة يوماً من
رسول الله ﷺ ، فقال له :

« يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة
خزى وندامة إلا لمن أداها في حقها » .

وبذلك وجه الرسول العظيم هذه الطاقة للتفرغ للدعوة ،
والجهاد في سبيل الله ، وجهه إلى الزهد في الدنيا ، والتقلل منها .

فسار أبو ذر على هذا الدرب ، يرفع الناس إلى آفاق سامية
ويذكرهم بالآخرة ، ويحثهم على الجهاد . حتى لقي وجه ربه .

والملك المجاهد ، معاوية بن أبي سفيان الذي قال له
رسول الله ﷺ :

« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » .

فوقر في نفسه منذ تلك اللحظة أنه سيلي امر هذه الأمة .

(فما زلت اظن اني سأبتلى) بالحكم .

فطاقات معاوية رضي الله عنه في الحكم والإدارة والسياسة
طاقات هائلة ، ولا بد أن تمارس ، وتكون على المسلمين خيراً وبركة .

أبو ذر على زهد عيسى بن مريم عليه السلام .

ومعاوية على منهج سليمان عليه السلام .

ويحضرني دائماً وأنا أذكر الزاهد المجاهد والملك المجاهد
نموذجان من أنبياء الله ، لا تذكر قصتهما إلا معاً : من ابتلي بالضراء
فصبر ، ومن ابتلي بالسراء فشكر .

« ولقد فتنّا سليمان ، وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب .
قال : ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنّك أنت
الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ،
والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرّنين في الأصفاد . هذا
عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإنّ له عندنا لزلفى
وحسن مآب » .

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب
وعذاب ، اركض برجلك هذا مفتسل بارد وشراب ، ووهبنا له
أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك
ضغثاً واضرب به ولا تحنث إنّنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » .

سليمان عليه السلام قال :

رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي .

وكان بشهادة ربه له ، خير من يحمل المسؤولية .

« وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

وأيوب مسئه الضر وابتلي بلاء لا حد له ، ونجح في ابتلائه
بشهادة ربه له .

« إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » .

والملك المجاهد ، معاوية رضي الله عنه قال : رضينا بها ملكاً .
وقال : ملك الله يؤتیه من يشاء .

وقال : أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته
الدنيا ولم يردھا ، وأما عثمان فأصاب منها وأصاب منه .
وأما نحن فتمرغنا بها تمرغاً .

وقال لأحد الصحابة :

فما الذي يجعلك أحق بأن ترجو أنت المغفرة أكثر مني ؟!

فوالله لما إليّ من إصلاح الرعايا ، وإقامة الحدود ، والإصلاح
بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمور العظام التي لا يحصيها
إلا الله ، ولا تحصيها ؛ أكثر مما تذكر من العيوب والذنوب .

وإنني لعلّى دين يقبل الله فيه الحسنات، ويعفو عن السيئات .

والله على ذلك ما كنت لأخير بين الله وغيره ؛ إلا اخترت الله
على غيره مما سواه .

هذه هي نفسية الملك المجاهد رضي الله عنه .

أما الزاهد المجاهد ، فقال لأحد صحابة رسول الله ﷺ :
ألا تنظرون إليّ ما تأمرني به هذه السويداء - يعني زوجته - تأمرني
أن آتي العراق ، فإذا أتيت العراق ما لوا عليّ بدنياهم .

وإن خليلي ﷺ عهد إلي أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دَحْض
ومزلة ، وإنا إن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار واضطمار - خفة -
أخرى أن ننجو من أن نأتي عليه ونحن مواقير .

وقال :

كان قوتي على عهد رسول الله ﷺ صاعاً ، فلا أزيد عليه حتى
لقى الله عز وجل .

تخفف من الدنيا وأعبائها رجاء مغفرة ربه .

والملك المجاهد :

حمل الدنيا على كتفيه ، ورجا مغفرة ربه .

إنه الإسلام ، الذي يحوي كل النماذج ، وكل الطاقات ،
لتؤدي رسالتها في الأرض .

ولنعش مع أول ملوك الإسلام الملك المجاهد « معاوية » ،
خطوة خطوة ، من قبل أن ترى عيناه النور إلى أن لقي وجه ربه .



أَبُوسُفْيَانَ وَهَنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ

البيئة والمنبت اللذان نشأ فيهما معاوية رضي الله عنه يعطينا صورة صادقة عن أهم العوامل التي أثرت في تكوينه وهو صغير من الناحية العاطفية والفكرية . ونستطيع أن نقف على وصف مسهب لأبي سفيان يوم رشحه عتبة بن ربيعة زوجاً لابنته هند فقال :

« إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمىً لك واحداً منهما حتى أصفه لك :

أما الأول ففي الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجاً من غفلته ، وذلك إسجاح من شيمته . حسن الصحابة ، حسن الإجابة . إن تابعتك تابعتك ، وإن ملت كان معك . تقضين عليه في ماله ، وتكتفين برأيك في ضعفه .

وأما الآخر ففي الحسب الحسيب ، والرأي الأريب . بدر أرومته وعز عشيرته ، يودب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توغر بهم (١) . شديد الفيرة ، سريع الطيرة ، شديد حجاب القبة (٢) . إن جاع فغير منزور ، وإن نوزع فغير مقهور .

(١) إن جانبوه توغر بهم : إن عصوه قسا عليهم .

(٢) شديد حجاب القبة : حريص على ستر نسائه .

قد بينت لك حالهما .

قالت : أما الأول فسيد مضياع لكريمته ، مؤات لها فيما عسى إن لم تعصم أن تلين بعد إِبائها (١) ، وتضيع تحت جنائها .
إن جاءت له بولد أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت .
اطو ذكر هذا عني فلا تسمه لي .

وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة ، إني لأخلاق هذا لوايقة (٢) ،
وإني له لموافقة ، وإني لأخذة بأدب البعل مع لزومي قبتي وقلة
تلفتي ، وإن السليل بيني وبينه (٣) لحري أن يكون المدافع عن
حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبته ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن
لأرومتها . غير مواكل (٤) ولازميل (٥) عند ضعضة الحوادث (٦) .
فمن هو ؟

قال : ذاك أبو سفيان بن حرب .

فقالت : فزوجه ولا تلقني إليه إلقاء المتسلس السلس ،

(١) « مؤات لها فيما عسى .. » : لا يثور لخطئها الذي
يسيء سمعتها وسمعته .

(٢) وائمة : محبة جداً شديداً .

(٣) السليل بيني وبينه : الولد الذي ننجه .

(٤) مواكل : معتمد على غيره ، عاجز .

(٥) الزميل : الضعيف الجبان .

(٦) ضعضة الحوادث : وقوع المصائب .

ولا تسمه سوم المواطنس الضرس . استخر الله في السماء ، يخر
لك بعلمه في القضاء » (١) .

فصورة أبي سفيان عن كذب هي صورة الإنسان الذي حاز
على مجموعة من الفضائل في المجتمع الجاهلي هيأته لزعامة عشيرته ،
فهو في الحسب في الأرومة والذروة من قبيلته .

أبو سفيان بن حرب ، بن أمية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف .
ولقد غدا بدر أرومته ، وعز عشيرته ، لأنه استطاع بقوة
شخصيته أن يضبط أهله ، ويفرض عليهم وجوده ، وحين أسلسوا
له عنان الطاعة ، أكرمهم ونمى فيهم جوانب القوة والمجد ، لكنه
لا يسكت على هنة أو خطيئة تبدر منهم ، فهو وعز لا يصلون إلى
رضاه إلا بالجهد .

وقد دفعه حرصه على أهله أن يكون غيوراً على نسوة عشيرته ،
قاسياً في فرض سلوك اجتماعي عليهن يتناسب وطبيعة هذا المجتمع ،
وقد حاز على شرف المال علاوة على شرف النسب ، وحاز على
شرف الشجاعة وقوة الشكيمة ، فيرفض أن يستذل أو يهان ،
ولا يسكت على ضيم ينزل به .

فيكاد يكون قد حاز على قيم المجتمع الجاهلي التي تؤهله
للزعامة والقيادة .

غير أن عتبة بن ربيعة أشار من طرف خفي إلى خلق في أبي
سفيان قد لا يرتضيه وهو (إذا جاع غير منزور) فجوعه ليس عن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ . نشر
دار صادر ودار بيروت .

حاجة ، وما لم يكن الجوع عن حاجة فهو عن اقتصاد ، وهو الذي أشارت إليه هند بنت عتبة بعد إسلامها فقالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وأنا آخذ من أمواله الهنة بعد الهنة ، فهل هذه سرقة . فقال : خذي من ماله ما يكفيك وولديك بالمعروف (١) .

لكن أبا سفيان كان يتكلف الجود إذا اقتضى الأمر يدفعه ضريبة وثنماً للزعامة .

هذه شخصية أبي سفيان كما يراها كبير مكة عتبة بن ربيعة .

ولم يتقدم أبو سفيان خاتماً هند بنت عتبة عراً كذلك . فعتبة أبوها في اعتقاده سيد قريش بلا منازع ، وهو يريد أن يصل زعامته برعامة عتبة بسبب ، نلاحظ هذا من حوار جرى بين أبي سفيان ، وبين أمية بن أبي الصلت صديقه ونديمه :

« أمية لأبي سفيان : حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجنب المظالم والمحارم ؟

أبو سفيان : إي والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

إي والله .

— وكريم الطرفين وسَط في العشرة ؟

نعم .

— فهل تعرف قرشياً أشرف منه ؟

(١) الإصابة في تمييز الصحابة في ترجمة هند بنت عتبة وهو مخرّج في الصحيحين .

لا والله لا أعلم . . . » (١)

هذا شرف محتد هند بنت عتبة . فكيف تبدو لنا هند في هذا البيت ؟

انها قوية الشخصية ، وتبدو قوة شخصيتها من خلال موقفين يبرزان نفسيتهما الانوفة وشخصيتهما القوية .

فهي تقول لأبيها في جراحة لا تحد :

« إني امرأة قد ملكت أمري ، فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه علي » .

إنها ترفض أن تقاد والآن تملك من أمرها شيئاً .

كما يبدو ذكاؤها الوقاد ، وحصافة عقلها في حسن سبرها للرجال ، وتقديرها لهم يوم خيرت بين الرجلين .

فالمرأة العادية ترى في النوع الأول من الرجال منيتها . فهو سمح لين جواد ، حسن المعاملة لزوجته للدرجة الضعف والانقياد لها .

فهي تستطيع أن تحظى عنده بأوفر قسط من السعادة والمتعة ، لا تحمل عبء غضبه لأنه سمح ، ولا تحمل عبء بخله لأنه جواد . ولا تحمل عبء نسبه لأنه حسيب نسيب . وماذا تريد المرأة أكثر من هذه الوفرة من المزايا في المال والحسب وحسن المعاملة ؟!

بينما تخشى المرأة العادية من النوع الثاني من الرجال . فهو قاسر في معاملته ، لا يستطيع أن تصل إلى مآربها لقوة شخصيته ،

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٢٢٢/٢ .

التي تقف سداً منيعاً دون أهوائها وملذاتها ، وتعاني من شدة
غيرته وتطيره الأمرين في تأويل كل تصرف لها بسوء ، وقمعها عن
كل تحرك عادي يمكن أن يرى به خروجاً عن الجادة .

أما المرأة الحصيفة التي يحركها المجد ، وتستهوئها السيادة
تفرض ذلك المطواع لها زوجاً ؛ لأن الناس سيتندرون به في
مجالسهم ، وهي تقبل بسوط ذلك الوعر القاسي الذي يشهد له
قومه بعزته ومنعته ، وتقبل مراقبته لها حتى لو وجدت في ذلك
عنناً ورهقاً ؛ طمعاً في جانب آخر تعتز فيه ، هذا الجانب هو أن
يكون حامياً لنسائه ، يذود عنهن بالدم والروح .

وكانت هند من الطراز الثاني من النساء ، اللاتي يرين في
حسن السمعة والأحدوثة وشرف المجد ؛ ما يضحى بكل شيء في
سبيلها .

إن عمق تفكيرها وبعد نظرها ليبدو يوم تتخيل الولد الذي
ستنجه ، فعن أولاد النوع الأول تقول :

(فإن جاءت له بولد أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت) .

بينما تراها تقول في أولاد النوع الثاني :

« وإن السليل بيني وبينه لحري أن يكون المدافع عن حريم
عشيرته ، الذائد عن كتيبته ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن لأرومتها ،
غير مواكل ولازميل عند ضعضة الحوادث .

ويتبدى لنا بعد هذا كله — من خلال محادثة هند وأبيها —
وعياها العجيب حتى في طريقة قبولها لأبي سفيان .

هي ترفض القبول السهل حتى لا يظن أبو سفيان أنه نال
فتاة عادية ، ومن غير جهد ؛ فلا يشعر بكرامتها على أبيها .

كما ترفض التعنت حتى لا ينصرف أبو سفيان عنها ؛ وهي
وامقة لخلاله ، معجبة بخصاله . فكانت وصيتها لأبيها :

« ولا تلقني إليه إلقاء المتسلسل السلس ، ولا تسمه سوم
المواطن الضرس » .

وبذلك تحفظ كرامتها ، وتحقق مأربها .

غير أن ختام حديثها يعطينا جانباً جديداً من جوانب شخصيتها
فهي تقول : « استخر الله في السماء يخر لك بعلمه في القضاء » .
ومعنى الاستخارة في المفهوم الجاهلي هو الاستقسام بالأزلام .
وهذا يعني أننا أمام فتاة عريقة في جاهليتها ، محافظة على تقاليد
دينها ، وهذه التقاليد متغلغلة في أعماقها .

فرغم كل إعجابها بأبي سفيان ترى أن الاستخارة هي الحل
الحاسم في الأمر ومعرفة رضى الله في السماء يكون بالاستقسام
بالأزلام في الأرض ، وهذا ما يضيء لنا معالم الطريق الوعر العنيف
الذي سارت به هند وأبو سفيان ضد الدعوة الجديدة التي حمل
لواءها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

والذي لا بد من الإشارة إليه هو أن هند بنت عتبة لم تصل
إلى هذا المستوى من النضج إلا بعد أن عركتها السنون وحنكتها
التجارب ؛ إذ قد كانت زوجة للفاكه بن المغيرة قبل زواجها بأبي
سفيان بن حرب وقد طعنها في أعز ما تملكه ؛ في عرضها وشرفها ،
واحتكموا إلى كاهن باليمن ، فبرا ساحتها من هذا الاتهام الظالم .
وأبت بعدها أن تعود لزوجها الفاكه بن المغيرة الذي أقبل عليها
بلهفة وشوق بعد براءتها ، ومرت ثمان سنين بين زواجها من أبي
سفيان وتركها للفاكه بن المغيرة .

ولقد تركت هذه الحادثة - التي هزت كيان هند - أثراً عميقاً وعنيفاً في نفسها ، فهي تنضح بالكراهية والحقد للفاكه بن المفيرة زوجها السابق وهي تزداد انفة واستعلاءً يوم ترى أهل مكة جميعاً قد براوا ساحتها بعد تبرئة الكاهن اليمني لها .

لكن الذي يعنيننا من الأمر هو تلك الإضافة الجديدة لقناعات هند في دين قومها وتقاليدهم ، فهي قد لمست في هذا الكاهن صدقاً لا يعتريه الشك يوم كشف الخبء الذي خبأه له أبوها عتبة ، ويوم براها نظيفة طاهرة من بين العديد من النسوة التي كانت بينهم .

نحن إذن مع امرأة متمسكة بدين قومها وتقاليدهم أشد التمسك ، وعاشقة للشرف والشهرة أعظم العشق وأقواه .

بينما لا نجد جانب التعصب والتدين لدى أبي سفيان . فهو الذي أمضى حياته في التجارة والسفر ، ولقد رأى أدياناً غير دين قومه وعوالم غير عالم قومه ، والتقى مع عصابات الحضارات العالمية ؛ فلقد زار الشام والعراق ، ووصل إلى بلاط الفساسنة والمناذرة ، وبلاط كسرى وقيصر . لقد كان لهذه الخبرة أثر كبير في تفكير أبي سفيان . لقد كان تاجراً قبل كل شيء . يجمع وي طرح فما يحقق له الزعامة يتبناه ، وما يحقق له الثروة يسعى إليه ، وما يلبي أشواقه وعواطفه يهجم عليه دون أن يخل بمروءته . وهو مستعد أن يقدم ضريبة الشرف والسؤدد مهما كان الثمن غالياً .

فعندما بنى أبو سفيان بهند بنت عتبة حدث ما أثار أنظار أهل مكة وكان حديث نواديها .

فلقد وصل مكة عشر جزائر (جمال) هدية من ملك اليمن ، وأمر أن ينحرها أعز قریش ، ومضى الناس يتساءلون عمن سيقدم على نحرها ويفامر بحياته في بلد يتنافس أهله على الشرف والزعامة؟!

وهند التي تمضي أحلى أيام شبابها وساعات أحلامها الرغيدة
مع أبي سفيان ؛ لم تنس ما اهتزت له من قصة الجزائر العشر .
فقال لزوجها ابن حرب : لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي
لعلها أن تفوتك .

فأجاب وهو غارق في لذته :

يا هذه ، دعي زوجك وما يختاره لنفسه . والله ما نحرها أحد
غيري إلا نحرته .

وبقيت الجزائر العشر معقولة في مكة دون أن يجروا من التقدم
إليها أحد ، وعندما أنهى أبو سفيان يومه السابع خرج من بيته ،
ومضى إلى الإبل فنحرها معلناً على الملأ أنه أعز شباب قریش ،
وراحت هند تفاخر بهذا الشرف الذي أصابه زوجها وجعلت
تنفس على النساء أن تكون عقيلة أعز رجل من قریش .

ترى ، هل ينتهي طموح هند عند هذا الحد ؟!

لا ، أبداً . فعندما كان وليدها معاوية يحبو في فناء بيته نظر
أبو سفيان إليه ، ثم قال لهند : إن ابني هذا لعظيم الرأس ، وإنه
لخليق أن يسود قومه !!

فأجابته : قومه قط ، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة (١) !!

فهي ترى به علائم النبوغ وتتطلع من خلاله إلى ملك عريض
واسع يكون هو الأمر الناهي فيه .

* * *

(١) رواه محمد بن سعد في الطبقات . كما أورده ابن كثير في
البدایة ١١٨/٨ .

الإسلام يغزو قلب معاوية

شاءت الأقدار أن يكون البيت الأموي عموماً - ولسنوات طويلة - في جانب والدعوة الإسلامية في جانب آخر ، وأن يدرج معاوية في هذه البيئة بعيداً عن الإسلام ورسوله .

وبعد غزوة بدر، نما الحقد على الإسلام ورسوله وتمكن في بيت أبي سفيان، وحزن معاوية لمقتل جده عتبة ولقتل خاله الوليد وأخيه حنظلة وزاد من حزنه شدة وجد أمه هند عليهم . ومضت سنوات ومعاوية يعيش في هذا البيت الذي نصب العداء شديداً للإسلام ، واحتوت ذاكرته صوراً ومشاهد كثيرة عن تلك الفترة لكن مشهداً منها هز كيانه كله وحفر في ذاكرته !!

هذا المشهد هو مقتل خبيب بن عدي رضي الله عنه في مكة وقد أخذ أسيراً إليها يوم الرجيع ، وها هو خبيب يرفع يديه للسماء قائلاً :

اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا !!

كان أبو سفيان في مقدمة من شهد مصرع خبيب ، وكان معاوية ابنه واقفاً جنبه . وعندما قال خبيب ضارعاً إلى ربه : اللهم ، أحصهم عدداً ، واقتلهم بديداً ، ولا تفادر منهم أحداً ؛ سرعان ما رأى أباه يهوي به إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب !! يقول معاوية :

حضرته (أي مقتل خبيب) يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان .
فلقد رأيتاه يلتقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون :
إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه (١) .

كان لهذا الموقف أثر كبير في نفسه جعله نهبة لكثير من الأفكار .
ترى لو كان خبيب وصحبه مبطلين فما الذي حدا بأبيه أن يهوي
به إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب ألاّ تصيبه ؟! وإن كان محقاً
ففيهم لا تألف كلمة قريش برأي واحد ، وتنتهي الحرب مع محمد
وأصحابه ؟! إنه لم يكن على ثقة تامة من صواب موقف قومه
ومعتقداتهم .

ثم إن هذا المشهد - مشهد مصرع خبيب - قد زرع في نفسه
قلقاً أخذ ينمو مع الزمن ؛ ليدفعه إلى موقف محدد بعد حين .



كان في الثانية والعشرين من عمره حين تجمعت الأحزاب من
غطفان وقريش لغزو المدينة ، وكان يرى أن هذه المعركة ستكون
حاسمة في مصير الإسلام والمسلمين . ولكنه عاد مع من عاد يجر
أذيال الخيبة ، وأصغى إلى أبيه وهو يخاطب أهل مكة ليلة
انسحاب الأحزاب :

« يا معشر قريش : إنكم - والله - ما أصبحتم بدار مقام .
لقد هلك الكراع والخف (٢) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي

(١) السيرة النبوية لابن هشام . مقتل خبيب وأصحابه
(سرية الرجيع) .

(٢) الكراع : الخيل ، الخف : الإبل .

نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون : ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإني مرتحل » ثم رأى أباه قد قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه . ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم (١) .

وتوترت أعصاب معاوية وهو يرى الحرب وقد أعطت ثمارها المرة ، إذ استهلكت الأموال ، ومحت الآمال وبدأ له أن تحقيق نصر حاسم على محمد بن عبد المطلب .



وعندما فاجأ رسول الله ﷺ أهل مكة في العام التالي برغبته في زيارة البيت الحرام اعتبروا ذلك إهانة بالغة لهم ، وأعلنوا أنه لا يدخلها عليهم عنوة أبداً . وتمضي الرسل بينهم وبين المسلمين ، وتسفر المباحثات عن عقد صلح الحديبية بين الفريقين .

ولین هذا الصلح شيئاً من الجمود الذي ران على النفوس ، ومحا شيئاً من الحقد الذي غلف القلوب ، وتفتحت نوافذ النور على قلوب القرشيين فبصرت الحق : فهذا خالد بن الوليد قائد الفرسان تتزعزع نفسه عقب هذا الصلح ، ويرى أن أمر محمد يعلو علواً منكراً . ويرى أن الله بجانب محمد وأصحابه ولن يتخلى عنهم !! وهذا عمرو بن العاص يتغير موقفه ، وهذا الفتى اليافع الذي دخل في الرابعة والعشرين من عمره « معاوية » ابن زعيم مكة « أبي سفيان » يتفتح قلبه للنور أيضاً .



(١) السيرة لابن هشام (غزوة الأحزاب) .

كان يعرف هول الموقف إذا أعلن إسلامه وهو يرى أباه يقود الحرب ضد محمد وأصحابه . لقد دخل اليقين إلى قلبه . ولكن هذا اليقين مالم يعلن ويتحمل صاحبه عواقبه لاجدوى منه . وفكر في أن يعرض على أمه هذه القناعة . .

كان يعلم مدى حقد أمه على المسلمين آنذاك . فمقتل أخيها وأبيها وعمها وابنها لا يزال غصاً في قلبها ؛ لكن علاقته بأمه كانت من العمق بحيث لم يكن يرى أن يخفي عنها ما يعتمل في نفسه . وحبا له من القوة بحيث تفتفر له كل ما يصدر عنه مما تكرهه .

وتشجع معاوية ذات يوم ، وقصَّ عليها قناعته بهذا الدين ورغبته بالهجرة إلى يثرب .

وغضبت هند وقالت له مهددة متوعدة : إن خرجتَ قطعنا عنك القوت (١) .

وغدت هند تخشى أن تستيقظ في أي يوم فلا ترى ابنها إلى جانبها . فتسأل عنه فيقال لها : هاجر إلى يثرب .

وصارت كالذي يقف بين نارين فلا يدري أيهما أخف فيقحمها : هل تكتم الخبر عن أبي سفيان حتى لا يؤذي ولدها الحبيب معاوية . أو أن تلقي إليه بالخبر فيحول دون هجرة ولدها إلى المدينة ؟

وعانت من هذين الموقفين الكثير . غير أنها رجحت في النهاية الموقف الأول وبلغ أبا سفيان ما يعتمل في فؤاد ابنه معاوية - وكان هو نفسه يعاني بعض ما يعاني ابنه لكنه مضطّر لكظمه - فقال له :

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ١٤ .

هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه .
فأسرها معاوية في نفسه ولم يبد لها . وقال : لم آل نفسي
جهداً .



يحدثنا معاوية رضي الله عنه عن إسلامه فيقول :
لقد أسلمت قبل عمرة القضية ، ولكنني كنت أخاف أن أخرج
إلى المدينة لأن أمي كانت تقول لي : إن خرجت قطعنا عنك القوت .
ويقول :
ولقد دخل علينا رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني
لمصدق به .

ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي فجئته فرحب بي (١) .



(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٨ .

الإسلام يدخل بيت أبي سفيان

دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً في العام الثامن للهجرة ، وعانى يومها أبو سفيان من آلام الاستسلام والهزيمة مالا يوصف ، وهو وإن كان قد أعلن في ظاهر الأمر دخوله في الإسلام ؛ إلا أن طعم الهزيمة مر . وهاهو ينظر إلى رسول الله ﷺ والناس قد اجتمعوا حوله . فعرض له خاطر استسلم له قليلاً ، وقال في نفسه : لو جمعت لمحمد جمعاً .

إن إمكانية النصر في هذا الجمع وإن كانت بعيدة ، لكنها ليست مستحيلة . . إنه لو انتصر لكانت هذه الجموع من الناس كلها تتجه نحوه ، وتنتظر كلمة من شفّيته ، تقرر مصير الألوف من الناس . ها هو الآن امرئاً عادياً لا يلتفت إليه أحد ، ولا يعبأ به أحد . وما أغنى عنه فخر البارحة - من دخل دار أبي سفيان فهو آمن - .

وراح يراجع رصيده من جديد . aimضي إلى أقاربه من ثقيف يجمع الجموع . أم ماذا يفعل ؟ .

وبينا هو على هذه الحال إذا بيد تصكه بين كتفيه ، فينتفض كمن لسعته حية ، ويستيقظ من ذهوله وينظر ؛ فإذا هو محمد رسول الله ﷺ ، فيتكلف له الابتسامة ، لكن الذي أفقده صوابه هو قول الرسول ﷺ :

« إِذَا يَخْزِيكَ اللَّهُ » (١) .

وفي أسرع من لمح البصر ربط بين قوله في سريرة نفسه :
(لو جمعت لمحمد جمعاً) وبين قول رسول الله له : (إِذَا يَخْزِيكَ اللَّهُ) .

فعرف يقيناً أنه بين يدي نبي مبعوث من السماء ، عرف
مايجول بخاطره بوحى من الله . فقال وقد رفع رأسه إليه :

— ما ايقنت أنك رسول الله حتى الساعة .

وانا استغفر الله وأتوب إليه ، والله ما تفوهت به ، إلا شيء
حدثت به نفسي .

ودخل أبو سفيان في الإسلام صادقاً موقناً . وفي المساء
والناس يكبرون ويهللون أحب أبو سفيان أن يدغدغ مشاعر هند
زوجه . فقال لها وأصوات التكبير من المسلمين تصك آذانها :
أترين هذا من الله ؟

قالت : نعم هذا من الله .

وهكذا بدأت معالم الصورة الحاقدة على رسول الله تمحي
شيئاً فشيئاً . إن هؤلاء الذين حاربهم هند ، وتقربت إلى آلهتها
بحربهم . لم يغمض لهم جفن ليلتهم وهم يكبرون ويهللون ، ولقد
عبرت عن إعجابها بهم حين قالت لزوجها : (ما رأيت الله عبداً
حق عبادته حتى اليوم) .

(١) أصل الرواية عند ابن سعد عن الواقدي ، وقد أوردها
ابن كثير في البداية ج ٢ ص ٣٠٤ . ولها شاهد عند البيهقي قريب
من ذلك .

وعندما بلغها أن الناس يبايعون على الإسلام جاءت تقود نسوة مكة إلى رسول الله ﷺ وذلك عند الصفا ، وعمر بن الخطاب يأخذ البيعة منهن . . كانت متقبلة متكررة تخشى أن يعرفها النبي فيأمر بقتلها .

لقد ولغت من قبل بكبد حمزة عمه وشوخته ، ولقد أثارت أعرق ما في نفسه من آلام !!

كان قلبها يخفق خفقاً رهيباً فهي بين الأمل بالعفو ، والخوف من الانتقام .

ويقول رسول الله ﷺ للنسوة :

— بايعني على أن لا تشركن بالله شيئاً .

هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال (وبايعت على ذلك) .

رسول الله : ولا تسرقن .

هند : والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا .

أبو سفيان : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .

رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟!

هند : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك .

رسول الله : ولا تزنين .

هند : يا رسول الله وهل تزني الحرة ؟!

رسول الله : ولا تقتلن أولادكن .

هند : قد ربيناهم صفاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر
كباراً (ويضحك عمر من قول هند حتى يستغرق) .

رسول الله : ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن .

هند : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

رسول الله : بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم .

وتقبل هند على رسول الله وتقول له :

يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي من
أن يذلوا من أهل خبائك . ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل
خباء أحب إلي من أن يعزّوا من أهل خبائك .

ويجيبها رسول الله ﷺ : وأيضاً والذي نفس محمد بيده (١) .

وانتهت بذلك مرحلة من الصراع استمرت ماينوف عن
عشرين عاماً .

وأصبح أبو سفيان وزوجه هند ننت عتبة جنديين من جنود
الدعوة الإسلامية ، ومسح الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه
الجراحات بيده الحانية ، وغض النظر عن الاساءات الكبرى ،
والاحقاد الهائلة التي أجج أبو سفيان وزوجه أوارها حين قال لهند :

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣١٩ . وقد أخرجه
مسلم والبيهقي عن عائشة .

وأيضاً والذي نفس محمد بيده .

وعادت إلى بيتها والإيمان يعمر قلبها ، فوقع نظرها على الصنم في زاوية من البيت فاندفعت بغضب شديد إلى الصنم تهشم وجهه وتحطمه قائلة :

كنا منك في غرور !!

* * *

أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على ظهر الكعبة . وكان أبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام قد خلوا ثلاثتهم بفناء الكعبة ، فلما سمعوا النداء قال عتاب :
لقد أكرم الله أسيداً إلاّ يكون سمع هذا فيسمع منه ما يفيظه .
واجابه الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته .
لكن أبا سفيان قال : والله لا أقول شيئاً . ولو تكلمت لأخبرت
عني هذه الحصباء !!

وخرج عليهم النبي ﷺ ، وفاجأهم بقوله :

« قد علمت الذي قلتم » ثم ذكر لهم ذلك .

وصاح الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله . والله ما اطلع
على هذا أحد معنا فنقول أخبرك (١) .

* * *

(١) السيرة لابن هشام : ج٤ فتح مكة ص ٢٧ . ط كتاب
التحرير ١٣٨٤ هـ .

ومضى أبو سفيان ومشixe قريش مع رسول الله ﷺ إلى هوازن ، وحضر الحرب دون قتال (١) .

ثم تابع السير مع الجيش الإسلامي إلى ثقيف ، وقد رأى بأم عينه كيف أنجز الله وعده ، ونصر عبده محمداً ﷺ على هوازن ، وآلمه أن المعركة انتهت دون أن يشارك فيها ولو بسهم . فجاشت نفسه إلى لقاء العدو ، ومن أجل هذا ما إن توجه رسول الله ﷺ إلى ثقيف حتى اندفع أبو سفيان يقاتل وينازل . وبينما هو كذلك إذا بسهم يهوي إليه فينال منه أغلى ما يملك ، ينفرز السهم بعينه ، فتخرج سائلة على وجهه . ومضى أبو سفيان إلى رسول الله يقول له : هذه عيني أصيبت في سبيل الله .

واجابه عليه الصلاة والسلام : إن شئت دعوت فردت عليك ، وإن شئت فالجنة (٢) .

وصاح أبو سفيان : الجنة .

ورأى أبو سفيان في لحظة واحدة تاريخ جاهليته يطوى بهذه المائرة التي ساقها الله إليه ، وأيقن أنه قد مشى على الطريق ، طريق الجهاد الذي سوف ينتهي به إلى الجنة !!

(١) روى ابن اسحاق أن أبا سفيان قال في حين عندما فر المسلمون في بداية المعركة : (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وإن الألام لمعه في كنانته) . وقد ساقها ابن اسحاق دون إسناد عن أحد ، فلا ندرى مقدار صحتها ، ومن أين استقى خبرها ؟!

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ، رواه الزبير عن طريق سعيد ابن عبيد الثقفي ج ٣ ص ١٧٣ .

وعاد الجيش الإسلامي من حصار الطائف ، ونزل رسول الله
بالجمرانة يريد قسمة الغنائم الهائلة التي غنمها المسلمون في معركة
حنين ، ولم يدر أبو سفيان هل سيناله منها شيء أم لا ؟

وتقدم أبو سفيان على استحياء من رسول الله وقال له :
(يا رسول الله أنت اليوم أغنى قريش) .

فتبسم رسول الله ﷺ ، وأدرك ماذا يعتمل في خاطر الرجل .
وقال أبو سفيان : حظنا من هذه الأموال .

وأمر رسول الله بلالاً فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من
الفضة .

فقال : حظ ابني يزيد .

فأعطاه أيضاً مائة من الإبل وأربعين أوقية .

فقال : فأين حظ ابني معاوية .

فأمر له أيضاً بمائة من الإبل وأربعين أوقية .

ورأى أبو سفيان أنه قد حصل له من الغنائم شيء لم يخطر
له على بال ، وأن النبي قد بالغ في إعطائه، فقال:بأبي وأمي يا رسول
الله لأنت كريم في الحرب والسلام هذه غاية الكرم، جزاك الله خيراً (١) .



أسلم سيد ثقيف عروة بن مسعود صهر أبي سفيان فقتلته

(١) مختصر السيرة لعبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ص ٣١٨ .

ثقيف عندما دعاهم إلى الله وقال فيه رسول الله ﷺ :

مثله في قومه كمثله صاحب « يس » في قومه .

وتسلل أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود ليلاً من ثقيف
ويمما صوب المدينة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجمعها على شيء
أبدا .

فسلما على رسول الله بتحية الإسلام .

فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما .

قالا : نتولى الله ورسوله .

فقال رسول الله ﷺ : وخالكما أبا سفيان .

قالا : وخالنا أبا سفيان بن حرب .

ثم جاء وفد ثقيف بإسلام القبيلة كاملة . وكان رسول الله
ﷺ يحب أن يكرم أبا سفيان، ويفجر طاقاته في سبيل الله، فكلفه مع
المغيرة بن شعبة بهدم اللات صنم العرب الأكبر الذي كان في ثقيف .

وبطبعه السياسي الأريب لم يشارك في هدمها خوفاً من ثورة
ثقيف عليه كما قال ، أما المغيرة بن شعبة فقد قام قومه بحمايته
أثناء عملية الهدم .

وكان أبو سفيان يستشعر حياته الطويلة في حرب الإسلام ،
ويراجع رصيده وكيف كان يعظم اللات حتى ليقسم بها قبل العزى،
وهاهي الآن تندك بمعاول الإسلام بيد المغيرة كما دكت العزى على
يد خالد بن الوليد .

فينظر إليها ساخراً منها ومن نفسه ، شامتاً بها وبنفسه يوم

كان يعبدها وقال : واهاً لك ، واهاً لك !!

وسرّه مابها من حلي وجواهر كانت له وللمغيرة . وإذا برسالة رسول الله ﷺ له أن يدفع دين ولدي أخته أبي مليح بن عروة ، وقارب بن الأسود قائلاً له :

إن رسول الله قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دينهما فقمضى عنهما (١) .

وراح المال يصهر الحقد الذي حمله على الأيام على محمد رسول الله وصحبه المجاهدين .

* * *

أحس أبو سفيان أن الناس لا يزالون ينقبضون منه ، ويزورون عنه . فلم ينس الناس له بعد حربه الطويلة لله ورسوله . فجلس ذات يوم يستعرض هذا الواقع الذي يتجرع منه الفصص المرة ، ويذكره بأيامه السود الكالحة التي جبتها الإسلام ، ولكنها لم تغب عن أذهان الناس بعد، وضاحت به الدنيا وهو يستعرض الحلول التي يطوي فيها من أذهان الناس تلك الصفحة القاتمة . وبعد تفكير عميق وكد ذهني اهتدى إلى الحل . فمضى على جناح السرعة إلى الرسول ﷺ فاستقبله ورحّب به وأدناه .

فقال أبو سفيان : يا نبي الله ثلاث أعطين .

قال : نعم .

(١) مختصر السيرة ص ٣٢٥ .

قال : عندي احسن نساء العرب وأجملهن عزة بنت أبي سفيان
أزوجهما .

رسول الله : إن ذلك لا يحل لي (١) .

قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك .

قال : نعم .

قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين .

قال : نعم (٢) .

وانفجرت أسارير أبي سفيان ، وملأت الغبطة جوانحه ،
وملكت عليه فؤاده ، ثم حمل البشرى إلى ولده معاوية ، الذي دخله
من السرور ما لا يوصف أن صار كاتباً بين يدي البشير النذير ﷺ .



(١) الذي ورد في رواية مسلم هو زواج أم حبيبة وليس زواج
عزة . والرواة مجمعون على وهم راوي الحديث - عكرمة بن عمار -
لأن أم حبيبة رضي الله عنها زوجها النجاشي من رسول الله قبل فتح
خير بأمر رسول الله وبقيت في بيت رسول الله ﷺ منذ ذلك الوقت ،
ونزل عليها أبوها أبو سفيان وهو مشرك يوم جاء المدينة ليشد العقد
ويزيد في المدة . وطوت عنه فراش رسول الله . وقد اختار ابن كثير
هذا الرأي وهو زواج أختها . واعتذار رسول الله ﷺ عن ذلك لأنه
لا يجوز الجمع بين أختين ، وهو الأقرب للصواب .

(٢) رواه مسلم .

معاوية في مدرسة النبوة

أقام معاوية في المدينة وكان أسعد ما يكون ساعة يستدعيه رسول الله ﷺ ليملي عليه الوحي غصاً كما سمعه من جبريل عليه السلام . فينبج قلبه بالنور ، ويغمر فؤاده اليقين ، وكان أحب شيء إليه أن يمضي وقته عند أم حبيبة أخته . فهو عندئذ في بيت النبوة ، فأم حبيبة زوج النبي ﷺ . وكان يحرص أن يجلس إلى النبي ﷺ في المسجد ينهل من معين النبوة ، ويرتشف من منهلها فينصرف مروياً بعد صدى .

لقد صار كل همه أن يتلقى العلم والحكمة من الرسول صلوات الله عليه فلقد فاته خير كثير . وغدا لا يأتي إلا والقلم معه ، ينتظر أن يسمع المنادي يناديه ليكتب لرسول الله ﷺ .

و ذات يوم وقد عرف أن رسول الله سيدخل على أخته أم حبيبة ، وكانت عائشة أم المؤمنين تلحظ آنذاك حجرة أم حبيبة ؛ فرأت معاوية يستأذن على أخته ، والقلم على أذنه .

أقبل يومها ثم طرق الباب وقلبه يخفق خوفاً أن لا يؤذن له ، فقال النبي ﷺ :

— انظروا من هذا ؟

— قالوا : معاوية .

— قال : ائذنوا له .

فدخل وعلى أذنه القلم ، فقال (عليه الصلاة والسلام) :
- ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟
- قال : قلم أعدده الله ورسوله .

فقال له : جزاك الله عن نبيك خيراً ، والله ما استكتبتك إلا
بوحى من الله .

(وكانت أم حبيبة تستمع إلى ثناء رسول الله على أخيها
فتطرب من الفرح . فأصغت إلى رسول الله ﷺ حيث تابع قائلاً) :
وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحى من الله ..

وتابع يقول :

كيف بك لو قمصك الله قميصاً ؟

وما أن صكّ هذا الكلام أذني أم حبيبة . حتى بادرت تسأل
النبي :

- يا رسول الله وإن الله مقمصه قميصاً ؟؟

- نعم ، ولكن فيه هنات وهنات .

- يا رسول الله فادع الله له .

ورفع رسول الله يديه يدعو لمعاوية :

- اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى ، واغفر له في الآخرة
والأولى (١) . وخرج معاوية كأنما ملك الدنيا كلها بعد الذي سمعه
من دعاء رسول الله ﷺ .

(١) رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه السري بن عاصم وهو ضعيف .

انظر المجمع ٣٥٦/٩ .

وما من مرة كان رسول الله ﷺ يستدعيه إلا وكان أسرع ما يكون بين يديه عليه السلام ، إلا تلك المرة التي حدثنا عنها ابن عباس قائلًا :

« كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ . فقلت : ماجاء إلا إليّ ، فاخبتأت على باب ، فجاءني فخطاني خطاة أو خطاتين (١) ، ثم قال :

اذهب فادع لي معاوية .

قال : فذهبت إليه فدعوت له ، فقبل : إنه يأكل .

فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنه يأكل .

فقال : اذهب فادعه .

فأتيت الثانية فقبل : إنه يأكل . . فأخبرته .

فقال في الثالثة : لا أشبع الله بطنه » (٢) .

(١) خطاني : صفعني على رقبتني .

(٢) أخرجه مسلم عن ابن عباس .

قلت: أورد مسلم حديث «لا أشبع الله بطنه» ثم أتبعه بحديث رواه البخاري أيضاً ، وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم إنما أنا بشر فأیما عبد سببته أو جلده أو دعوت عليه ، وليس لذلك أهلاً » فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة » وهكذا ركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية . وهذا من فقهه العظيم رحمه الله ، وأقره على ذلك العلماء .

(الناشر)

ولشد ما تألم معاوية عندما بلغه أن رسول الله دعاه ولم يلب ،
ولعل أهله لم يخبروه بذلك .

وكان كل ما يخشاه أن يكون رسول الله قد غضب منه أو تغير
قلبه عليه ، فكان يحرص على أن لا يفارقه ، وكان ينظر في وجهه
هل يعتب عليه بشيء ؟ . ولم يكن ليستقر له قرار في ليل أو نهار ،
بل كان يوصي أخته أم حبيبة أن تذكره أمام رسول الله . لتعلم هل
في قلبه شيء عليه أم لا ؟

إلى أن جاءته البشارة ذات ليلة أن رسول الله دعا له .

وكان ذلك حين دخل العرياض بن سارية المسجد النبوي في
السحر ، فرآه الرسول فقال له : هلم إلى الغداء المبارك .

يقول العرياض رضي الله عنه :

ثم سمعته يقول :

اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب (١) .

* * *

وشغلت كلمة رسول الله التي قالها له من قبل (كيف بك لو
قمصك الله قميصاً) بال معاوية وجعل يتساءل : هل سيلبي أمر
المسلمين ذات يوم ؟

كيف يكون ذلك وهو الشاب الفُمر ، وقد سبقه السابقون
في الجهاد والتفقه في دين الله .

(١) أخرجه الإمام أحمد عن العرياض بن سارية رضي الله عنه
والبزار، وفيه الحارث بن زياد ولم أجد مَنْ وثقه وبقية رجاله ثقات وفي بعضهم
خلاف . انظر المجمع ٣٥٦/٩ .

وجعل يطرد هذا الهاجس من رأسه ويقول في نفسه : ألم يقل له رسول الله ذلك ، ولا يقول النبي إلا حقاً !! فلم يبحث عن الكيفية؟ ولكن ما هذه الهنات والهنات .

إنه لا يجرو أن يرفع بصره في وجه رسول الله ﷺ فكيف يتمكن إذا أن يسأله عن هذه الهنات والهنات ؟!!

لا يمكن أن يكون ذلك إلا اذا انفرد به صلوات الله وسلامه عليه ومع ذلك فهل يجرو أن يفتح رسول الله فيه .
وحانت له الفرصة ذات يوم .

فلقد اشتكى أبو هريرة - وكان يحمل الأداة لرسول الله ﷺ - فأسرع معاوية وأخذ الأداة ليوضئ بها رسول الله ، وجعل قلبه يخفق إجلالاً لرسول الله .

هاهو يسكب الماء على يديه عليه السلام . والهواجس تدور في خلدته وتعتلج في صدره . فماذا يسأل رسول الله ؟

ونظر رسول الله ﷺ نظرة فاحصة إلى معاوية ، فأغضى معاوية حياءً وهيبة من رسول الله .

وأعاد رسول الله نظره إليه وهو يبتسم وقال له :

« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » (١) .

(١) أورده ابن كثير عن أبي يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا وابن منده ، ورواه الإمام أحمد عن روح عن عمرو بن يحيى عن جده .
ورجاله ثقات .

وامتلاً معاوية سروراً بما سمع ، وتابع صبه الماء على يدي
النبي ﷺ .

ونظر رسول الله ثانية إليه وقال :
(أما إنك ستبلى أمر أمتي بعدي ، فإذا كان ذلك فاقبل من
محسنهم وتجاوز عن مسيئهم) (١) .

وأيقن معاوية بعد ما سمع هذه الكلمة الصريحة من النبي أنه
سيبتلى بأمر المسلمين .

بيد أنه لم ينس كلمته عليه السلام : « فيه هنات وهنات !! »
تري ألا يتعرض للدعوة ينالها من رسول الله فتذهب هناته
وتريح نفسه ؟

وانتظر معاوية هذه الدعوة ، وجاءت فيما بعد ، وقال له
يوماً - وعبد الرحمن بن أبي عميرة عنده - : « اللهم اجعله هادياً
واهد به » (٢) .

وأقبل معاوية على رسول الله يتعلم منه ، ويقتبس من هديه ،
وزاده شغفاً بالعلم تلك الكلمة الرائعة التي سمعها من رسول الله
يحض بها على طلب العلم والتفقه في الدين ، لقد سمعه يوماً يقول :
(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله

(١) ابن كثير عن غالب القطان صدوق عن الحسن . ورواه الحسن .
ورواه البيهقي وفيه إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر وهو ضعيف . بلفظ : إذا
ملكك فأحسن .

(٢) رواه الترمذي .

عزوجل يعطي . ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله (١) .

لقد أخذ من الدنيا ما فيه غناه ، فلقد قسم له رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة .

وما عليه إلا أن يجتهد اجتهداً عظيماً في صحبة رسول الله والأخذ عنه .

وكان أشد ما يشغل باله أن يتخلص من رواسب جاهليته كلها .

لقد كان في جاهليته يشرب الخمر ويلبس الحرير ، ويهوى تقاليد الجاهلية ، والآن يريد أن يخلع كل جاهليته ، وجعل يصغي إلى كل حديث يتحدث به الرسول ﷺ ، ويسارع إلى تطبيقه .

أما بالنسبة للخمر فقد عرف تحريمها من كتاب الله . لكن لفت انتباهه ماسمعه من رسول الله ﷺ في هذا الصدد وهو :

كل مسكر حرام على كل مؤمن (٢) .

فلا بد له إذاً أن يتجنب كل مسكر ، أو فيه شبهة الإسكار . حرصاً على مرضاة الله .

وثار في ذهنه سؤال عن اللباس ، فهو يجد معظم المسلمين بعيدين عن التنعم ، حتى ولو كانوا أغنياء . وراح يسائل نفسه : هل هو رغبة منهم في الزهد في نعيم الدنيا ، أم هو محرم يجتنبوه .

(١) رواه البخاري .

(٢) أخرجه ابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان . كتاب الأشربة . رقم الحديث ٣٣٨٩ . وقال البوصيري : إسناده صحيح ورواته ثقات .

إنه يود أن يعرف الحلال والحرام في هذا المجال .

و ذات يوم سمع رسول الله ﷺ ينهى عن لبس الحرير والتختم بالذهب ، فأدرك الحكم الشرعي ، بيد أنه فوجيء يوماً برسول الله ﷺ يقول :

لا تركبوا الخز ولا النمار (١) .

فعلم أن الأمر إذاً أوسع مما كان يتوقع ، فليس النهي منصباً على اللباس فقط .

لكنه منصب كذلك على الاستعمال والتباهي به سواء كان على الجسم أم على البرزخون أم في البيت . وبذلك عرف حكم الله في اللباس وعرف الحد بين الحلال والحرام في هذا المجال .

وسمع معاوية ذات يوم النبي يذم التماذج ، فاضطرب لما سمع فهو ممن يحب المديح والثناء ، ويجب كذلك أن يشني على من هم أهل للثناء .

أجل قرع سمعه رسول الله ﷺ يقول :

« إياكم والتماذج » .

ويرد ف هذا التحذير بقوله : « فإنه الذبح » (٢) .

(١) سنن أبي داود أخرجه عن معاوية بن أبي سفيان ج ٢ ص ٣٨٨ . باب في جلود النمر والسباع .

(٢) سنن ابن ماجه أخرجه عن معاوية بن أبي سفيان . ص ١٢٣٢ . رقم الحديث ٣٧٤٣ . وهو حديث حسن .

وخلا إلى نفسه ملياً يفكر في هذا النهي والحكمة منه ، وانتهى بعد لأي إلى أن النهي منصب على المديح الكاذب ، والتملق الذي ينبت النفاق في القلب . والثناء على الباطل واهله طمعاً في المال ، ورغبة في المجد . حيث عرف من إخوانه أن رسول الله ﷺ قال : « احثوا في وجوه المداحين التراب » .

وهم الذين يتسكعون على أبواب الأمراء والملوك وزعماء القبائل يكيلون لهم ألوان المديح بالحق والباطل ليصلوا إلى أموالهم .

لكنه عرف كذلك من قول الله جل شأنه أن القيمة الحقيقية للإنسان ليست في رأي الناس فيه وإنما في منزلته عند ربه ؛ وذلك عندما تلا قوله تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وتعلم من رسول الله أدب الإسلام في الثناء وذلك في أن يقول لمن يود مديحه : احسبه كذا ، والله حسيبه ، ولا أركى على الله أحداً .

وعرف المقصود من الذبح أنه يولد في نفس المدح غروراً قاتلاً أشبه مايكون بذبحه ، حيث قد سمع شبهاً لهذا المعنى من بعض إخوانه الذي روى له عن رسول الله ﷺ قوله لأحد المداحين لأخ له : « قطعت عنق صاحبك » .

إنه يحس أن نفسه تطهر يوماً بعد يوم ، وتزكو ساعة بعد ساعة وهو يفبق من رحيق النبوة ، ويسعى جاهداً أن يقوم بكل ما يسمعه من رسول الله بدقة متناهية . بل ويبلغه لإخوانه ليقوموا به .

لقد كان أسعد ما يكون يوم يرى الناس يقفون إجلالاً له . أما الآن ، وما أن يقف له بعض أتباعه حتى يأمرهم بعدم الوقوف ،

وذهلوا لذلك ، وسألوه : فقال لهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار (١) .

وانتقل معاوية من السلبيات إلى الإيجابيات . لقد حرص
على تنفيذ أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام : (ما نهيتكم عنه
فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) . فاجتنب كل
ما نهى رسول الله عنه ، وصفى نفسه من آثار الجاهلية ، وها هو
الآن يتجه إلى أن يمضي قدماً في تزكية نفسه بالعمل الصالح .
ويحرص على أن يكون أساس العمل طيباً زكياً لأن الله تعالى لا يقبل
إلا طيباً . خاصة وقد سمع رسول الله ﷺ يقول :

« إنما الأعمال كالوعاء . إذا طاب أسفلهُ طاب أعلاه ، وإذا
فسد أسفلهُ فسد أعلاه » (٢) .

فخرج يوماً إلى المسجد وجلس بنفس هادئة رضية يذكر
الله عز وجل مع إخوانه فخرج عليهم رسول الله ﷺ . قال :
ما يجلسكم ؟

قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومن
علينا به .

فقال : آله ما أجلسكم إلا ذاك ؟!

-
- (١) سنن الترمذي أخرجه عن معاوية بن أبي سفيان باب
كراهية القيام رقم ٢٩٠٣ وهو حديث حسن .
(٢) سنن الترمذي أخرجه عن معاوية بن أبي سفيان ،
أبواب الدعوات ، وقال عنه : حديث حسن غريب .

قالوا : الله ما اجلسنا إلا ذاك .

قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، إنه أتاني جبريل وأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته (١) .

وحفظ في فقه الصلاة عن رسول الله ﷺ :

« لا تبادروني بالركوع ولا بالسجود . فمهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني به إذا رفعت ، ومهما أسبقكم به إذا سجدت تدركوني به إذا رفعت . إني قد بدئت » .

وحفظ عنه قوله عن المؤذنين :

« المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » .

وحفظ أحاديث كثيرة ، لكن ثلاثة أحاديث كان لها أعمق الأثر في نفس معاوية وبدا أثرها واضحاً خلال خط حياته كلها :

الحديث الأول : حديث الطائفة الظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله .

الحديث الثاني : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة . (وزاد ابن يحيى وعمرو) وإنه ستخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله .

(١) سنن الترمذي أخرجه عن معاوية بن أبي سفيان ، أبواب الدعوات ، وقال عنه : حديث حسن غريب .

الحديث الثالث : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

لقد كان معاوية رضي الله عنه حريصاً أشد الحرص على أن يكون من هذه الطائفة القائمة على الحق . كما كان حريصاً على أن يكون من الفرقة الناجية . ولا شك أن هذه الفرقة الناجية هي الثابتة على الحق القائمة بأمر الله . ويسعده أن يكون أميرها لأن رسول الله ﷺ بشره أنه سيملك ، وسيقمصه الله قميصاً .

ولكن بينه وبين الحكم أشواط وأشواط . فذاك وائل بن حجر يفد إلى رسول الله ﷺ - بقية أبناء الملوك في اليمن . وسارع معاوية ليراه . وشد انتباهه ترحيب رسول الله ﷺ به حتى ليبسط له رداءه ليجلس عليه . وما ودعه حتى دعا له وأقطعته أرضاً يعرف معاوية قيمتها . وجاء أمر رسول الله ﷺ له بأن يذهب مع وائل بن حجر ليعطيها إياه . فagتبط معاوية لذلك . ورجا أن يسعد بصحبته . لكنه عاد يجترّ مرارة تلك الصحبة . فقد شوت الأرض قدميه ووائل يركب على ناقته . فقال له : أعطني نعلك : فأجابه وائل : انتعل ظل الناقة . فقال له : أردفني خلفك . فقال له وائل : لا تكون من أرداف الملوك^(١) . تجرع معاوية غصص تلك الصحبة ، وعرف أن الملك لا يأتي لقمة سائغة .

ولا يمكن أن يأتي إلا عن طريق الجهاد ، وأن يمضي قدماً في بلاد الله يفبر قدميه في سبيل الله . مهاجراً من أرض إلى أرض ، وينتقل من معركة إلى معركة .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٩١/٥ . وقد رواه أبو داود والترمذي وصححه ح/١٠٨١ .

ومن أجل هذا ما إن قبض رسول الله، ونهل من علمه ما نهل .
حتى كان صافاً قدميه في عداد المجاهدين في سبيل الله .

ووطن نفسه على أن يطوي صفحة حياته السابقة كواحد من
أهل مكة المعاندين للدعوة ، وعلى أن يخوض غمار الجهاد غير عابئ
بكل ما يجره عليه من متاعب وبلاء وتضحيات ، فلقد وقر في قلبه
حديث رسول الله ﷺ :

« لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة » .



أمراء في سبيل الله

بدأت الكتائب الفازية في سبيل الله تنطلق إلى ساحات الجهاد . وكان لا بد لشباب مكة أن يتقدم ويحمل مسؤولياته ، فقد كفاه ما قام به من صدٍ عن سبيل الله ، ولا بد له أن يكفّر عن سيئاته ، ويصارع الشرك كما صارع الإسلام .

وطالما أن قيادة مكة كانت كلها بيد أبي سفيان ، وقد غدا شيخاً مسناً ؛ فكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى يزيد ابنه ليكون واحداً من الأمراء الذين أوكل إليهم جانب مهم من الفتوح الخطيرة .

واختار الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان لفتح دمشق عاصمة بلاد الشام ، وكان جمهور الناس مع يزيد ، وخرج الخليفة الصديق يودعه ماشياً إلى خارج المدينة ويزيد أمير الجيش راكباً ، فقال للخليفة :

إما أن تركب وإما أن أنزل .

فأجابه : ما أنا براكب ولا أنت بنازل ، إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله . ولم ينس أن يشيعه بوصيته التاريخية المشهورة ، والتي نذكر منها :

« يا يزيد إنك شاب تذكر بالخير قد رأي منك ، وذلك لشيء خلوت به في نفسك . وقد أردت أن أبلوك واستخرجك من أهلك .

فأنظر كيف أنت ؟ وكيف ولايتك ، فإن أحسنت زدتك ، وإن أسأت عزلتك (١) .

وعليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك . وإياك وعيبة الجاهلية ؛ فإن الله ييبضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه . . . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به . . . وامنع من قبلك عن محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم . . واسمر في الليل في أصحابك تأتاك الأخبار . . وأكثر حرسك وبددهم في عسكريك . . . ستجدون قوماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له « (٢) .

ولم يجد أبو سفيان غضاضة في أن يمضي مع هذا الجيش الغازي ، فهو يحس أن الراية لا تزال في يده طالما أن ابنه يزيد هو الذي يحملها ، وشكر للصدِّيق صنيعة هذا فدعا له بخير ، وقال : وصلته رحم .

ورأى بأمر عينه كيف تنقلب الموازين رأساً على عقب ، فالصدِّيق — الذي كان كما قال عنه في بداية خلافته : من أذل حي في قريش وأقله — يصبح اليوم صاحب الكلمة العليا في الدولة الإسلامية . وغدا كبار قريش جنوداً تحت لواء ابنه يزيد ، وكان الخطر يقترب رويداً رويداً ، والمسلمون يواجهون كل يوم جموعاً من العدو إلى

(١) حياة الصحابة نشر دار القلم ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير دار صادر ودار بيروت .

ان آذنت ساعة اللقاء الحاسم معه . واجتمع القادة الكبار : يزيد وشرحبيل وعمرو وخالد وأبو عبيدة لبحث الموقف ، وبلغ أبا سفيان الأمر - وقد تحركت في قلبه ذكريات الماضي القريب يوم لم يكن يقطع برأي ولا يبت بمشورة دونه - وترك هواجسه نهبة لهذه الأفكار ، ومضى ليلتقي مع القادة ليخططوا لأشرس لقاء وأعنفه بين المسلمين والروم .

استقبله يزيد بحفاوة ، وعمرو وخالد كذلك - وهم من رفاقه السابقين فيما مضى من حروب - وهنا قدّم الرأي التالي : وهو ان يتجزأ الجيش إلى ثلاثة أجزاء ، فيسير ثلثه فينزلون تجاه الروم ، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر ، ويتأخر خالد بالثلث .

وحان موعد اللقاء ، وكان الروم في العدد أضعاف المسلمين ، فكان لا بد من تحريك العواطف ودفع الطاقات إلى أقصى مدى ممكن .

وخطب عدد من القادة ، وكان لا بد لأبي سفيان أن يخطب وهو شيخ القوم ، فقال - وهو يستعرض في ناظريه أربعين ألفاً من المسلمين تحت لواء الإسلام - :

يا معشر المسلمين انتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين ، وأمداد المسلمين .

وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، قد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم . والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة . ألا وإنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ليس

لأحد فيها معقل ولا معول إلا الصبر ؛ رجاء ما وعد الله فهو خير معول . فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون (١) .

ثم ذهب إلى النساء فوصاهن ثم عاد فنادى :

يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم (٢) .

وكان معاوية جندياً من جنود المسلمين يتأهب لأول لقاء مع الروم ، وقد وجد في نفسه راحة يوم رأى أخاه يزيد على رأس الجيش الإسلامي .

إنه في هذه المعركة يحس بحماس عجيب واندفاع عميق ، إنه يقاتل ببسالة وشجاعة في هذه الحرب ، اليوم يحس بانسجام كامل بين الهدف العظيم الذي يقاتل من أجله وبين أغوار نفسه . فلقد انتهى من ذلك الازدواج المقيت الذي كان يعانيه يوم آمن بالإسلام ، ولم يجرؤ على إظهاره خوفاً من أمه وأبيه . يوم كانت أمه تهدده بأبيه الذي سيقطع عنه القوت ، ويوم كان أبوه يعيثره بأن أخاه يزيد خير منه وهو على دين أبيه .

كم كان يعاني في تلك الفترة من قلق نفسي وصراع داخلي ، بين ما آمن به وبين ما فرض عليه من سلوك ، لكن ما أسعده اليوم فها هو وأبوه وأمه وأخوه جميعاً جنود في سبيل الله .

وكان أكثر ما سره وهو يستمع إلى خطبة أبيه أن المسحة الجاهلية قد ذهبت نهائياً منه . إن المعاني التي يطرقها والقيم التي

(٢-١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٩ .

يوضحها إسلامية صرفة، فحديثه عن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين .
لقد انتهى إلى غير رجعة هبل الذي نادى باسمه يوم أحد بعد أن
تحطم يوم فتح مكة . ومضى إلى غير عودة حديثه عن قريش
وآلهتها ، والعزى التي اعتز بها يوم أحد حين نادى المسلمين : لنا
العزى ولا عزى لكم . إنه اليوم أمام الروم أعداء الله يحدد للمسلمين
اعظم امانيتهم : رسول الله والجنة ، ويحذرهم من عدوهم الرهيب
من الشيطان والنار .

ولم يكتف أبو سفيان بهذا ، بل إنه كلما حامت غمامة حروبه
ضد رسول الله على فكره ، لاذاكثر وأكثر بالإسلام ، ويود لو يقضي
شهيداً إلى ربه ليكفر عن سيئاته تلك ، فكان يمضي إلى كل
كردوس على حدة يخطب ويعظ قائلاً : (الله ، الله ، إنكم ذادة
العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم
إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك) (١) .

كانت المعركة ضارية رهيبة ، وكان القتال عنيفاً لا هوادة فيه ،
وأبو سفيان يرى هول القتال فلا يقر له قرار يريد أن يوجه كل
طاقات المقاتلين ليبرزوا كل ما عندهم من إمكانيات . لقد اضطرت
ضراوة القتال عمرو بن العاص أن يتراجع حتى ليصل إلى النساء ،
وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه .

فأتاهم وعظ خالد هزّ كيانهم كله وسمعوا قول الله عز وجل :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة
يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٩ .

والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

وراع هذا التراجع أبا سفيان ، وخشي أن يتراجع ابنه يزيد فيصير إلى العار والنار . وتقدم نحوه ، وشق الجموع حتى صار بقربه وراح يعظه قائلاً :

(يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا أمر المسلمين ؟! أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة ، فاتق الله يا بني ، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ، ولا أجراً على عدو الإسلام منك) (١) وكان يزيد من أسعد الناس بأبيه ، وهو يذكره بالله . فقال وقد قرت عينه وتمالك أعصابه : أفعل إن شاء الله .

وثبت يزيد ثباتاً حسناً ، فكان عند حسن ظن أبيه فيه ، فقاتل قتالاً شديداً وكان في ناحية القلب .

وهذأت الأصوات ولم يبق هناك إلا صوت تلاقي الأسنة ، وارطام الأجساد بالأرض ؛ وكان كما قال المسيب - والد سعيد - : هذأت الأصوات يوم اليرموك ، فسمعنا صوتاً يكاد يملأ المعسكر يقول : يا نصر الله اقترب . الثبات الثبات يا معشر المسلمين .

قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد (٢) .

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤ .

وابلى الأبطال بلاء حسناً وتقدم عكرمة بن أبي جهل إلى المسلمين يناديهـم : من يبايعني على الأقدام والموت ..

وعاهده اربعمائة من المسلمين على ذلك، ونادى أبطال المسلمين قائلاً :

قاتلتُ رسول الله في كل موطن ، وأفر منهم اليوم . من يبايعني على الموت ؟؟ وكان هذا الحشد من الأبطال هو الحصن الذي تكسرت على أعتابه هجمات الروم وارتدت على أعقابها خاسرة، ليتابع المسلمون هجومهم بعد ذلك ويأذن الله بالنصر .



يزيد أمير دمشق

حين غادر أبو سفيان المدينة ، بعد أن ودّع الخليفة العظيم أبا بكر الصديق ؛ وعده إن فتح الله على المسلمين دمشق أن تكون إمرتها لابنه يزيد. ويوم كان الحصار مضروباً على دمشق من كل جانب كان نصيب يزيد وعسكره في الحصار باب الجابية الصغير ، ومن أجل هذا ما إن فتحت دمشق حتى أوكل أمرها ليزيد رضي الله عنه .

لم يركن يزيد إلى الدعة، فالأرض حوله لا تزال كافرة، تلك التي لم تصل إليها بعد فتوح الإسلام ، فوجه (دحية بن خليفة الكلبي إلى تدمير في سرية ليمهدوا أمرها، وبعث أبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحواران وصالح أهلها) (١) ولم يقف الأمر عند حوران وتدمير . فكما قال أبو عبيد القاسم بن سلام (افتتح خالد دمشق صلحاً وهكذا سائر مدن الشام كانت صلحاً دون أراضيتها. فعلى يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة) (٢) .

كان على يزيد أن يحمي دمشق وما حولها غرة مدن الشام ، وهي التي كان يقيم بها قادة الروم وعظماؤهم . ولقد أحسّوا بأمر من الشوك يوم غادروها ، وكان خالد رضي الله عنه قد مضى بخيله إلى حمص ليفتحها .

(١ و ٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٤ .

أما « توزرا » قائد جيش الروم فكان يعرض أصابعه ندماً وغيظاً على هزيمته المنكرة من المسلمين، وراح يمعن فكره ، فرأى أن الحامية التي بقيت في دمشق قليلة، وبرز له الرأي الذي يفصل به عار هزيمته كما تصور ، وهو أن ينهد إلى دمشق فيحتلها ثانية ويبعد حاميتها ، ولكن عين يزيد الساهرة لم تكن لتففل عن مثل هذه المفاجأة ، فأعد للأمر عدته ، واحتاط أكثر فأكثر ، وأخبر خالد بتوجه توزرا قائد الروم نحوه . وكانت فرصة من أئمن الفرص للإجهاز على جيش الروم . برز يزيد وجيشه من المسلمين للروم من الأمام ، وانقض عليهم خالد من الخلف، وأعملوا فيهم قتلاً وضرباً (حتى أناموهم ولم يفلت منهم إلا الشارد ، وقتل خالد « توزرا » وأخذوا من الروم أموالاً عظيمة فاقسموها ، ورجع يزيد إلى دمشق ، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة) (١) .



لا يزال معاوية الصامت يرنو إلى مجال يبرز فيه طاقاته ومواهبه والفتوحات تمتد يمنية ويسرة ، ولا يجد لنفسه فيها إلا الجندية الخالصة . بينما كانت أعين الخليفة العظيم في المدينة تتطلع لأمثال هؤلاء الشبان ، وتتلهف لسماع أخبارهم ، وتعمل لاستثمار المكنوز من طاقاتهم . وكان من بين هؤلاء الشباب معاوية بن أبي سفيان الذي كانت الأنظار تتجاوزته فتتنظر إلى أبيه وأخيه ، لكن أمير المؤمنين عمر لم يففل عنه ، فقد اختاره في تجربة فريدة هي فتح قيسارية وكتب إليه رسالة هذا نصها :

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٢ .

(أما بعد فقد وليتك قيسارية ، فسر إليها ، واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير) (١) .

لقد كانت الرسالة ضرورية وبهذه الصورة لشاب كمعاوية . كان لابد منها لكسر غرور الشباب الذي يمكن أن يتحرك من جراء إمرة جديدة ، ثم إذا ما تحقق النصر فلن يطل هذا الغرور ؟ . كان البناء النفسي الذي يقوم به أمير المؤمنين ضرورة لازمة ، لابد للقائد من أن يعتمد على الله ، ولو فقد القائد المسلم هذه المعاني لكان أحد شيئين :

إما غرور بالنصر ، وهذا يقود إلى الكبر .

وإما انهيار بالهزيمة ، وتحطم للأعصاب في أول معركة يقودها ؛ خاصة وهو يواجه عدواً شرساً لا قبل له به في مقياس العدد والعدة ، وهذا يعني انحساره وانتهائه لأن يكون امرءاً ذا شأن في التاريخ .

إنه الإسلام العظيم الذي ربط نفوس الشباب بالله في كل خطوة ، وقيد أنفاس المقاتلين برجاء الله في كل لحظة .

وبذلك يتضح المفهوم الإسلامي المنبثق من العقيدة : أن النصر من عند الله » . . واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا ، فنعم المولى ونعم النصير » .

ومضت هذه الكلمة ترن في ضمير معاوية وهو يقود زحفه الكبير على العدو فحاصر مدينة قيسارية ، لكن أعصاب أهلها كانت

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ - ٥٤ .

قوية متينة ، فزاحفوه مرات عديدة ، وجرى الاشتباك بالسيوف والسنان ، وكان اللقاء الأخير الذي ارتجت به الأرض ، وتساقط الفرسان ، وكادت الهزيمة أن تنال من المسلمين ، لولا ثبات معاوية وصبره ، وتصميمه على النصر ، ومقارعته الأبطال وأذان الله بشمس جديدة لتشرق على هذه الأرض .

بدأ المشركون يتزعزعون ويتراجعون ، ثم ولّوا الأدبار ، وسيوف المسلمين تقع عليهم من كل صوب ، وإذا بالآلاف من القتلى تهوي ، فيشتد الهول على المشركين ، وترتفع نبضات الإيمان في قلوب المؤمنين فما ترى في المشركين إلا فاراً يبغي النجاة أو قتيلاً ذاق كأس المنية ، وكثر عدد القتلى كثرة عظيمة ، حتى لقد انجلت المعركة عن ثمانين ألف قتيل من المشركين ، بل لقد ارتفع العدد (وكمل إلى المائة ألف من الذين انهزموا في المعركة ، وبعث بالفتح والاحماس إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه) (١)

وكان هذا الفتح العظيم على يدي معاوية رضي الله عنه وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، وذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة .

وكان يمكن لهذا الحادث لو كان فريداً أن يكون شغل الناس الشاغل (٢) . لكن الشباب الإسلامي يفتح في كل يوم أرضاً جديدة ،

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٤ .

(٢) لو لم يكن لمعاوية إلا هذه المعركة التي افتتح بها حياته العسكرية لكفته فخراً على مدى الدهر ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . إنه قاتل في فلسطين ، وفتح قيسارية ، وكان صرعا مائة ألف من العدو . ومع هذا بقي الجندي الأمين الذي ينتظر أوامر قائده إلى لقاء جديد . والمسلمون اليوم ثمانمائة مليون مسلم وهم عاجزون عن تحرير شبر من أرض فلسطين . فمن هؤلاء ؟؟؟

ويخوض معركة عنيفة ، ولئن كانت الفتوح قد هدأت في الشام ،
لكن العراق ما تزال تشتعل بالقتل والقتال ليل نهار في حرب ضارية
مع الفرس . وتوجت فتوحات الشام بالفتح الأكبر ؛ فتح بيت
المقدس على يدي الخليفة العظيم عمر رضوان الله عليه .

ومرت السنة السادسة عشرة هائلة لحد ما في الشام ، بينما
كانت الأرض الإسلامية تموج بالسرور لانتهاء المدائن عاصمة الفرس
على يد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .



معاوية الأمير

واقبلت السنة السابعة عشرة وكانت تحمل في ثناياها المصاعب والمحن بالنسبة للمسلمين ، فلقد اتجه الروم من جديد إلى أبي عبيدة ليحاصروه كما فعلوا مع يزيد من قبل ، واحتاط أمين الأمة للأمر ، فطلب الأمداد من عاصمة الخلافة (المدينة) ، وتحرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ليحمي المسلمين ويذود عنهم ؛ بعد أن ولّى على المدينة علي بن أبي طالب ؛ لولا أن ثناه المسلمون عن الخروج بنفسه . واضطر أبو عبيدة رضي الله عنه أن يخوض الحرب فخاضها غير عابئ بأخطارها ، وحقق الله النصر قبل وصول أمداد المدينة وأمداد العراق .

وكان المدد من العراق قد تحرك في فرقتين عظيمتين : على رأس الأولى منها القعقاع بن عمرو ، وعلى رأس الثانية منها عياض بن غنم ، بينما وصل أمير المؤمنين إلى الجابية ، واستطاعت حمص المسلمة أن تصد الهجوم وتفك الحصار .

أما المحنة الثانية التي شهدتها هذه السنة فهي طاعون عمّواس الذي نزل بالمسلمين نزول المطر على الأرض ، فكانوا يتساقطون صرعى منه ، ولما اشتعل الوجد قام أبو عبيدة في الناس خطيباً فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجد رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبي عبيدة حظه .

فطعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل . فقام خطيباً بعده فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجد رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن معاذاً يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ حظهم .

فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا لنفسه فطعن في راحته ، فلقد رأيتَه ينظر إليها ثم يقلب ظهر كفه ثم يقول :

ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا (١) . .

وكانت دمشق تشهد المحنة نفسها ، وكان أميرها يزيد بن أبي سفيان .

وكان عمر رضي الله عنه يشعر بالألم على وفاة أمرائه ، فلقد حاول جاهداً إنقاذ أمين الأمة أبي عبيدة رضي الله عنه ، لكن أبا عبيدة رفض مغادرة الشام أسوة بإخوانه المسلمين ، وعندما كان الخليفة العظيم يقرأ كتاب أبي عبيدة إليه اغرورقت عيناه بالدموع . فسئل :

أومات أبو عبيدة ؟؟

فأجاب : وكأن قد !!

وما هي إلا أيام قلائل حتى تنهى إليه نبأ وفاة أحب أمرائه إليه : أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان . وأصبحت الأردن ودمشق بلا أمراء .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٧٨ - ٧٩ .

اما الاردن : فولى عليها شرحبيل بن حسنة ، الذي كان احد الامراء ، وساهم في فتوح الشام مع إخوانه الآخرين .

وتطلعت الأنظار إلى دمشق من سيكون أميرها ، وفكر الناس في صاحب هذه الكفاءة العالية الذي سيختاره عمر ، فما عرف عنه إلا أنه يختار الامراء الذين هم من هذا القبيل .

اما عمر رضي الله عنه فلم ينس معاوية بطولته ، وأنه صاحب الفتح العظيم في قيسارية ، ولم ينس له بلاءه في فتوح الشام ، ولم يغب عن ذهنه —وهو العبقرى— كفاءة معاوية العظيمة، وفاجأ الخليفة المسلمين بمعاوية بن أبي سفيان أميراً على دمشق وخراجها ، بعد أن كان قد اضطلع بعبء القيادة وأثبت أنه ابن بجدتها ، وسيقت إليه الإمارة سوفاً حين أثبت كفاءته لها . وآن الاوان لابن أبي سفيان أن يبرز مكنون طاقته وهو على كرسي الإمارة .

لقد كان موطن ثقة أمير المؤمنين ، وموطن ثقة أمه هند بنت عتبة وأبيه أبي سفيان .

لما ولئى عمر يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من الشام ، خرج إليه معاوية ، فقال أبو سفيان لهند : كيف رأيت ؟ صار ابنك تابعا لابني ! فقالت : إن اضطربت خيل العرب ، فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني .

(وكان يزيد ولد أبي سفيان من غير هند) (١) .

فلما جاء البريد إلى عمر بموت يزيد . ردَّ عمر البريد إلى الشام بولاية معاوية مكان أخيه يزيد .

(١) البداية والنهاية ١١٨/٨ .

(ثم عزى أبا سفيان في ابنه يزيد .

فقال : يا أمير المؤمنين من وليت مكانه ؟

قال : أخاه معاوية .

قال : وصلتَ رحماً يا أمير المؤمنين (١) .

اما هند بنت عتبة — أم معاوية — فلقد جاء اليوم الذي كانت تتطلع إليه ، ورات أن ابنها قد صار أميراً ، وأيقنت أنه سوف يسود العرب قاطبة كما تنبأت له عندما كان يحبو .

فبعثت له وصيتها الخالدة ؛ ليكون عند حسن ظن أمير المؤمنين ، وعلى المستوى الرفيع الذي يريده له . فكان مما قالته :

(. . والله يا بني إنه قلّ أن تلد حرةً مثلك . وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر . فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت) (٢) .

أما وصية أبي سفيان الذي حنكته التجارب وعجمه الدهر فكانت :

(يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ، وقصّرنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا اتباعاً ، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم ، فإنك تجري إلى أمد فنافس ، فإن بلغت أورثته عقبك) (٣) .

* * *

(١-٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١١٨ .

واخذ معاوية ينتظر سانحة أخرى ليخوض غمار الجهاد في سبيل الله . ولقد فاته خير كثير أيام رسول الله ﷺ ، ولكن الحرب تبطئ عليه ، ووجد في الإمارة متسعاً لأن يتحجب إلى الناس ويتحجب الناس إليه .

وقحط المسلمون في بلاد الحجاز ، وبلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً ، واستغاث الخليفة بمعاوية وعمرو وأسرع معاوية في تلبية نداء الخليفة ، وساق إليه الابل الموقرة بالطعام ، وساهم عمرو بن العاص في مصر في كشف أزمة المسلمين التي أخذت بخناقهم عام الرمادة حتى رحم الله الناس وسقاهم من عميم فضله .

وكانت تتناهى إلى سمع معاوية أنباء الفتوحات في العراق ، فيطرب لها ، ويود لو أن له فيها أو في غيرها نصيباً .

ومرت سنة بعد سنة ، وجاءت سنة واحد وعشرين ، وتحركت كتائب المسلمين بقيادته لغزو الصائفة فأوغل في أرض الروم ، وقد انضوى تحت لوائه العديد من أصحاب رسول الله الذين لم يعرفوا للراحة مذاقاً إلا على متون الخيل ؛ كلما سمعوا هَيْعَةَ طاروا إليها .

وعاد ابن الثامنة والثلاثين من غزوه مظفراً منصوراً ، وقد غنم ورجع سالماً ليرى زوجه وقد وضعت له وليده الحبيب ، فسماه يزيداً تيمناً بعمه يزيد بن أبي سفيان .

وجد معاوية في امتطاء الخيل وركوب المخاطر ، وساق الجيوش في غزو الصائفة عام اثنين وعشرين ، وكذا في عام ثلاث وعشرين ، وانضوى تحت لواء الجهاد الذي رفعه جملة من سادة الصحابة ، فهذا عبادة بن الصامت ، وهذا أبو ذر الغفاري ، وذاك شداد بن أوس في جملة من صحابة رسول الله ﷺ وكلهم اتجهوا إلى

أرض الروم فتحاً وجهاداً في سبيل الله .. وتنساح الأرض أمامهم ويتقدمون ويوغلون في موعود الله في الأرض التي وعدهم إياها حتى طرّقوا أبواب عمورية ، ثم عادوا بالفتح والنصر والخير . واخذ المال يتدفق على المسلمين ، وشعر المسلمون في الشام بأن فضلاً عميماً من الله قد أصابهم فالانتصارات تتوالى على الثغور ، والمال قد أصبح وفيراً في أيديهم ، وأميرهم معاوية خير الأمراء شجاعة وسياسة وكرماً وحلماً .



كانت الأنباء تتوالى على المدينة بالانتصارات الميمونة على يدي معاوية ، وعزم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن يزور الشام وساق معه جماعة من جلة الصحابة .

وتناهى الأمر إلى معاوية ، فأعد موكباً ضخماً لاستقبال أمير المؤمنين ، وخرج خارج دمشق مع الموكب لاستقباله ، وبينما هو ماضٍ مع موكبه ما راعه إلا أحد خاصته يناديه : أيها الأمير ، أيها الأمير . فالتفت إليه فقال له :
إنك جاوزت أمير المؤمنين .

وكانت مفاجأة محرجة ، فعاد سريعاً ليلتقي مع عمر رضي الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف راكبين على حمار ، فما أن رآهما حتى نزل عن فرسه وأسرع نحو الخليفة .

وكان الغضب بادياً في وجه عمر . فقال له :

انت صاحب الموكب ؟!

قال معاوية : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟

قال : هو ما بلغك من ذلك .

قال عمر : ولم تفعل هذا ؟ لقد هممت ان آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز .

قال معاوية وهو رابط الجأش ثابت العزيمة :

يا أمير المؤمنين ، إننا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم به .
(ثم صمت هنيهة) وقال : فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت .

قال عمر (وهو ينكت بندرته بعد صمت قليل) : يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس ، لئن كان ما قلت حقاً إنه لراي أريب ، ولئن كان باطلاً إنه لخدعة أديب .

قال معاوية : فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت . . قال عمر : لا آمرك ولا أنهاك .

والتفت عبد الرحمن بن عوف إلى عمر والسرور بادٍ على وجهه وقال : ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه .

فقال عمر : لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه (١) .



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٢٤ .

عرف الروم ان الامر جد ، وأن غريمهم معاوية لن يرجع حتى يوسع ارضهم غزواً وفتحاً . فهاتان سنتان متتاليتان تمران وفي كل سنة يسوق معاوية إليهم الجيش الغازي ، ويوغل في ارضهم ، وراح الروم يرقبون تحركاته ، ويعبثون الكتاب تلو الكتاب لهجوم شامل على ارض الإسلام .

ومضى معاوية من نصر إلى نصر ، فما إن انتهى من ارض الروم في الصائفة حتى توجه إلى فلسطين ثانية ، فلا يزال له معها موقف آخر فلم يكد اهل عسقلان ينعمون بالراحة ويطمئنون حتى وجدوا الجيش الإسلامي يحاصرها ، وسألوا عن أمير الجيش فعرفوا انه معاوية .

معاوية ذاك الذي ذاق اهل قيسارية على يديه الأمرين . معاوية صاحب المائة ألف في قيسارية بين قتيل وجريح وأسير . وعسقلان بيد الروم ، ومعاوية يريد ان يزلزل الارض من تحتهم . فبعد ان دك ارضهم في الشمال كان لا بد من التفاف جديد من الجنوب ، حيث تقوم عسقلان ولم تفتح بعد .

وعرف الروم قائد جيش المسلمين فدب الوهن في قلوبهم ، وتضعضوا ، وخارت عزائمهم رعباً من ان يحل بهم ما حل بأهل قيسارية . فأذعنوا ومضوا خفافاً يطلبون الصلح من معاوية ، فأجابهم إلى ذلك ، ونزلت كتاب الإسلام في الارض الجديدة لتعلن فيها كلمة التوحيد .

لم تكن مهمة المسلمين إذاً ان يبيدوا الناس او يحطموا الامنين ، لقد كانوا اصحاب رسالة ، فما إن نزل العدو على حكمهم حتى

استجابوا للصلح راغبين ، ليزيلوا القوة والسلطان والطاغوت الذي يحول بين الناس وشريعة الله . حتى تبلغ شريعة الله كل نفس وتمس شغاف كل قلب . وبعدها - بعد أن يتبين الرشد من الغي - فلا إكراه في الدين . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .



وتأقت نفس الأمير معاوية إلى مدينة الرسول ﷺ ، وإلى روابي مكة والبيت الحرام ، فما إن أهل موسم الحج حتى توجه مع بعض أكابر المسلمين إلى المدينة ، وعلى عادته ، فلقد كان موكبه مشيراً للأنظار ، وكان أهل المدينة ونسوتها يتحدثون عن هذا الوافد العظيم .

يقول أسلم مولى عمر رضي الله عنه :

قدم علينا معاوية وهو أبيض نص وباص ، أبض الناس وأجملهم .

ودخل على عمر وعليه حلة خضراء .

فاستلفتت نظر الصحابة جميعاً لجمالها وفتنتها .

أما عمر أمير المؤمنين فماذا فعل ؟

وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها !!

وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين الله الله في !!

(لم تخنه حكمته ، وضبط أعصابه والدرة تنهال على رأسه أمام الناس جميعاً) .

ورجع عمر إلى مجلسه ، فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين ؟ وما في قومك مثله ؟! فقال : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير . ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم .

ولكن رأيته - وأشار بيده - فأضع منه ما شئتم (١) .

وساد الوجوم والصمت على القوم ، وعرف الناس أن أمير المؤمنين هو مؤدب الأمراء فأطرقوا واجمين .

لقد كان عمر أدري الناس بمعاوية وكما شهد له : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير . ولكن يريد أن يذل من كبرياءه حتى لا يتعالى على رعيته ، ولا يدفعه العجب والغرور إلى الباطل .

أب معاوية إلى الشام بعد أن حج مع عمر ، واستغل الروم هذه الفرصة ، وجمعوا أكبر حامية ليفزو بها أرض الإسلام . لكن معاوية الأمير الشاب لم يكن ليفغل لحظة واحدة عن مثل هذه التحركات ، فما إن علم بالجمع الكبير الذي يجمعه الروم حتى بعث برسالة على جناح السرعة إلى عمر رضي الله عنه يطلب منه الغوث . وكان خريفاً ساخناً بالنسبة للمسلمين .

لقد مضى عمر أمير المؤمنين إلى جوار ربه في عام ثلاثة وعشرين للهجرة ، واختار المسلمون عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفة من بعده ، وكانت أول مشكلة واجهها عثمان رضي الله عنه هي الكتاب الذي انتهى إليه بتأهب الروم لغزو الشام .

لقد كان معاوية يمتاز بالحيلة والحذر ، لذا أخذ للأمر أهبتة ، إذ أخبر المدينة بالأمر قبل أن يستوي الأمر ناضجاً ويستفحل ،

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٥ .

ووجه عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى العراق لواليه الوليد بن عقبة يأمره فيه أن يمد أهل الشام على حرب الروم ، وفي الكتاب :

إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلاً أميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم في الشام .

« فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً حين وصل إليه كتاب عثمان فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وندب الناس وحشهم على الجهاد ومعاونة معاوية وأهل الشام . وأمّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام . فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف ، فبعثهم إلى الشام وعلى جند المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري » (١) .

لقد انتهت قيادة الجيش المتجه إلى الروم إلى حبيب . وكان معاوية على ثقة بهذا القائد . وكان حبيب أهلاً لهذه الثقة .

ها هم الأعداء قد اقتربوا في ثمانين ألفاً من الروم والترك ، فلم يجزع حبيب ولم يهن (فعزم على أن يبيت جيش الروم ، فسمعتة امرأته يقول للأمرء ذلك) .

فباتت ليلتها ساهرة تفكر في مصير زوجها الحبيب .

قالت له : فأين موعدي معك ؟

ورنا زوجها ابن مسلمة بعيداً إلى الأفق وقال لها كلمته الخالدة :

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠٥ .

موعدك سرادق الموريان او الجنة . (والموريان قائد جيش الروم) . وبينما كان الروم غفاة يحلمون في نصر هنيء ، لم يشعروا إلا وكتائب المسلمين تحيط بهم من كل جانب ، وارتفعت الله أكبر فزلزلت بهم مقامهم من كل جانب . وكان موعد اللقاء في سرادق الموريان .

دخل حبيب إلى السرادق فراحه لأول وهلة إنسان هناك ، وهو يعلم أن الموريان ذبيح ؛ وما إن ركز بصره حتى افاق من الدهول . إنها امرأته سبقتة إلى سرادق الموريان ، فكانت رمز البطولة العظيمة للمرأة المسلمة .

ومضى حشد الروم مبعثراً طريداً يطلب النجاة ولا يدركها ، وكان درساً قاسياً للروم في الشام خضد شوكتهم إلى الأبد .

وذهب القلق الذي ساور أمير الشام من أعدائه ، وتابع معاوية سيرته الحسنة في ولايته انطلاقاً من مبادئ الإسلام العظيم الذي يدين به . وتتابعت سنوات أربع لم يكن فيها فتح يذكر ، ولكن الفتوحات الأخرى ملأت الأرض بالخير وأوسعت المسلمين عطاءً . ونظر معاوية ذات يوم إلى الدنيا ، وقد أقبلت عليه فانفتح لها صدره ، ثم عاد بذاكرته وراء وراء فشهد عمر رضي الله عنه وقد جاءه على حمارة ذات يوم ، واتعبه وهو يركض وراءه ، ويذكر أبا بكر وما خلف لعمر ، وينظر حوله في قصره ونعيمه وسرره . فيتنهد قائلاً :

اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، واما عمر فارادته ولم يردھا ، واما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن (١) .

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٣٤ .

هذه السنوات الأربع التي مرت على معاوية لم تكن لتقنعه بأن يركن إلى الدعة . لقد كان صاحب الهموم الكبار والآمال العراض . وكان على رأس تلك الهموم ، تفكيره بأعظم جزيرة في البحر مجاورة إليه . ولم يكن يريد أن يرى حوله إلا بحراً إسلامياً تعلو فيه كلمة التوحيد ، وبقاء هذه الجزيرة بأيدي الروم يؤرقه . لقد استأذن عمر رضي الله عنه في فتحها فلم يأذن له ، ولم يرض بأن يخاطر بالمسلمين في ركوب البحر . واستأذن عثمان فلم يأذن له . ورغم رفض عثمان لكنه ما زال يحن إلى ذلك المجهول ، فأعاد الكرة ، والح والحف في الطلب فأذن له .

قبل سنين خلت قد تكون عشرين عاماً أو تزيد ، دخل رسول الله ﷺ على أم حرام بنت ملحان فنام عندها ، ولم يكن أحد في الدنيا أسعد منها أن يقلع عندها رسول الله ، ثم استيقظ عليه الصلاة والسلام وهو يضحك . فقالت : يا رسول الله ما أضحكك ؟ فقال : أناس من أمتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة .

وخفق قلب أم حرام خفقاً شديداً ، وتاقت نفسها أن تكون بين هؤلاء المجاهدين فقالت :

يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

فقال : أنت منهم .

وأحست أنها ملكت الدنيا بأسرها .

ثم نام رسول الله ﷺ فاستيقظ وهو يضحك . فقال مثل ذلك . فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم .

فقال : أنت من الأولين (١) .

وتصرّمت السنون ، وأم حرام تنام على أحلامها أن تكون غازية في البحر إلى أن كان وتحقق موعود رسول الله لها في غزو قبرص .



لم يكن إذن عثمان ليأتي دون قيد ، فلا يزال موقف عمر رضي الله عنه من البحر وقوله فيه يرن صدهاء في أذنه يوم كتب إلى معاوية هذا الكلام :

« والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض ، فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفرق الأرض . فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر (المستصعب) ؟! وبالله لمسلم* (واحد) أحب إلي مما حوت الروم ، وإياك أن تعرض إلي (وقد تقدمت إليك) فقد علمت ما لقي العلاء مني (ولم أتقدم إليه بمثل ذلك) . « (٢) .

لم يكن لمثل هذا القول أن يمر دون أن يجعل لدى أمير المؤمنين عثمان بعض الحيلة والحذر في أمر هذا الغزو .

إنها مغامرة جسورة بأسلة تلك التي يدعو إليها معاوية أن يركب المسلمون للمرة الأولى في البحر . فكتب عثمان رضي الله عنه إلى معاوية : (لا تنتخب الناس ، ولا تفرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه) (٣) .

(١) البداية والنهاية ١٥٣/٧ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٨ .

ووصل الكتاب إلى معاوية فلم يفت ذلك في عضده ، ودعا الناس وحثهم على الجهاد ، فتراكض بين يديه كبار الصحابة يلبن النداء ؛ منهم : أبو ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ، وزوجته أم حرام بنت ملحان ، والمقداد بن عمرو ، وأبو الدرداء ، وشداد بن أوس . ومضى الجيش على السفن لأول مرة كما وصفهم رسول الله ﷺ كالمملوك على الأسيرة . ولأول مرة في تاريخ الإسلام يركب المسلمون البحر في الشام بقيادة أميرهم معاوية حتى يصلوا إلى قبرص ويحاصرونها ، وتوجه عبد الله بن سعد من مصر . فالتقى الجيشان على حصونها ، وفوجئ القبرصيون بالحصار فصمدوا ، وصمدوا ، ثم بدأت أعصابهم تنهار ، وزادهم ينفد . فلم يكن لهم بدّ من الاستسلام والمصالحة .

قبل المسلمون ذلك ، وكانت الجزية سبعة آلاف دينار كل سنة ، وكما كانوا يؤدون إلى الروم .

ولكن أضيف إلى الصلح شرطان أساسيان :

« ١ - عليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم

٢ - ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم » (١) .

وعاد المسلمون بالنصر والغنائم والأسرى ، ووقع نظر جبير بن نفير على أبي الدرداء رضي الله عنه ، فراعته أنه يبكي . فتقدم منه وقال له :

(ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ، وأذل فيه الكفر وأهله ؟)

(١) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠ .

ورفع أبو الدرداء رأسه ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وتقدم من جبير فضرب منكبه بيده وقال له :

(ثكلتك أمك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى ، فسلط الله عليهم السباء ، وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة) (١) .

وبدا الجيش الإسلامي يتحرك ليؤوب إلى الشام ، وتقدمت أم حرام بنت ملحان من بغلتها ، وهي سعيدة أن حقق الله لها موعود نبيته ، وشهدت بأم عينها نصر المسلمين العظيم . وأتت لتركب البغلة ، وتنضم إلى الجيش القافل الميمون طائره ، وما إن استوت عليها حتى انتفضت البغلة ، وألقته عن ظهرها فأهوت على عنقها على الأرض فإذا هي جثة هامدة . وبلغ الخبر زوجها عبادة بن الصامت فهاجت شجونه ، وبلغ الخبر المسلمين فخيم عليهم الحزن العميق فترة وجيزة لوفاة هذه المجاهدة العظيمة ، ثم اجتمعوا جميعاً ليشهدوا جنازتها وواروها الثرى في قبرص ؛ لتبقى ذكرى خالدة للمسلمات المجاهدات في سبيل الله ، وما زال الناس يتبركون بها كلما زاروها ، ويطلقون على قبرها : قبر المرأة الصالحة .



(١) الكامل ج ٣ ص ٤٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٥٣ .

غِيُوم فِي الْأَفُق

عاش المسلمون ما مضى من سنوات خلافة عثمان في عافية ورخاء ؛ فالفنائم قد فتحت عليهم أبواب الخير ، وهيات سبل الثراء ، وشاع الأمن والغنى في صفوفهم ، وتحركت الضفينة في قلوب الأعداء ، وباتوا لا يقر لهم قرار لما يرون من وحدة الكلمة ، وشيوع الطمأنينة ، وانصراف المسلمين إلى الجهاد .

تحركت أصابع اليهودية التي ذقت شر هزيمة في خيبر ، وكان هذا في العام الثلاثين للهجرة ، وذلك بتخطيط رهيب وعجيب ، واختارت دمشق لتبيض فيها وتفرخ ، وذلك لما تعرفه من سماحة حاكمها معاوية وحلمه . وكان على رأس هذه الفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ادّعى الإسلام .

وعاد أبو ذر رضي الله عنه بين من عادوا من الغزو ، وراعه انكباب الناس على دنياهم ، وفيض الثروة بين أيديهم . وكان رايه أن هذا المال يجب أن ينفق كله في سبيل الله ، وهو يخشى على القلوب من التغير ، والانصراف إلى الدنيا ، فمضى ينذر الناس ، ويذكرهم بالآخرة ويقول لهم :

يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاور من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم .

وكان هناك القاعدون المتخلفون عن الجهاد ، والمتخلفون عن العمل ، والمتسكعون في الطرقات ؛ يرون في هذا الرأي ما يهيج لهم ثروة وهم نائمون . فأعجبهم هذا الرأي ، واستطاع عبد الله بن سبأ أن يهيج الجو المناسب في الظلام لتحويل المسلمين من دعاة إلى الله إلى متصارعين على الدنيا . فأخذ يزين لهم هذا القول ، ويستغله كما يهوى ، فتحرك الفقراء يطالبون الأغنياء بأموالهم .

وبينا أبو ذر يتحدث ذات يوم إذ يقف له واحد من المتحمسين ويقول له :

يا أبا ذر الا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله . الا إن كل شيء لله ؛ كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ، ويمحو اسم المسلمين !!

وينظر أبو ذر إلى هذا الرجل ويصمت وكان الرجل ابن سبأ وعرف أن هذا باب من ابواب الفتنة ، قد يستغله هذا الرجل ، فأجمع أمره ، وقرر المضي إلى الأمير معاوية يحذره مغبة الأمر .
رحب معاوية بأبي ذر وأدناه . ثم قال أبو ذر له :

— ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟

يقول معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، السنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟!

كان أبو ذر لا ينكر من قول معاوية رضي الله عنه شيئاً . ولكنه علم أن هذا القول سيستغله الموتورون . فأجابه قائلاً :
فلا تقله .

وقال معاوية بعثب نزولاً على رأي أبي ذر :

سأقول مال المسلمين .

واطمان أبو ذر رضي الله عنه ، ومضى راضياً من أمره .

لكن معاوية لم يكن ليفعل عما يجري في المجتمع ، فقد اتته الاخبار عن ذلك الشغب الذي يريد المفرضون إثارتة ، وأفضى إلى عبادة بن الصامت بتلك الاخبار ، وراح يرقب الجو باهتمام .

كان أبو ذر الغفاري يرى انه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من قوت يومه ؛ كان هذا مذهبه وهذه صورة عيشه التي رأى عليها النبي ﷺ ، فتابعه عليها وبقي لا يغير ولا يبدل زمن خلفائه من بعده أبي بكر وعمر وعثمان ، وكانت آراء أبي ذر تثير الناس على الأغنياء ، وكان هناك من يفسد في الظلام .

ووجد ابن السوداء أن عبادة بن الصامت في زهده وتقلله من الدنيا صورة صادقة عن أبي ذر ، وطمع أن يستجيب له كما طمع من قبل بأبي الدرداء ، فأعرض أبو الدرداء عنه . فأتى إلى ابن الصامت على أمل أن يحرك عجلة جديدة في الفتنة .

لقد استطاع أن يتخلص من بين يدي أبي الدرداء حين اكتفى بأن يقول له :

من أنت ؟ اظنك والله يهودياً !!

وحسب أن الأمر إذا انتهى بإثارة الشبهة عليه فسيختفي منه وينسل من بين يديه كما انسل من بين يدي أبي الدرداء .

ولكن مثل عبادة لا يمكن أن يفلت منه اليهودي الخبيث ، فحين قال له ما قال ، قبض عليه وساقه إلى معاوية قائلاً له : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .

فلقد ربط عبادة رضي الله عنه بين القولين . . بين ما احتج
ابن سبأ به على معاوية أمامه ، وبين ما ذكر له معاوية من أمره مع
أبي ذر أمامه .

وما تحرك أبو ذر إلا لقمع فتنة هذا اليهودي .

مضى أبو ذر في دعوته يحدو الركب إلى الله ، ويدعو الناس
إلى التقلل من الدنيا والزهد فيها . وحرار معاوية في النتائج الخطيرة
التي تنتج عن هذه الدعوة ، ففكر في محاولة معينة يجعل بها أبا ذر
يكف عن دعوته حتى لا تستغل ، إنه لا يجرؤ على أن يمنع أبا ذر عن
الدعوة إلى الزهد .

بعث معاوية بألف دينار إلى أبي ذر ، ليرى كيف سيتصرف
بها ، ثم انه أمل أن يهدىء من هذه الفورة لديه ، ولعله لم يكن
يعرف جوهر هذا الصحابي العظيم .

وصلت الدنانير لأبي ذر ، وكان قد آلى على نفسه أن يلقي
حبيبه رسول الله على الحالة التي تركه عليها ؛ ومن أجل هذا ما إن
وصلت الدنانير الألف ليديه حتى فرقها من ليلته ، ولم يبق منها
دينار واحد في بيته .

ومع الفلّس دعا معاوية رسوله قائلاً له : اذهب إلى أبي ذر
وقل له أنقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك وإني
أخطأت بك .

وصل الرسول إلى أبي ذر وعرض عليه أمره ، فقال الزاهد
العظيم :

يا بني قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن
أخرنا ثلاثة أيام حتى نجتمعها .

وعاد الرسول بجواب أبي ذر ، فاذهل ذلك معاوية ؛ إذ لم يكن يتصور أن يكون أحد من الناس يستطيع أن يكون على ما كان عليه أبو ذر ، فقوله يصدق فعله ، وإنه ليرفض أن يحتفظ بدينار واحد لحاجته ، بل يفرق الألف دينار غير عابئ بكل ما يمكن أن تحقق له من متاع ورياش ونعيم . ومثل هذا السلوك سوف يفتن الناس ، يوم يرون الداعية إلى الزهد على هذا المستوى ، ومن عادة الناس أن يؤخذوا بالعظماء ويفتنوا بهم . فلم يكن أمام معاوية رضي الله عنه بدء من أن يبعث إلى أمير المؤمنين عثمان يطلب منه أن يستدعي أبا ذر إليه ، ويخبره بآثار دعوته ؛ خصوصاً وأنه بين أناس كلهم دونه فقهاً وورعاً وزهادة ، وبين أناس آخرين مستغلين يريدون أن يستحكم الخلاف ، ويتصدع الصف من الداخل . وبهذا يتجهون جميعاً إلى معاوية يطالبونه أن ينفق كل ما لديه من مال المسلمين ، وفي ذلك هلاك الأمة وضياع الثغور . فكتب إلى عثمان أن أبا ذر قد ضيق عليه ، وقدم له شرحاً مسهباً للوضع الذي اخذ يفكر به الفقراء .

فكتب عثمان رضي الله عنه - وكان يراقب عن كثب تأثير بعض الناس بأقوال مثيري الفتنة في المدينة - إلى معاوية يقول له :

« إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرع ، وجهز أبا ذر إلي وأبعث معه دليلاً (وزوده وارفق به) . وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت (١) » .

(١) الطبري . ج ٣ ص ٣٣٦ .

ووجد أبو ذر نفسه أمام أمر أمير المؤمنين له بالتوجه إلى المدينة، فمضى مع الدليل متوجهاً برعاية الله إليها ، وخلف معاوية اثقالاً كباراً في الشام سرعان ما استطاع معاوية السياسي الأريب أن يزيحها عن كاهله ، وبمهارة فائقة تمكن من أن يرأب الصدع ، ويوحد الكلمة ، ويقضي على فتنة ابن سبأ في المهد . ولم يكن يفيظ العدو شيء كما تفيظه وحدة كلمة المسلمين ، وتفيظه شخصية معاوية القوية التي تجمع الطاقات كلها ضد العدو المشترك .



إِسْفِين فِي قِمَّةِ النَّصْرِ

أصبح معاوية منذ أربع سنين الشخصية الأولى والوحيدة في بلاد الشام كلها . لقد رزق كفاءة ممتازة ، وموهبة نادرة ، وظهرت آثارهما منذ أن تسنم الأمر في دمشق بعد وفاة أخيه يزيد رضي الله عنه ، وكانت معه الأردن كذلك . أما كيف انضمت حمص إلى دمشق ، فحديثها عند عمر رضي الله عنه يوم نزل المرض بالصحابي العظيم عمير بن سعد ، فاستعفى عمر من الولاية ، فقبل الفاروق رضي الله عنه استعفائه ، وتوجهت الأنظار إلى من يكون خلفاً للصحابي العظيم عمير بن سعد . وكان عمر يقلب الأمر من كل وجوهه ، ثم أعلن عزمته العمرية أن معاوية هو أمير حمص كذلك .

كان معاوية يتوقد ذكاءً وحيوية ، وكان شيوخ الصحابة لا يرون هذا الاختيار لمعاوية ؛ لحدائثة سنه ، ولأن في المسلمين من هو أفضل منه ، وأقدم سابقة ، وأرسخ جهاداً منه . فبدات الأفواه تهمس وما لبثت أن تعالت قائلة : ولئى حديث السن !!

فقال عمر رضي الله عنه بصوته القوي :

تلوموني في ولايته وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به (١) .

(١) رجح الحافظ ابن كثير أن القائل هو عمر رضي الله عنه وليس عمير بن سعد انظر البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٢ . وروى الترمذي عن عبد الرحمن بن أبي عميرة مثله وقال : حديث حسن غريب . البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢١ .

فهل يتلکأ عمر وقد سمع مثل هذه الدعوة لمعاوية من رسول الله ﷺ في أن يوليه كل الشام؟؟!

لا يمكنه أن يفعل ذلك، وهو لا ينسى كذلك يوم دعا رسول الله معاوية وأشهدده مع أبي بكر وعمر وشيوخ الصحابة أمور المسلمين واستشاره فيها، وقال في وصيته الخالدة بمعاوية : أحضروه أمركم وأشهدوه أمركم فإنه قوي أمين (١) .

وعندما بدأ الناس يتحدثون متبرمين ويقولون :

عزل عميراً وولى معاوية .

قال عمر بن سعد :

لاتذكروا معاوية إلا بخير . فإنني سمعت رسول الله ﷺ قال لمعاوية : اللهم اهد به (٢) .

وكلما امتد الزمن بمعاوية ، كلما استتب الأمن أكثر ، وتحقق الهناء والرفاه والراحة للمسلمين في ولايته .

وتشاء قدرة الله أن يتوفى عبد الرحمن بن علقمة والي فلسطين، فلا يتردد عثمان أمير المؤمنين أن يضم فلسطين إلى معاوية ، وبذلك يغدو ابن أبي سفيان سيد الشام كلها بلا منازع . وعرف الروم أن استقرار معاوية في هذه الأرض هو كالشجى في حلقهم ، فقرروا أن تكون العملية الانتحارية الأخيرة ، فإما أن يستردوا الشام ،

(١) أخرجه الطبراني ، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٢ .

(٢) رواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني ، ثم رجح ابن كثير أنه من رواية عمر لاعمر البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٢ .

وينهوا الإسلام في هذه الأرض ، وإما أن يكون حتفهم فيها .. وهكذا كانت غزوة ذات الصواري ، وأوكلت قيادة جيش المسلمين فيها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح .. وجاء أوان اللقاء ، وتزاحف الجيشان .. (ولما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلّبون ، وبات المسلمون يقرؤون ويصلون . فلما أصبحوا صف عبد الله بن سعد أصحابه صفوفاً في المراكب وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

قال بعض من حضر ذلك : فأقبلوا إلينا في أمر لم ير مثله من كثرة المراكب وعقدوا صواريخها ، وكانت الريح لهم وعلينا ، فآرسينا ، ثم سكنت الريح عنا فقلنا لهم : إن شئتم خرجنا نحن وانتم إلى البر ، فمات الأعجل منا ومنكم . قال : فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا : الماء الماء . قال : فدنونا منهم ، وربطنا سفننا بسفنهم ، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف ، يشب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر ، وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل ، وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم وغلب الدم على لون الماء ، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط وقتل منهم بشر كثير ، ومن الروم أضعاف ذلك ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، فهرب قسطنطين وجيشه .. وبه جراحات كثيرة مكينة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك .

وأقام عبد الله بن سعد بن أبي سرح بذات الصواري أياماً ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً (١) .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٥٧ .

وفي هذا العام الذي سقط فيه قسطنطين بن هرقل مع
مراكبه الخمسمائة - وكان هذا إيذاناً بمصرع الروم - في هذا العام
نفسه كان سقوط يزدجرد بن شهريار ذبيحاً في أرض خراسان .
كان هذا العام قمة الانتصارات الإسلامية في عهد الراشدين .
وكان هذا العام إعلان تهوي الإمبراطوريتين الكبيرتين في الأرض
فارس والروم بمقتل قادتهما . وكان شرفاً عظيماً لمعاوية أن يكون
أمير الشام كلها في هذا العام . وكما تنبأ رسول الله ﷺ : إذا هلك
كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . فلقد
كان مصرع قسطنطين على يد الروم انفسهم إذ وصل إلى صقلية
(فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا : أهلك النصرانية ،
وأفانيت رجالها ، لو اتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ، ثم ادخلوه
الحمام وقتلوه ، وتركوا من كان معه في المركب ، وأذنوا لهم بالمسير
إلى القسطنطينية) (١) .



ومن القمة يبدأ الانحدار .

فعندما قبض على ابن سبأ في دمشق ، وشلت حركته ، ورأى
أن تدبيره أصبح مكشوفاً ؛ عرف أنه لن يفلح في دمشق بشيء .
فعيون معاوية الساهرة له بالمرصاد تراقب تحركاته وسكناته ،
فاختفى بعيداً عن الأنظار ، ومضى إلى الأمصار الإسلامية الأخرى ،
ليبت جحيم فتنته هناك ، وأسفر سعيه الخبيث عن ثمرة مرة في
النيل من عثمان أمير المؤمنين ، لقد ترك معاوية والنيل منه ووضع
هدفه رأس النظام كله الخليفة العظيم عثمان ذا النورين .

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٥٩ .

ولئن لم ينجح في أن يتحرك من خلال أبي ذر وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت في دمشق . فلقد نجح في التحرك من خلال محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة في مصر - وكلاهما شابان طامحان في مستقبل العمر - فلم يكن عمر ابن أبي بكر ينوف عن اثنين وعشرين عاماً ، وكان ابن أبي حذيفة يقاربه في السن .

في قمة النصر بذات الصواري ، وذروة هذا الفتح المبين ، في هذا الجو الرائع العظيم انبعث محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة في تصويب سهامهم القاتلة ضد عثمان بن عفان أمير المؤمنين وأمرائه ، وضد قائد الفتح المظفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(فأظهرا عيب عثمان وما غير ، وما خالف أبا بكر وعمر ، وجعلوا يقولان دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم ، وأباح رسول الله ﷺ دمه ، وأخرج رسول الله ﷺ أقواماً واستعملهم عثمان ، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر) (١) .

ولنقف ملياً أمام هذا النقد العنيف الذي يوجهه ابن أبي بكر ، وابن أبي حذيفة لعثمان رضوان الله عليه :

أولاً : أظهرا عيب عثمان ، وما غير وما خالف أبا بكر وعمر .

ولعثمان رضي الله عنه الحق كل الحق في أن يجتهد ويطاع في اجتهاده . وليس أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حجة على عثمان ، إنما الحجة عليه كتاب الله وسنة رسوله . ولقد خالف عمر أبا بكر

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥٧ . وهي رواية الواقدي عن

معمر عن الزهري .

رضي الله عنهما في عدد من القضايا ؛ فلمَ لم تثر عليه هذه المطاعن ؟! لقد خالفه في توزيع المال ، وجعله حسب أفضلية المسلم وسابقته ، بينما كان أبو بكر يوزع المال على السواء بين المسلمين ، وخالفه في توزيع الأراضي على المقاتلين ، وخالفه في احتجاز الصحابة لديه في المدينة ولم يقم أحد ليعترض عليه . فلماذا تثار هذه المطاعن على عثمان ؟!

ثانياً : (ويقولان : دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد ، وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم ، وأباح رسول الله ﷺ دمه) . وما الغرابة في ذلك ! لقد أصبح عبد الله بن سعد مصوناً بحماية الإسلام منذ قبل رسول الله ﷺ شفاعة عثمان فيه . وأصبح واحداً من المسلمين تشعل الحرب على من يسفك دمه . وخطة الإسلام تمضي في عدم التعرض للماضي ، ودفنه .

لقد أهدر رسول الله ﷺ دم عكرمة بن أبي جهل يوم الفتح ، ثم أسلم وحسن إسلامه وقاتل وقتل يوم اليرموك شهيداً . ولقد وجدنا عمر يقبل أن يكون في الجيش الإسلامي المتنبئون الذين أعلنوا توبتهم مثل طلحة بن خويلد الأسدي ، وعمر بن معديكرب الزبيدي الذي سقط شهيداً عقب نهاوند . ومادام أن عبد الله بن سعد قد قبلت توبته ؛ له حق العيش بين المسلمين ، وله الحق في أن يتولى المنصب الذي يرثيه الخليفة بعد أن دفن الماضي المشين في غياهب النسيان ، والإسلام يجب ما قبله .

ثالثاً : (وقالوا : أخرج رسول الله ﷺ أقواماً واستعملهم عثمان) .

ولا غرابة في ذلك ، فعثمان رضي الله عنه لا يرقى الشك إلى فقهه ؛ فلئن كان رسول الله ﷺ قد أخرج أقواماً من المدينة ، وذلك

يوم كان لهم باع طويل في حرب الإسلام والحقد عليه . ومر الزمن وأصبح يقتضي عودة هؤلاء إلى أحضان المدينة ليغسلوا العار القديم ، وينضموا إلى المجتمع الإسلامي . لقد حضروا على ملأ من أصحاب محمد ﷺ ، وفي الأصحاب: الستة المبشرون بالجنة، وأصحاب بدر، وأصحاب بيعة الرضوان ، وكبار المهاجرين والأنصار ، ولم نجد من هؤلاء من وجه نقداً إلى عثمان بهذا الصدد ، وهو الخليفة المأذون بالاجتهاد والمشورة والتنفيذ . وإذا كان إدخالهم إلى المدينة لايعني خطأ تشريعياً ، فلا غرابة بعد أن يستعملهم أمير المؤمنين عثمان ، فحق تعيين الولاية وعزلهم هو من اختصاص الخليفة وحده في النظام الإسلامي .

ولنحاول أن نتصور اللوحة المغايرة :

لنتصور أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أعاد إلى المدينة من نفاهم رسول الله منها ، فكيف يكون وضعهم الجديد في المجتمع الإسلامي ؟؟

سوف يكونون كالقذى بين أبناء هذا المجتمع ، فماضيهم سيئ، ورؤية الناس لهم بين ظهرائهم تثير كل أحاسيس الماضي المشين لهؤلاء لصدهم عن سبيل الله . وهذا يعني أن الخليفة سوف يقتلهم بغمهم وماضيهم . دون أن يفسح لهم المجال بفسل هذا العار بالجهاد والتضحيات ليتسنى للناس نسيان ماضيهم بحاضرهم العظيم .

هذا ما لم يفعله الإسلام أبداً . لقد وجدنا رسول الله ﷺ يبعث خالداً في سرية مؤتة ، ولم يمض على إسلامه سوى عدة أشهر ويبعث عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل أميراً وهو حديث

الإسلام بعد . ثم يؤمر خالداً في عددٍ من سراياه ؛ وذلك ليتيح المجال لهذه النوعيات الوافدة أن تمارس الجهاد ، وتمارس التضحية ، وتمارس الالتحام بالمجتمع الإسلامي ، وتصبح لها صفحات فخار في سبيل الله تطوي بها صفحات الصد عن سبيل الله . وهذا ما اختاره أمير المؤمنين رضوان الله عليه . لقد استعمل هؤلاء حتى يمارسوا عملية الانضمام والالتحام هذه على هدي رسول الله صلوات الله عليه وهدي صاحبيه الصديق والفاروق .

ثم ماذا نقم الناس على عثمان .

رابعاً : (نزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر) .

ولماذا لم ينقم الناس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد فعل مثل ذلك ؟! ألم ينزع سعد بن أبي وقاص ، وعمار بن ياسر - وهما من هما منزلة وسابقة في الإسلام - ويولي المغيرة بن شعبة .

ألم ينزع عمير بن سعد أو يعفيه - وهو الصحابي الأنصاري العظيم - ويولي معاوية بن أبي سفيان من مسلمة الفتح .

هذا وإذا كان النقد لعثمان موجهاً في الأصل لأنه ولي أقاربه؛ فلذلك دوافع فكرية وسياسية اقتضته أن يفعل ذلك . فعثمان بن عفان رضي الله عنه من القبيلة التي حملت راية الكفر حتى آخر لحظة ، وحملت راية الصراع ضد الإسلام - وهي قبيلة كبيرة ، وعريقة في النسب ، إنه من بني أمية - ولقد بقي أبو سفيان زعيم بني أمية يقاتل ويقود الجيوش ومعه معظم قبيلته ، وبقية المشركين حتى أسلم يوم الفتح . وإذا عدنا أدراجنا لحظات بسيطة إلى الوراء ، ووقفنا مع ساعات صلح الحديبية لاستوقفتنا الحادثة التالية :

لقد طلب رسول الله ﷺ من عمر بن الخطاب أن يمضي رسولا إلى مكة يبلغهم سبب مقدم رسول الله ﷺ ، وأنه جاء معتمرا لا مقاتلا . فماذا كان جوابه ؟

قال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان ابن عفان .

فعمر رضي الله عنه من قبيلة مغمورة ، لم يبرز منها إلا القليل . أما عثمان فمن بني أمية التي حملت لواء الشرك ضد الإسلام . وعندما دخل الناس في دين الله أفواجاً انكفأ بنو أمية يجترون آلامهم خجلاً ، ويستغفرون الله ندماً وتوبة . والجميع ينظرون إليهم نظرة مملوءة بالرتاء ، إن لم تكن بالشحناء لما صدوا عن سبيل الله . ومن أجل هذا عندما استلم عثمان أمير المؤمنين ، كان لابد أن يعيد لهؤلاء اعتبارهم ، ويضعهم على محك التجارب ، ويرميهم في لجج المغامرات والجهاد في سبيل الله ، ويهيئ لهم الجو لينالوا مانال غيرهم من شرف الجهاد في سبيل الله ، والتفاني من أجل العقيدة . فلقد كان طبيعياً أن يستلم كثير من بني أمية مقاليد الأمور ، واثبتوا جدارة فائقة في مهام القيادة ، واضطلاعاً عظيماً في فنون الولاية ، وصح فيهم حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

ولندع محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة . ولنشهد نتقاً يسيرة من بركة أمير المؤمنين عثمان في تولية ابن عامر الذي تقموا توليته .

في العام الثاني والثلاثين ، وفي الوقت الذي كان الجيش في الشام يعد الأهبة للمسير نحو أرض الروم بقيادة معاوية بن أبي سفيان؛ كان قد حمل لواء الجهاد في أرض الفرس والترك عبد الله بن عامر ، وأظهر مهارة فائقة في القيادة ، وكتب الله على يديه نصراً عظيماً فرح فيه المؤمنون ، وغم فيه المنافقون ، إنه في الوقت الذي سقط فيه محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة - غفر الله لهما - في شرك ابن سبأ اليهودي دون أن يعلما بذلك ، حينما كانا يوجهان النقد لابن عامر ولأمير المؤمنين عثمان ، ولعبد الله بن سعد ابن أبي سرح . . في هذا الوقت كان ابن سعد هو الذي قاد أعظم نصر في المغرب الإسلامي وفي أعظم معركة بحرية مع الروم كانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم ، في معركة ذات الصواري حيث كان فيها خمسمائة سفينة للعدو، وهرب قسطنطين ملك الروم يلحق جراحه . وكانت نهاية الروم في مصر ، حيث تابع فتحه الميمون في النوبة وافريقية .

أما في المشرق الإسلامي . فلقد كان عبد الله بن عامر على رأس الجيش الإسلامي يوغل في بلاد الفرس وخراسان ، ففي هذه السنة الثانية والثلاثين فتح ابن عامر « مرو الروذ » و « الطالقان » و « الفارياب » و « الجوزجان » و « طخارستان » وكان هذا الفتح بعد فتوحات العام السابق عام الواحد والثلاثين . ولنضع أمامنا هاتين الصورتين :

الأولى في العام الواحد والثلاثين كما ذكر ابن كثير :

(وفي هذه السنة فتح ابن عامر فتوحات كثيرة كان قد نقض أهلها ماكان لهم من صلح . فمن ذلك مافتح عنوة ، ومن ذلك

مافتح صلحاً ، فكان في جملة ماصالح عليه بعض المدائن وهي مرو
على ألفي ألف ومائتي ألف . وقيل على ستة آلاف ألف ومائتي
ألف (١) .

أي أن بعض الفنائم التي سيقت للمسلمين أو الجزية التي
تم الصلح عليها : مليونان ومائتا ألف درهم على الرواية الأولى ،
وسنة ملايين ومائتا ألف على الرواية الثانية .

أما الصورة الثانية : فهي في العام التالي عام الثاني والثلاثين
للهجرة . فتح فيها على يد ابن عامر مرو الروذ ، والطارقان ،
والفارياب ، والجوزجان ، وطخارستان .

ف قيل لابن عامر من أجل ذلك : (ما فتح على أحد ما فتح
عليك ، فارس وكرمان وسجستان وعامر وخراسان .

فقال : لاجرم لاجعلنّ شكري لله على ذلك أن أحرم بعمره من
موقفي هذا مشمراً فأحرم بعمره من نيسابور) (١) .

ماذا يضير محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة من عبد الله
ابن سعد بن أبي سرح حامي ثغر الإسلام في المغرب الإسلامي ، ومن
عبد الله بن عامر حامي ثغر الإسلام في المشرق الإسلامي !! وكم كان
الإسلام بخير لولا تلك المؤامرات الداخلية التي كان عبد الله بن سبأ
يديرها فيثير أموراً مصطنعة ضد الخليفة الإسلامي وأمرائه !!

لقد راعه وافزعه هذا النصر هو وحزبه ، فلم يكن أمامه بدّ
من إثارة الحرب الداخلية . ولئن كان ابن سعد في المغرب الإسلامي ،

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

وكان ابن عامر في المشرق الإسلامي ؛ فأين كان معاوية بن أبي سفيان
حامي ثغر الشام ، والشمال الإسلامي كله ؟!

لقد كان معاوية يطرق أبواب القسطنطينية ، ويفزوها مع
المسلمين ، وحوصر العدو وكان من الممكن أن ينهار وتفتح الأرض كلها
أبوابها للمسلمين ؛ لولا تلك المحنة الداخلية التي خطط لها اليهود
في كل صقع ، فوقف حماة الثغور عند ثغورهم . في المغرب الإسلامي
ابن سعد ، وفي المشرق الإسلامي ابن عامر . وفي الشمال الإسلامي
ابن أبي سفيان ، لتتجه الأنظار إلى أعنف فتنة داخلية عرفها
تاريخ صدر الإسلام .



دُعَاةُ الْفِتْنَةِ وَمُعَاوِيَةُ

كتب عثمان إلى معاوية قائلاً :

(إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة . فرعهم وقم عليهم ، فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فاردهم عليهم) .

فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق ، وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم . فقال لهم يوماً :

(إنكم قوم من العرب لكم أسنان والسنة . وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم ، وحويتم مراتبهم ومواريتهم . وقد بلغني أنكم نقيتم قريشاً ، وإن قريشاً لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم) .

لقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يدرك أن معاوية للمعضلة فله من فصاحته وبلاغته ، وله من حلمه وصبره ، وله من ذكائه ودهائه ؛ ما يواجه به الفتن . ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلها ، وفعلًا بذل معاوية رضي الله عنه ما بوسعه من أجل اقناع هؤلاء النفر . أكرمهم أولاً ، وخالطهم وجالسهم ، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما تنقل عنهم . وبعد أن أزال الوحشة عنهم وأزال الكلفة بينه

وبينهم ، لاحظ أن النعرة القبلية هي التي تحركهم ، وأن شهوة الحكم والسلطة هي التي تثيرهم ، فكان لابد أن يلح عليهم من زاويتين اثنتين :

الأولى : أثر الإسلام في عزة العرب .

الثانية : دور قريش في نشر الإسلام وتحمل أعبائه .

فإن كان للإسلام أثر في تكوينهم ، فلا بد أن يرفعوا لهذا الحديث .

بعد هذا وضع امامهم صورة لوضع العرب ، وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد ، وودعوا حياة الفوضى وسفك الدماء ، والقبلية المنتنة .

ويتابع معاوية حديثه معهم فيقول :

(إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنّة (١) فلا تشدوا عن جنتكم ، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة . والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم .

فقال رجل من القوم :

أما ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ، ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا . وأما ما ذكرت من الجنّة ، فإن الجنّة إذا اخترقت خلص إلينا .

فقال معاوية :

عرفتكم الآن ، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول . وأنت خطيب القوم . ولا أرى لك عقلاً .

(١) وقاية .

أعظم عليك أمر الإسلام ، وأذكرك به ، وتذكرني الجاهلية؟! وقد وعظتكم وتزعم لما ينجنك انه يخترق . ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة ، اخزى الله اقواماً أعظموا امركم ، ورفعوا إلى خليفتم .

وعرف معاوية أن الإشارة العابرة لن تقنعهم . لابد من شرح مسهب لواقع قريش العربي أولاً فقال :

(افقهوا ولا اظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل .

لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم .

ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأمحضهم أنساباً ، وأعظمهم أخطاراً ، وأكملهم مروءة .

ولم يمتنعوا في الجاهلية - والناس يأكل بعضهم بعضاً - إلا بالله الذي لا يستذل من أعز ، ولا يوضع من رفع .

فبإمرهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم .

هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة ، إلا ما كان من قريش . فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل .

حتى أراد الله أن ينتقد من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له أصحاباً . فكان خيارهم قريشاً ، ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخليفة فيهم ، ولا يصلح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله . افتراه لا يحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم؟! .

أفـ لك ولاصحابك،ولو أن متكلماً غيرك تكلم، ولكنك ابتدأت؛
فأما أنت يا صعصعة : فإن قرينك شر قرى عربية انتنها نبتاً ،
وأعمقها وادياً ، وأعرفها بالشر ، والأما جيراناً . لم يسكنها شريف
قط ولا وضع إلا سباً بها وكانت عليه هجنة . ثم كانوا أقبح
العرب القاباً ، والأمة أصهاراً ، نزاع الأمم ، وأنتم جيران الخط
وفعلة فارس .

حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ ، ونكبتك دعوته ، وأنت نزع
شطير في عمان لم تسكن البحرين ، فتشركهم في دعوة النبي ﷺ ؛
فأنت شرقومك . حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس ، وحملك
على الأمم التي كانت عليك ؛ أقبلت تبغي دين الله عوجاً ، وتنزع إلى
اللامّة والدلة . ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولن يمنعهم من
تأدية ماعليهم .

إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم
فأغرى بكم الناس ، وهو صارعكم . لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد
بكم قضاء قضاه الله ولا أمراً أرادته الله . ولا تدركون بالشر أمراً
أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى » . ثم قام وتركهم .
وبذلك بذل معاوية كل طاقاته الفكرية والثقافية والسياسية
لإقناعهم :

● عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام . وأي
مسلم في الأرض لم تمرّ عليه سورة الفيل التي حدثنا الله فيها عن
هلاك أبرهة وجيشه ، وحمى قريشاً إكراماً لبيته . وأي مسلم لم
تمرّ عليه سورة قريش بمعرض المنّ على هذه القبيلة التي أكرمها
الله بيته :

(لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا
رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف) .

وقول الله عزوجل في معرض المنّ على هذه القبيلة :
(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَخِطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؛
أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) ؟!

فلقد كان إناعام الله على قريش - على كفرها - إكراماً لبيته .
فكيف يتخلى عنها في الإسلام ؟

وإذا أعدنا إلى الأذهان أيام الردة ، واحتجاج القبائل على
قريش لتوليها الأمر وقول الحطيئة شاعر الردّة آنذاك :
أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيالعباد الله ما لأبي بكر

وكيف وقف قادة الأمة آنذاك - أبو بكر الصديق ، والفاروق
عمر بن الخطاب وامين الأمة أبو عبيدة بن الجراح - في وجه تلك
العواصف الهوج يؤكدون قول الرسول ﷺ إن الأمراء من قريش من
جهة ، ومن جهة ثانية يؤكدون من الناحية السياسية أن العرب
لا تدين إلا لقريش .

ولئن استجاب أنصار رسول الله ﷺ لأبي بكر خليفة رسول
الله آنذاك . ووقفوا يداً واحدة في وجه الردة ؛ فقد عاد هؤلاء الرهط
ليشعلوا الفتنة من جديد !!

وهذا معاوية يحاول أن يربط قريشاً بالله في الجاهلية ، يوم
كانت حامية للبيت . ثم يعود ليتحدث عن دورها في الإسلام ، يوم
حمل شبابها عبء الدعوة الأكبر ، وأن الله أعزها بالإسلام .

إنه حتى يوم فتح مكة ؛ حين كانت الراية مع سعد بن عبادة
رضي الله عنه وقال يومها : اليوم أذل الله قريشاً .. إن رسول الله
في ذلك اليوم لم يرض عن قول سعد ، واستلمه الراية ، وأعطاه
لابنه قيس بن سعد وقال : اليوم أعز الله قريشاً .

● أما الفقرة الثانية من كلام معاوية رضي الله عنه: فقد تناولت قبائل هؤلاء النفر ، ووضعها في الجاهلية . حيث كانت تعاني سوء المناخ وتنبت من الناحية الطبيعية ، ثم الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية . إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذل ، وارتقت بعد هوان .

● وكانت الفقرة الثالثة : تناول صعصعة بن صوحان خطيب القوم ، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة ، وقد دخل قومه بها ، ثم عاد وانضم إلى الإسلام ، ورفع الإسلام ثانية بعد انحدار .

● والفقرة الرابعة من الخطبة : تكشف مخططات صعصعة وأصحابه ، وكيف يبغون الفتنة ، ويبغون دين الله عوجاً .
وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة ، ومحرك هذا الشر .

وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله ثم بالإسلام والعقيدة ، ثم كشف عن زيف هؤلاء النفر ، وفضحهم عن آخرهم ، وأبان عن مخططاتهم وصلتها بدعوى الجاهلية .



ولدينا رواية أخرى يمكن الاطمئنان إليها .

ابتدأت الجلسة الثانية بقول معاوية رضي الله عنه :

وإني والله ما أمركم بشيء إلا قد بدأت فيه بنفسي وأهل بيتي وخاصتي ، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه نبي الرحمة ﷺ . فإن الله انتخبه وأكرمه ، فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئاً إلا أصفاه الله بأكرمها وأحسنها ، ولم يخلق من الأخلاق السيئة شيئاً في أحد إلا أكرمه

الله عنها ونزهه . وإني لأظن ان ابا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً) .

ولا ندرى ماهو المجال والمناسبة للحديث عن ابي سفيان . ويمكن أن يكون الدافع إلى ذلك ما كانوا ينتقصونه به وأباه ؛ فاضطر إلى ذلك . وثارت عصبيتهم أكثر وأكثر ، فقال صعصعة :

(كذبت قد ولدهم خير من ابي سفيان ؛ من خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البر والفاجر ، والأحمق والكيس) .

وكان معهم جانب الحق في هذا الموضوع . فلقد كان مديح معاوية لابي سفيان اكبر من الواقع . ولقد ألزموه الحجة فصمت ، وانهى معهم تلك الجلسة .



الجلسة الثالثة

(ثم اتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال :

ايها القوم ردوا عليّ خيراً ، او اسكتوا وتفكروا ، وانظروا فيما ينفعكم وينفع اهليكم ، وينفع عشائركم ، وينفع جماعة المسلمين . فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم .

قال صعصعة : لست بأهل لذلك ، ولا كرامة لك ان تطاع في معصية الله .

معاوية : او ليس ما ابتدאתكم به ان أمرتكم بتقوى الله ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، وان تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا !! قالوا : بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ !! قال : فإني آمركم

الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله وأمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ ، ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة ، وأن توقروا أئمتكم ، وتدلّوهم على كل حسن ما قدرتم وتعظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم .
صعصعة : فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك .

معاوية : من هو ؟

قالوا : من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام .

معاوية : والله إن لي في الإسلام قدماً ، ولغيري كان أحسن قدماً مني ، ولكنه ليس في زمانني أحد أقوى على ما أنا فيه مني ؛ ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هواة ولا لغيري . ولم يحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي . ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب بخط يده فاعتزلت عمله . ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا وهو خير .

فمهلاً . فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر . ولعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيتكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره ، فعاودوا الخير وقولوه .

قالوا : لست لذلك أهلاً !!

معاوية : أما والله إن لله سطوات وتقمات . وإنني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلّكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من تقم الله في عاجل الأمر والخزي الدائم في الآجل .

فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه .

فقال : مه إن هذه ليست بأرض الكوفة . والله لو رأى أهل الشام ما صنعتُم بي وأنا أمامهم ماملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم . فلمعري إن صنيعكم لي شبيه بعضه بعضاً .

ثم قام من عندهم فقال : والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت (١) .

إنها المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشام كل جهده ، واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة . إنه يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته ، والاستمسك بالجماعة ، والابتعاد عن الفرقة . وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين : ليس لك أن تطاع في معصية الله . وبخطمه الكبير ، وصدره الواسع عاد فذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بطاعة الله ، وعلى حد زعمهم فهو يتوب من المعصية إن وقعت . ثم يعود لدعوتهم إلى الطاعة والجماعة والابتعاد عن تفريق كلمة الأمة . . ولو كان الوعظ يجدي معهم لأمكن أن تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة ، وهذا اللطف ، وهذا الحلم .

لكنهم اعتبروا ذلك ضعفاً وتهاوناً منه . خاصة وهو يوجههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ في العظة ، واللين في النصيح ، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم . فقالوا :

فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك .

(١) السري عن شعيب عن سيف . الطبري ج ٣ ص ٣٦٦-٣٦٧

وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكتنون، فأحب أن يتعرف على جانب غامض عليه ، لعل في هذا التعرف ما يوصله إلى من يحركهم ويبث في ذهنهم الأراجيف المغرصة، ولكنهم أخفوا ما يكتنون، واكتفوا بالإشارة إلى أنهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه ، ولمن أبوه أفضل من أبيه . ثم تحلّم عليهم أكثر فأكثر . رغم الأسلوب الفج الذي سلكوه معه . وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل .

وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم والإمارة والقيادة ، وهي نقطة حساسة لابد أن ترتسم في ذهننا ، وتنطبع في قلوبنا ، ويمكننا الحكم من خلالها على كثير من تصرفات أمير الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

وقد لخص معاوية إجابته في ست نقاط أساسية ومهمة :

الأولى :

هي أن له قدماً وسابقة في الإسلام . وهو لا يقول ذلك تفاخراً وتباهياً ، بل إيضاحاً للحقيقة لدى هؤلاء المتعنتين . ولاغرو في ذلك . فهو حامي ثغر الشام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما . إنه كما رأينا مايمر عام إلا ويكون على رأس جيش المسلمين يفتح أرضاً أو يحاصر بلداً أو يحقق كسباً للإسلام في أرض جديدة وأناسي جدد . وهو الذي حول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية . ولئن فاته أن يكون له قصب السبق في معارك الإسلام الأولى قبل أن يسلم ، فإنه لم يأل جهداً في أن يقدم كل إمكانياته وطاقاته المدخورة في سبيل الله بعد أن دخل في الإسلام .

الثانية :

أن هناك في المسلمين من هو أفضل منه وأكرم ، وأحسن

سابقة وأكثر بلاء . فهو لا يضع نفسه فوق المسلمين ولكنه يرى أنه هو أقوى من يحمي هذا الثغر الإسلامي العظيم - الشام - فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه وسياسته ، وفهم نفسيات أهله حتى أحبوه ، ولم يؤثروا أحداً عليه . بينما نجد بقية الولايات والثغور لا تستقر على أمير ، ولا تهدأ فيها الثورات والفتن !! لقد كان قوياً ، وكان خليقاً بالإمارة ، ولم يكن من طرازه من الولاة أحد .

الثالثة :

إن الميزان الحساس ، والمعيار الدقيق الذي يقيّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لا تأخذه في الله لومة لائم . فلو وجد من معاوية شططاً أو انحرافاً أو ضعفاً لعزله ، ولما أبقي عليه يوماً واحداً . ولا يمكن أن يصل الشك أبداً إلى صرامة عمر في الحق واستقامته عليه ، وهو الذي إذا رآه الشيطان سالكا فجاً هرب منه . فقد عمل له طيلة مدة خلافته ، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله ، واستخدمه كاتباً بين يديه . وولاه أبو بكر الصديق من بعده ، ولم يطعن في كفاءته أحد .

الرابعة :

إن اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال ؛ فما هي الحجة التي يقدمها دعاة الفتنة ليتم الاعتزال على أساسها ؟! لقد طلب ولو حادثة واحدة أو سبباً واحداً يعتزل من أجله العمل . وهو يريد من وراء ذلك أن يتعرف على ما يحملونه في أنفسهم عليه ، وما يمكن أن يشيعوه من إشاعات لاشعال نار الفتنة في الأمة .

الخامسة :

إن الذي يقرر العزل عن العمل أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الادعياء . إن ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وهو

الذي له الحق في تعيين الولاة وعزلهم . إن أقصى ما يملكونه هو النصيح لأمرائهم وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وعليهم أن يرفضوا الطاعة إذا أمروا بمعصية ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . هذا كله لهم ، أما أن يكون لأي فرد الحق في العزل والتولية فهذا يعني الفوضى والضياع والفساد . وهذا ما اكده لهم معاوية رضي الله عنه :

(ولعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيتكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة) .

السادسة :

وهي أروع ما في قوله ، إن أمير المؤمنين عثمان يوم يقرر عزل معاوية ، فهو واثق أن أمره خير كله . ولا غضاظة في ذلك فهو أمير مأمور وهو رهن أمر خليفة المسلمين . ولو كان يرى نفسه أقوى المسلمين على هذه الإمارة فأمر أمير المؤمنين أكثر بركة من أمره . وكما يقول رضي الله عنه :

(ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليّ بخط يده ، فاعتزلت عمله . ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا وهو خير) .

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشد الأسف ، مؤلماً أشد الألم . لقد حذرهم نقمة الله وغضبه ، وحذرهم مهاوي الشيطان ومنزلقاته وحذرهم فرقة الكلمة ومعصية الإمام ، وحذرهم الانتياد إلى أهوائهم وغرورهم ، فماذا كان منهم مقابل ذلك ؟

وثبوا عليه ، واخذوا برأسه ولحيته !!

وعندئذ زجرهم وقمعهم ووجه لهم كلاماً قاسياً مبطناً

بالتهديد . وعرف أن هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحق ، فلا بد من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وكشف هوياتهم وخطرهم ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر ، فكتب إليه قائلاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان .

أما بعد :

فإنك قد بعثت إليّ اقواماً يتكلمون بالسنة الشياطين ، وما يملون عليهم ، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن ، فيشبهون على الناس وليس كل الناس يعلم ما يريدون .

وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأضرهم ، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرائهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يفروهم بسحرهم ، وفجورهم ، فأرددهم إلى مصرهم . فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم والسلام) (١) .

لقد كانت هذه الجلسات كافية ليعجم عودهم ، ويكشف باطنهم ، ويحدد هويتهم ، ولقد أكد لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أن هؤلاء جند للشيطان ، وأعداء للإسلام ، يظهرون غير ما يبطنون ، همهم إثارة الفتنة والشبهات في قلوب الناس ، ليزيفوا عن الحق . وقد نجحوا في هذه المهمة إلى حد كبير في إفساد الناس .

أما الراي بالنسبة لهم فهو حبسهم في مصرهم - الكوفة - والا يخرجوا منها حتى لا يفسدوا غيرها . والراي بعدها لأمير المؤمنين .

الْفِتْنَةُ تَخْرُجُ خَطْمَهَا لِتَثْبَ

قدمت سنة خمس وثلاثين وهي تحمل في ثناياها عواصف هوجاً استطاع ابن سبأ أن يكون المحرك لها ، وندع وصف ابن سبأ ليزيد الفقعسي :

يقول : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء . فأسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم . فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام . فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول :

لعجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع ؛ وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) . فمحمداً أحق بالرجوع من عيسى .

قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها .

ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي . وكان عليّ وصي محمد .

ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعليّ خاتم الأوصياء .

ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة .

ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي- رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، واطهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر (١) .

إنه شرح كامل لحلقات المؤامرة من نقطة البدء إلى نقطة الانتهاء .

ابتداً أولاً بالرجعة ، ووجد لهذا الرأي قبولاً بين رعاي الناس ودهمائهم . وكلما تركزت حلقة من الفتنة ، انتقل بتؤدة ومكر إلى الحلقة الثانية ، من الرجعة إلى الوصاية ، ومن الوصاية للثورة على عثمان أمير المؤمنين .

أما طريق الوصول إلى ذلك ، فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظاهر الأمر . والطعن على الأمراء بخفاء : تخطيط دقيق ، وتنظيم محكم . وهو الذي نفذ بالفعل خطوة خطوة . ففجر الفتنة، وقاد الأمة إلى الدمار .

وهذه نماذج من التطبيق العملي لهذا التخطيط .

شهدنا أولاً موقف مفجري الفتنة من معاوية: يدعونه للاعتزال من الولاية ، ويشهرون به ، وينقصون من قدره وأهليته للحكم .

وهذا نموذج ثانٍ لهم مع سعيد بن العاص والي الكوفة ، وهو تمة الحلقة مع مفجري الفتنة بعد أن غادروا الشام .

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٧٨ ، السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي .

أخرج معاوية رضي الله عنه دعاة الفتنة من الشام بعدما سمح له عثمان بذلك . وأوجسوا خيفة من الاستقرار في العراق ، إذ أن أمرهم مفضوح هناك ، فاختاروا مكاناً وسطاً بين المصريين : الجزيرة حيث يبعدون عن الأنظار من جهة ، ويتمكنون من التحرك من جهة ثانية .

غير أن وجود عبد الرحمن بن خالد بن الوليد رضي الله عنهما أميراً على الجزيرة ، كان طالع نحسٍ بالنسبة لهم ، فقد أوكل معاوية الجزيرة لعبد الرحمن بن خالد ، فضيق الخناق عليهم ، وحاول تخضيد شوكتهم والاستخفاف بهم ، ماملك سبيلاً إلى ذلك ، فمنطق الحجة لم يجد معهم حين استعمله ابن أبي سفيان .

وكان الأشر النخعي على رأسهم ، فطلبه عثمان أمير المؤمنين ليتعرف على وجهة نظره ، فاستمع له أمير المؤمنين ثم خلى سبيله .

لم يستطع ابن سبأ أن يعيش في الشام ، فلقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أشد وعياً من أن يقع في مخططات ابن سبأ (١) ولم يجرؤ ابن سبأ أن يمضي إلى الجزيرة ، فسطوة عبد الرحمن بن خالد ونقمتهم قوية . فطاب له المقام بالفسطاط فاستقر هناك ليحرك أعوانه في العراق والشام والجزيرة .

ابتدأت الفتنة بيزيد بن قيس في المسجد ، حيث راح مع صحبه الذين اتصل بهم ابن سبأ يعلن خلع عثمان بن عفان ، فتقدم منه القمعاق بن عمرو ، وأخذه مع من كان معه ، فلم يتجرأ ابن قيس أن يتحدث عن أمير المؤمنين ؛ إنما وجه النقد لأمير الكوفة

(١) راجع كتاب أبو ذر الغفاري الزاهد المجاهد للمؤلف.

سعيد بن العاص !! إنه يذكرنا بأبي الدرداء عندما قبض على ابن سبا في الشام ، وقاده إلى معاوية .

قال يزيد بن قيس : إنما نستعفي من سعيد .

قال : هذا ما لا يعرض لكم فيه ، لا تجلس لهذا ، ولا يجتمعن إليك ، واطلب حاجتك فلعمري لتعطينها .

وجد يزيد أنه غدا في خطر ، وأن الأوان قد آن للقيام بعمل ما يحرك الحاقدين ، فاستأجر رجلاً وأعطاه دراهم وبغلاً على أن يأتي المسيّر من الكوفة ، وكتب إليهم :

(لا تضعوا كتابي في أيديكم حتى تجيئوا ، فإن أهل مصر قد جامعونا) .

ولنعد إلى الأشر النخعي الذي أطلق عثمان سراحه حين أعلن التوبة على يديه . عاد الأشر إلى الجزيرة قادماً من المدينة ، ووصل رسول يزيد بن قيس إليهم في وقت واحد .

قالوا للرسول : ما اسمك ؟ قال بفثر ، قالوا : ممن ؟ قال : من كلب . قالوا : سب ذليل يبفثر النفوس لأحاجة لنا بك . لكن الأشر النخعي الذي أعلن توبته على يد عثمان عاد فنقض العهد واستبد به الحقْد ، وخالف أمرهم ، وخرج فاراً عاصياً تحت جنح الليل .

قال أصحابه : أخرجنا أخرجهُ الله ، لا نجد بداً مما صنع ، إن علم بنا عبد الرحمن لم يصدقنا ، ولم يستقلها ، فاتبعوه فلم يلحقوه وأزمعوا للحاق به .

وبلغ عبد الرحمن خروجهم ، فبعث في طلبهم غير أنهم فاتوه .
ونعود إلى يزيد الفقعسي ، فهو يحدثنا عن بعض الخطوات
الهامة التي سار فيها المتآمرون :

(فبث دعائه ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار ، وكاتبوه ،
ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر . وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولائهم ،
ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر
آخر بما يصنعون . فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم
حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون
غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون . فيقول أهل كل مصر : إنا
لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك
عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس) (١) .

اهتز محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله لهذه الأنباء المفزعة
عن الأمصار فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل :

(قالوا : يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ !

قال : لا والله ، ما جاءني إلا السلامة .

قالوا : فإننا قد أتانا) (٢) .

وأخبروه بما تنهاى لسمعهم عن الفتنة التي تموج بها الأمصار
الإسلامية ، وعن الهجوم الشرس على ولايته في كل صقع .

(وقال : انتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا علي ؟ !

(٢٤١) الطبري ج ٣ ص ٣٧٩ سنة ٣٥ .

قالوا : نشر عليك ان تبعث رجلاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم (١) .

إن البذور التي أودعت الأرض بدأت جذورها تضرب فيها ، وبدأت الفتنة تهيج ريحها على السطح : فهذه الأرض الإسلامية تموج بالإشاعات ، الكتب تترى بين الأمصار ، والطعن في الولاة لم تعد ريحه المنتنة تخفى على أحد ، بل لقد صكّت مسامع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

وانتهى الرأي إلى أن يبعث خاصة رجاله ليتحققوا من وضع ولائه .

فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، واسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعبد الله بن عمر إلى الشام . وهؤلاء من كبار صحابة رسول الله ﷺ وأثقلهم وزناً ، وبعداً عن الشبهة . وأخذ القلق يساور الخليفة الراشد رضي الله عنه من جراء هذه الإشاعات ، وجعل قلبه يخفق رعباً أن يكون ولائه وموطن ثقته كما يدعي المرجفون !!

ورجع الموفدون وجعبتهم حافلة بما يثلج الصدور .

فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم .

وقالوا : الأمر أمر المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٧٩ ، سنة ٣٥ .

إلا أن امرأً أحزن عثمان رضي الله عنه ، وهو أن عمار بن ياسر قد أعطى أذنًا لقالة السوء في مصر ، ورؤساء الفتنة فيها وهم عبد الله بن سبأ ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة ابن بشر .



ولم يكتف عثمان رضي الله عنه بهذا الموقف ، فلقد اتبعه خطوتين حاسمتين وضرورتين :

الخطوة الأولى : كتب إلى أهل الأمصار جميعاً كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين :

(أما بعد : فإنني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع عليّ شيء ، ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لي ولعمالي حق قبل الرعية إلا المتروك لهم ، وقد رفع إليّ أهل المدينة أن اقواماً يشتمون وآخرون يضربون ، فيأمن ضرب سراً وشتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين) (١) .

ترى أية عدالة في الأرض تفوق هذه العدالة ، وأية نزاهة تبلغ مستوى هذه النزاهة ، أية حرية وای إكرام للناس يفوق هذا الإكرام وهذه الحرية . لقد جعل للأمة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاكمة الولاة والعمال جهاراً ، وعلى رؤوس الأشهاد

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٧٩ . السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

وفي موسم الحج . وحق الدولة متروك عندما يمس شخص أمير المؤمنين أو أهله ، وصاحب الحق بإمكانه أن يحضر إلى موسم الحج ، وإمام الناس جميعاً ، ويأخذ حقه من الخليفة أو ولاته .

ومن أجل هذا كان وقع الكتاب في الأمصار له دوي عظيم في ارتفاع الثقة بأمير المؤمنين كما يقول ابن جرير :

فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا :
إن الأمة لتمخض بشر .

وكانت **الخطوة الثانية** من عثمان رضي الله عنه هي استدعاءه الولاة على عجل : عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبد الله بن سعد ، وادخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص - وهم من الولاة السابقين - . وكانت جلسة مغلقة وخطيرة جرت فيها الأبحاث التالية التي تقرر خطة العمل الجديدة على ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام :

(عثمان : ويحكم ما هذه الشكاية ؟! وما هذه الإذاعة ؟! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، وما يعصب هذا إلا بي .

الولاة : ألم تبعث ؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟! ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ؟! لا والله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً . وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها .

وقال عثمان : فأشيروا علي .

سعيد : هذا امر مصنوع يُصنع في السر ، فيلقى به غير
ذي المعرفة فيُخبر به فيتحدث به في مجالسهم .

عثمان : فما دواء ذلك ؟

سعيد : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا
من عندهم .

ابن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم ،
فإنه خير من أن تدعهم .

معاوية : قد وليتني ، فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخمر ،
والرجلان أعلم بناحيتهما .

عثمان : فما الرأي ؟

معاوية : حسن الأدب .

عثمان : فما ترى يا عمرو ؟

عمرو : أرى أنك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم
على ما كان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد
في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . إن الشدة تنبغي لمن لا يألو
الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتها جميعاً
اللين .

عثمان : (بعد أن حمد الله واثني عليه)

كل ما أشرت به عليّ قد سمعت ، ولكل أمر باب يؤتى منه ؛ إن
هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق
عليه فيكفكف به اللين والمؤاناة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى
ذكره

وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً ولا نفسي .

ووالله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها (١) .

لقد كانت صورة واضحة كاملة لما يدور في اذهان قادة المسلمين آنذاك وولاية الأمر . فالثابت في اذهان الجميع أن الأمر حسن ، وذات البين حسنة ، وهو واقع المسلمين في الحقيقة . وقد أدركوا جميعاً أن هناك دعاة فتنة يشيرونها ، ويحركون ضرامها ، همهم إشاعة البلبلة بين الصفوف . وكان أكثر الآراء منصباً على طلب الشدة ، وقتل دعاة الفتنة ، واستئصالهم من الجذور .

وكان أفق عثمان العالي غير هذا الأفق ، فلقد لخص رأيه بأمور ثلاثة :

أولاً :

إنه وهو يستمع إلى علاجهم للمشكلة ارتسمت في ذهنه صور الفتنة التي حدث عنها رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم : إنها ستكون فتن ، ألا ثم تكون فتن ، القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي فيها خير من الساعي إليها . إلا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه .

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٨٠ - ٣٨١ سنة ٣٥ السري عن شعيب عن سيف .

إنه يراها وكأنها على باب بيته ، ولقد كان وصف سعيد بن العاص دقيقاً إلى أبعد الحدود حين قال : (هذا أمر مصنوع يصنع في السر ، فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم) .

ثانياً :

والفتنة لا بد لها أن تنطلق من باب ، فتتأبع أمواجها المظلمة تأكل الأخضر واليابس ، ولقد كان حدس عثمان وحسه المرهف في مكانه ؛ إنه يتوقع بوادرها منذ خطوات ابن سبأ في الشام قبل سنتين أو ثلاث ؛ إذ كتب في الكتاب الذي بعثه لمعاوية من أجل أبي ذر رضي الله عنه :

(إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح) فهو يرفض أن يكون باب هذه الفتن .

ثالثاً :

ومن هنا كان منطلق عثمان في كل الأمور ، والتي يمكن الحكم منها على كل تصرفاته فيما بعد ، وهي هذه الخطة :

لن يكون منطلق الفتنة ، لن يشعل نارها بالشدة والقتل والتعذيب . إنه يؤثر الموت قبل أن تدركه الفتنة تأسيساً بدعاء رسول الله ﷺ : وإذا أردت فتنة قوم فاقبضني إليك غير مفتون . وليس هذا موقف عثمان رضي الله عنه من الفتنة وحده ، بل هو موقف عمر كذلك ، فعن حذيفة رضي الله عنه قال :

« كنا عند عمر رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة ؟ فقلت : أنا . قال : إنك لجريء وكيف ؟ قال : قلت : سمعته يقول : فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه

وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال عمر رضي الله عنه : ليس هذا أريد ، إنما أريد التي تموج كموج البحر . قال : فقلت : مالك ولها يا أمير المؤمنين ؟! إن بينك وبينها باباً مفلقاً . قال : فيكسر الباب أو يفتح ؟ قال : بل يكسر . قال : ذلك أحرى أن لا يفلق أبداً . فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم مَنْ الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة . إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط . فقليل لحذيفة : من الباب ؟ قال : عمر « أخرجه الشيخان والترمذي .

رابعاً :

والخطة التي يرفض فيها عثمان اللين هي حدود الله ، فهذه لاهوادة فيها لأن مهمة الإمام أن يحكم بشريعة الله وينفذ حدوده . وأما ما دون ذلك فهو يرفض أن يستعمل القوة .

ولم يكن معاوية غمراً في هذه الأحداث ، فهو الذي أكد لعثمان أولاً أنه لن يصل له شيء عن الشام يكرهه .

وهو الذي أشار على عثمان رضي الله عنه بقوله : حسن الأدب .

بهذه العبارة البليغة التي تلخص سياسة معاوية رضوان الله عليه مع رعيته ؛ بقي معاوية بأمر الخليفة في المدينة إلى أن جاء عثمان من الحج ، وأعاد الأمراء إلى أمصارهم . ولم يأت في موسم الحج شكوى من أحد على أحد من عماله .

وقبل أن يغادر معاوية المدينة المنورة ، ورغم أنه لا تبدو ظاهر تذر الشر؛ غير أن أمير الشام كان يرى غير ذلك: إنه يرى الجو يوشك

أن ينفجر ويطيح بأمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ومن أجل ذلك اختلى بعثمان وباح له بما يحس به ، وعرض عليه اقتراحات ثلاثة . وذلك من خلال المحادثة التالية بينهما :

معاوية : يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مالا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله بشيء ، وإن كان فيه قطع خيط عنقي .

معاوية : فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهرائي أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك .

عثمان : أنا أقتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم ، وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟!

معاوية : والله يا أمير المؤمنين لتفتالنّ أو لتفزينّ .

عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل .

فلقد كان معاوية يرى أن نذر الشر تعوي تريد أن تطيح بأمر المؤمنين ، وكان عثمان يرى ذلك ، وهو يعلم أن الفتنة قائمة ، فلئن كشّر عن أنيابه ، وراح يقتل بالظنة فسوف يخوض في الفتنة خوفاً ولن يتورط عثمان بالفتنة ، فيفتح باب القتل وسفك الدم لأنه لن يرقأ كما يقول عليه الصلاة والسلام :

(إذا وضع السيف في أمتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة) (١) .

(١) رواه الترمذي .

سوف يكفكفها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، أما أن يمضي إلى الشام فهو أول من يغير ويبدل ، وأما أن يطالب بجيش من الشام لحماية المدينة فهذا لن يقبله أبداً . حتى لا يضيق على أهل المدينة أرزاقهم .

لقد رفض اقتراحات معاوية كاملة ، ومضى معاوية مهموماً من عند عثمان قلقاً عليه . وبينما هو ماضٍ في سبيله إلى الشام إذا به يلتقي برهط من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يتمالك إلا أن يفتح لهم قلبه ، ويسر لهم بذات نفسه ؛ خاصة وأن بين الرهط كبار المرشحين للخلافة بعد عثمان ، ومن يمكن أن يتحدث باسمهم دعاة الفتنة دون أن يعلموا . فيهم علي وطلحة والزبير .

ومعاوية يدرك التأثير المعنوي لهؤلاء ، فوقف عليهم متكئاً على قوسه ، متقلداً سيفه ، فألقى عليهم السلام ثم قال :

إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبن إلى رجال ، فلم يكن منكم أحد إلا وفي فصيلته من يرأسه ، ويستبد عليه ، ويقطع الأمر دونه ، ولا يشهده ولا يؤمره .

حتى بعث الله عز وجل نبيه ﷺ ، وأكرم به من اتبعه ، فكانوا يرثسون من جاء من بعده ، وأمرهم شورى بينهم . يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم ، وإن أصفوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى من كان يرأسهم . وإلا فليحذروا الغير ، فإن الله على البذل قادر ، وله المشيئة في ملكه وأمره .

إني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً ، وكاتفوه
تكونوا أسعد منه بذلك .

ثم ودعهم ومضى (١) .

فقال علي : ما كنت أرى أن في هذا خيراً .

فقال الزبير : لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا
منه الغداة .

راى معاوية انه قد بلغ الامانة ، وذلك بعبارات موجزة اشد
الإيجاز ، بليغة أعمق البلاغة .

إنه وضع صورتين متقابلتين للأمة قبل الإسلام وبعده ،
ولقادة هذه الأمة كذلك ، وكان الربط وثيقاً ومحكماً .

فقبل الإسلام كان هؤلاء القادة ؛ ومنهم علي وطلحة والزبير
لا شيء لهم في الأمر ، وإنما تبوؤوا هذا المركز بالإسلام . إنه يقر لهم
بفضلهم وسابقتهم وجهادهم ، هذا الجهاد الذي جعلهم أئمة المسلمين .

فالقياة إذا ليست شخصية بمقدار ما هي نوعية ، مرتبطة
بالجهاد في سبيل الله . أما يوم تكون الدنيا هي التي تحركهم ، فقد
فقدوا هذا المركز الذي حازوه بالبلاء في سبيل الله .

إنها لتذكرنا بوصية الفاروق رضي الله عنه لسعد بن أبي
وقاص حين قال له :

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٨١ سنة خمس وثلاثين . السري عن
شعيب عن سيف .

(يا سعد بن وهيب ، لا يفرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ...) (١) .

إنه عرض فقيهه بالإسلام ، متمكن فيه ، عريق بأمور الإمارة والحكم .

ونحن بحاجة إلى وقفة عند رأي علي بن أبي طالب ، والزبير ابن العوام رضي الله عنهما بمعاوية .

فمتى التقى علي بمعاوية ؟

لم يلتق به إلا جندياً في جيش المشركين ، ولم يعرفه في الإسلام إلا بعد أن انتهت حرب المشركين . لقد التقى معه وجلس إليه بعد أن جمع بينهما الإسلام ، ولكن الفترة لم تطل أبداً ؛ فقد ولاه رسول الله فصيلة من الفصائل بعد أن أكرمه بكتابة الرسائل . واستقر معاوية بالشام قرابة عشرين عاماً وهو بعيد عن جو المدينة . فمن أين يعرف علي معاوية ؟

ولا شك أن أنباء الفتوحات في الشام التي قادها معاوية قد تناهت إلى سمعه . ولكنها حلقة من الفتوحات الكبيرة التي ساهم فيها قادة المسلمين أمثال : سعد وخالده ، والمثنى والقعقاع ، وغيرهم . فلم تتح الظروف أبداً للاحتكاك والالتقاء بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ليختبر كل واحد منهما الآخر . وكان علي في عين معاوية

(١) البداية والنهاية لابن كثير — سنة أربع عشرة من الهجرة

ج ٧ ص ٣٥ .

كبيراً ، لأنه يعرف جهاده في سبيل الله منذ اللحظات الأولى في حياته ، إذ كان هو في صف المشركين في الجانب المضاد للإسلام . ولكن معاوية لم يكن كذلك في عين علي ، فكل ما يعرفه عنه أنه أمضى شبابه وهو في صف أعداء الإسلام ، وأسلم يوم الفتح ، وتولى أمر الشام . وقد يكون معاوية والياً ناجحاً فذاً في ذهن علي ، أما مستواه الإسلامي ومستواه العقائدي فلم يكن يدري عنه شيئاً ، ومن أجل هذا كان معاوية في عين علي غير علي في عين معاوية .

وشيء جديد نلاحظه من كلمة علي للزبير : ما كنت أرى أن في هذا خيراً . لكن الزبير خالفه في ذلك قائلاً :

لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الفداء .

وصمت علي على كلمة الزبير يوحى بقناعته فيها ، ويوحى بأنهما كشفنا شخصية جديدة ذات مواهب وطاقات مبدعة هي شخصية معاوية بن أبي سفيان .



وغادر معاوية المدينة بعد الحج ، وبدأت الحلقة الثانية من الفتنة تظهر في المدينة ؛ إذ نزل فيها عدد كبير من أهل البصرة والكوفة ، وهم الذين رفضوا أن يوافوا أمير المؤمنين بالحج ، لأن الولاية جميعهم موجودون .

واستطاع عثمان رضي الله عنه بعبقريته أن يفضح مخططهم كاملاً :

اختار رجلين أحدهما من بني زهرة ، والآخر من بني مخزوم للتعرف على نوايا هؤلاء المتظاهرين في العمرة . وكان هذان الرجلان قد نالتهما عقوبة عثمان فيمكن أن يطمئن المتظاهرون إليهما .

(فلما رأوهما بائتوهما وأخبروهما بما يريدون .

قالا : من معكم على هذا من أهل المدينة .

قالوا : ثلاثة نفر .

قالا : هل إلا ؟!

قالوا : لا

قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟

قالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ،
ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قروناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب .
ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ؛ فإن أبي
قتلناه وكانت إياها (١) .



(١) الطبري ج ٣ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ . السري عن شعيب عن
سيف عن شيوخه .

بَيَانُ عُثْمَانَ إِلَى الْأُمَّةِ

تتعدد الروايات وتتزاحم في هذا الموضوع ، ولكننا سنأخذ بأوثق روايات الطبري ، لذا سنكتفي بروايات السري عن شعيب عن سيف .

لا يمكننا ان نقفز إلى معاوية قبل ان نمر بهذا المرتقى الصعب ، لأن معاوية رضي الله عنه قد اتجه بكل ثقله نحو التخطيط لسياسة المسلمين بعد مقتل عثمان ، تلك الفاجعة التي كانت من جهة ثانية بداية لكل الفتن في العالم الإسلامي .

(ارسل (عثمان) إلى الكوفيين والبصريين ونادى : الصلاة جامعة - وهم عنده في اصل المنبر - فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم . وقام الرجلان (١) .

فقالوا جميعاً (اي المسلمون) : اقتلهم فإن رسول الله ﷺ قال : من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه . وقال عمر بن الخطاب : لا أحل لكم إلا ماقتلتموه وأنا شريككم .

فقال عثمان : بل نغفو ونقبل ، ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً .

(١) إشارة إلى الزهري والمخزومي اللذين كشفوا المؤامرة .

إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها عليّ عند من لا يعلم :

١ - وقالوا : أتم الصلاة في السفر ، وكانت لاتتم .

ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتملت لهذين الأمرين (١) ؛
أو كذلك ؟

قالوا (أي المسلمون) : اللهم نعم .

٢ - وقالوا : وحمت حمى .

أ - وإني والله ما حميت ، حمى قبلي (٢) ، والله ما حموا شيئاً لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعية أحداً .

ب - واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع .

ج - ثم ما منعوا ولا نحتوا منها أحداً إلا من ساق درهماً .

د - وما لي من بعير غير راحلتين ، وما لي ثاغية (٣) ولا راغية (٤) .

(١) لم تذكر الرواية إلا أمراً واحداً ، وهو وجود أهل عثمان رضي الله عنهم . وقد أورد ابن كثير في بعض الرواية الأمر الثاني وهو نيته الإقامة ، ولعلها سقطت هنا خطأ . انظر ابن كثير ج ٧ ص ١٧١ . سنة ٣٥ .

(٢) إشارة إلى أن الحمى كان لعامة المسلمين ولم يكن لشخصه وكان حق الرعي فيه للجميع .

(٣-٤) إشارة إلى أنه لا يملك غنماً ولا إبلاً .

هـ - وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاء ، فما لي
اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجتي ؛ اكدك ؟
قالوا : اللهم نعم .

٣ - وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً .

الا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد . وإنما أنا في ذلك
تابع لهؤلاء (١) ؛ اكدك ؟
قالوا : اللهم نعم .
وسألوه أن يقتلهم .

٤ - وقالوا : إني رددت الحكم .

وقد سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف . ثم رده
رسول الله ﷺ . فرسول الله ﷺ سيره ، ورسول الله ﷺ رده
اكدك ؟
قالوا : اللهم نعم .

٥ - وقالوا : استعملت الأحداث .

أ - ولم استعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء أهل
عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم .

ب - ولقد ولي من قبلي أحدث منهم (٢) ، وقيل في ذلك
لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة ؛ اكدك ؟
قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون .

(١) يقصد أصحاب محمد ﷺ .

(٢) إشارة إلى تولية الرسول ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله
عنهما .

٦ - وقالوا : إني أعطيت ابن أبي سرح ما آفأ الله عليه .

٢ - وإني إنما نفلته خمس ما آفأ الله عليه من الخمس فكان مائة ألف .

ب - وقد انفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر .

ج - فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك .

د - فرددته عليهم وليس ذلك لهم .

أكذلك ؟ قالوا : نعم .

٧ - وقالوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيتهم .

٢ - فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جَوز ، بل أحمل الحقوق عليهم .

ب - وأما إعطاؤهم فإني أعطيتهم من مالي ، ولا استحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس .

ج - ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأنا يومئذ شحيح حريص .

د - أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا ؟!

هـ - وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً (١) ، فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم .

(١) أي أنه لم يفرض أي ضريبة أو أتاوة على أي مصر من الأمصار الإسلامية .

و - وما قدم عليّ إلا الأخماس ، ولا يحل لي منها شيء ،
فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني ، ولا يتلفت من مال الله بفلسر
فما فوقه ، وما أتبلغ منه ما أكل إلا مالي .

٨ - وقالوا : أعطيت الأرض رجالاتاً ، وإن هذه الأرضين
شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت .

٢ - فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله .

ب - ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له .

ج - فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم ، فبعته لهم
بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو
في أيديهم دوني .

د - وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل
ولده كبعض من يعطي ، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم
رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف ، وأعطى بني
عثمان مثل ذلك ، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني
(حرب) .

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف ، وأبى المسلمون إلا
قتلهم - أي الثائرين - وأبى إلا تركهم .

* * *

هذا بيان لو سجل بماء الذهب لكان قليلاً عليه ، صدر من
أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وقد اضطر له اضطراراً . وكان
يود لو أن ذلك كان بينه وبين الله تعالى ، وهو الذي يستحي أن
يفوه بكلمة واحدة عن نفسه ثناءً أو حديثاً ، بل إن الملائكة لتستحي
من هذا الحيي .

هذا الانسان العظيم اضطره المنافقون والحاقدون إلى الحديث عن جوانب من سلوكه ، وجوانب من فضله ، ماكان اغناه عنها لولا كيد الحاسدين واتهام المنافقين .

● وفعلاً لولا اتهام المنافقين والحاقدين ما كنا لنعرف سياسة عثمان المالية وتفريقه بين ماله ومال المسلمين ، فلا يستحل من مال المسلمين درهماً وما دونه ، بينما بقي يعطي من ماله حتى نفد ماله ، ومن أرضه حتى نفدت أرضه . حتى لم يبق من كل ما يملكه إلا بعيرين لحجه ، وهو الذي كان أغنى أغنياء مكة والمدينة ذات يوم !!

● ولولا اتهام المنافقين وكيد الكائدين؛ ما كنا لنتعرف على سياسة عثمان الزراعية ، فهو يرفض أن تبقى أراضٍ في بلاد الفتوح عطلاً لاتنتج ، بوراً لاتزرع ؛ بحجة ملكيتها لبعض الفاتحين ، فيكون الأولى بلا شك بيع تلك الأراضي لمن يعمل بها ، ويسلم ثمنها لأصحابها الأصليين .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين ما كنا لنعلم سياسة عثمان العسكرية التي تؤمن بإغداق المال على القائد العسكري ، حتى يعف عن مال جنده ، فلقد أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس المخصص لولي الأمر ؛ ليكون في مركز ولايته كهفاً للمحتاجين ، وملاذاً للقاصدين .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم تكن نعلم سياسة عثمان النفسية مع رعيته الذين أحبهم وأحبوه ، واطواً لهم كنفه . حتى يتدخل المسلمون في شؤون خليفتهم ، ويعرض لهم الشك في نفل ابن أبي سرح ، فيدفن الفتنة في مهدها ، ويسترد خمس الخمس منه حتى يمنع القالة والريب من نفوسهم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم تكن لنعرف سياسة عثمان الإدارية التي تقوم على تحريك الطاقات ، والاستفادة من عنصر الشباب المتوثب المنطلق ، وتوجيه هذه الطاقات للفتوح في اقصى الأرض ، وللإبداع في عبقرية القيادة والتنظيم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم تكن لنعرف سياسة عثمان الاقتصادية . يحمي الأرض من أرض المسلمين لإبل الصدقة ولفقراء المسلمين يرعون بها ماشيتهم ، وليمنع أي تسلط من الجيش أو رجال الحكم على أرض الناس ينتهبونها بحجة المصلحة العامة ، بل ويدعها مشاعاً يستفيد منها كل محتاج أو مضطر لرعي إبله . بينما يمنع ذلك الحمى عن أغنياء المسلمين لأنه بإمكانهم تأمين الأرض الرعوية اللازمة لإبلهم وماشيتهم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم تكن لنعرف سياسة عثمان المنهجية ، فإن حمى فقد حمى من هو قبله : عمر أمير المؤمنين ، بل ومنع عثمان نفسه وعبد الرحمن بن عوف من الرعي في حمى المسلمين لغناهما وقدرتهما على رعي إبلهما وماشيتهما في أرضهما .

وإن أعطى عثمان رضي الله عنه ابن أبي سرح ، فلقد أعطى قبله أبو بكر وعمر ، وإن استعمل الشباب فقد استعمل قبله الشباب رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر .

وإن جمع القرآن فلم يجمعه إلا على رأي وبينة وملا من أصحاب محمد ﷺ .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم تكن لنعرف سياسة عثمان الإسلامية التي ترفض أي تهاون في حد من حدود الله ،

وهي في الوقت نفسه تساير وتلاين في الأمور الشخصية ، حتى إن المسلمين يرون قتل أولئك الشائرين الذين ينالون من شخص الخليفة ويشهرون فيه ، ويأبى عثمان أمير المؤمنين أن يستغل مركزه والتأييد الشعبي الإسلامي له في ضرب معارضي سياسته ، بل يصير إلى العفو عنهم ، وإخلاء سبيلهم .

وكان هذا البيان الشامل ، ثم العفو والصفح عن المغرضين كافياً لأن يملأ الأرض استقراراً وأمناً . هذا لو كان هؤلاء دعاة أمن واستقرار ، أو طلاب عدل وخير .

ولكن هيهات ، فاليهودية السبئية تريد أن تدمر الأرض بالمسلمين حكماً ومحكومين !!



المتآمرون يَحْتَلُونَ المَدِينَةَ

ولابد لنا ان نتابع خيوط المؤامرة وخطواتها ، ونرافق السري فيما نقله لنا عن شعيب عن سيف عن شيوخه ، معرضين عن بقية الروايات المضطربة المتناقضة التي لاتخلو من مطعن في السند ، أو مطعن في المتن . وحسبنا هؤلاء يفتون في مروياتهم كل احداث المؤامرة ، ويكشفون تفاصيلها كاملة .

تركنا الثائرين وقد عفا عثمان رضي الله عنه عنهم بعد ان دمغهم بالحجة ، وأطلق سراحهم ، فماذا جرى بعد ذلك؟؟

(فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوهم (أي يغزو المسلمين في المدينة) مع الحجاج كالحجاج ، فتكاتبوا وقالوا : موعدكم ضواحي المدينة في شوال . حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتي عشرة — من خلافة عثمان — ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة .

قالوا : ولما كان في شوال سنة ٣٥ (١) خرج اهل مصر في اربع

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين فإن يهلكوا فسيبيل من هلك ، وإن يقيم لهم دينهم يقيم لهم سبعين عاماً . قال : قلت : مما مضى أم مما بقي ؟ قال : مما بقي . » رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم في مستدركه وقال : صحيح

←

رفاق على أربعة أمراء ، المقلل يقول ستمائة ، والمكثر يقول الف .
على الرفاق : عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر
التجبي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقتيرة بن فلان السكوني ،
وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي ، ولم يجترئوا أن يعلموا
الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن
السوداء .

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق وعلى الرفاق : زيد بن
صوحان العبدي ، والاشتر النخعي ، وزباد بن النضر الحارثي ،
وعبد الله بن الأصم أحد بني عامر بن صعصعة . وعددهم كعدد أهل
مصر ، وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم .

وخرج أهل البصرة في أربع رفاق ، وعلى الرفاق : حكيم بن
جبلة العبدي ، وذريح بن عباد العبدي ، وبشر بن شريح بن الحطم
ابن ضبيعة القيسي ، وابن المحرش بن عبد بن عمرو الحنفي .
وعددهم كعدد أهل مصر ، وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي
سوى من تلاحق بهم من الناس .

فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون علماً ، وأما أهل البصرة
فإنهم كانوا يشتهون طلحة ، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون
الزبير . فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شتى ، لا تشك
كل فرقة إلا أن الفلج معها ، وأن أمرها سيتم دون الآخرين . فخرجوا

على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي في تلخيصه . وقال ابن الأثير :
إن كان أراد سنة ٣٥ ففيها خرج أهل مصر وحصروا عثمان ، وإن
كان ستاً وثلاثين ففيها كانت وقعة الجمل ، وإن كانت سبعاً وثلاثين
ففيها كانت وقعة صفين » .

حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث: تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا
ذا خشب ، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص ، وجاءهم ناس من
أهل مصر ، وتركوا عامتهم بذي المروة (١) .

هذه هي المرحلة الأولى من المؤامرة ؛ جهزت كاحسن ما يكون
التجهيز ، تم التوقيت لها على يد ابن سبأ الذي حضر من مصر
خصيصاً ليشرف على التنفيذ ، واختارت كل فرقة مكاناً للنزول .

واستطاع ابن سبأ بذكائه أن يفرق القلوب ، وإن كانت على
هدف واحد من حيث الأصل وهو قتل عثمان . لكن الأهواء موزعة
مختلفة ، وقد استطاع أن يزرع في نفوسهم الاشتياء لعلي أو طلحة
أو الزبير .

ولتتابع المرحلة الثانية من تحركاتهم المريبة :

(ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر ،
وعبد الله بن الأصم ، وقالوا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم
المدينة ونرتاد ، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا ، فوالله إن كان أهل
المدينة قد خافونا ، واستحلوا قتالنا ، ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا
علموا علمنا أشد ، وإن أمرنا هذا لباطل . وإن لم يستحلوا قتالنا ،
ووجدنا الذي بلغنا باطلاً لنرجمن إليكم بالخبر .

قالوا : اذهبوا .

(١) رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي
حارثة وأبي عثمان (وهم شيوخ سيف الأربعة) . الطبري ج ٣
ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير
وقالا : إنما نأتم هذا البيت ، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ،
ماجئنا إلا لذلك .

واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبي ونهى وقال : بيض
ما يفرخن !! فرجعا إليهم .

فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً ، ومن أهل البصرة نفر
فأتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير . وقال كل فريق
منهم : إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ، وفرقنا جماعتهم ، ثم كررنا
عليهم حتى نبغتهم .

فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت عليه
حلة أفواف ، معتم بشقيقة حمراء يمانية ، متقلد السيف ليس
عليه قميص ، وقد سرح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه ،
فالحسن جالس عند عثمان وعلي عند أحجار الزيت . فسلم عليه
المصريون وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم وقال :

لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذو خشب ملعونون
على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا لاصحبكم الله . قالوا : نعم .
فانصرفوا من عنده على ذلك .

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي ،
وقد أرسل ابنه إلى عثمان ، فسلم البصريون عليه وعرضوا له ؛
فصاح بهم واطردهم وقال : لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة
وذو خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ .

وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى ، وقد سرح ابنه
عبد الله إلى عثمان فسلموا عليه وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم

وقال : لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذو خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ .

فخرج القوم وأروهم أنهم يرجعون ، فانفشوا عن ذي خشب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين . فافترق أهل المدينة لخروجهم .

فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم ، فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة ، فنزلوا في مواضع عساكرهم ، واحاطوا بعثمان ، وقالوا : من كف يده فهو آمن (١) .

وهذه هي المرحلة الثانية من المؤامرة :

ابتدأت أولاً بمحاولة إدخال أحد العلوية من أصحاب رسول الله في المؤامرة ؛ فقبول علي أو طلحة أو الزبير الانضمام إليهم يرفع كثيراً من شأنهم ، ومن أجل هذا كان توجيه قيادة الثوار توجيهاً مختلفاً ليحقق هدفاً معيناً بحد ذاته ، فرأي المصريين أن تكون البيعة لعلي فإن وافق فسيقاتلون الجميع به .

وكذلك موقف البصريين من طلحة ورأيهم في بيعته .

وكذلك موقف الكوفيين من الزبير ورأيهم في بيعته .

فكان ربح واحد من أهل الشورى — خاصة المقدمين منهم — كفيلاً أن يحقق الهدف المقصود من الإطاحة بعثمان .

(١) السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان . الطبري ج ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

وتوحي الرواية من جانب آخر أن المسلمين في المدينة الذين كانت تتوارد إليهم الأنباء عن تحرك الثائرين ؛ قد أخذوا أهبتهم واستعدادهم .

فكان كل صحابي من قادة المسلمين على جهة من جهات المدينة يمنع دخول الحاقدين : الزبير في فرقة ، وعلي في فرقة ، وطلحة في فرقة .

كما أن الطرف الآخر من التنظيم انصب على أن يكون أولاد الصحابة حول عثمان أمير المؤمنين يحرسونه .

وابتدأت محاولة المتآمرين في جس نبض القادة المرشحين للخلافة .

ولعل علياً وطلحة والزبير كانوا قد تذكروا فيما بينهم حديث رسول الله ﷺ في لعن جيش ذي خشب والأعوص وذو المروة .

ومن أجل هذا كان الموقف صارماً في منع دخول المتآمرين إلى المدينة ، وفي إعلامهم لعن رسول الله ﷺ لهم عليهم يرجعون عن غيهم ، وفي طردهم وصدهم عن حرم رسول الله .

ولم تختلف إجابة القادة كما لم تختلف مواقفهم ، وطردهم وفود الثائرين عن حرم رسول الله ﷺ .

ولا يبعد أنهم قد بعثوا وراءهم من يتعقبهم حيث وجدوهم قد رحلوا عن أماكن نزولهم ، واطمان الساهرون على حماية المدينة إلى أن المتآمرين قد رحلوا إلى بلادهم ، أو ثابوا إلى رشدهم ، أو مضوا إلى الحج ، فدخلوا إلى بيوتهم ينعمون بقسط من الراحة .

لكن التخطيط اليهودي الخبيث الذي قال الله تعالى عن أهله : (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الفيلظ) ؛ ما كان له

أن يهدأ أو ينام ، ولم يكن لابن سبأ أن ينهي الموضوع على هذه الصورة الباهتة .

وعجز المتآمرون عن جر قادة المسلمين وعامة أهل المدينة أو واحدٍ منهم إلى عسكرهم إلا ما كان من أولئك نفر الثلاثة .

فقرروا غزو المدينة تحت جنح الليل .

فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة .

وأفلت الزمام من يد صحابة رسول الله حين أصبح أمر المدينة بيد الثوار ، واتجه المسلمون إلى عثمان يحمونه ويحيطونه من أي سوء .

(وصلى عثمان بالناس أياماً ، ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمنعوا أحداً من كلام) .

وتمكن علي رضي الله عنه أن يفضح مخططاتهم على أعين الناس .

(فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي فقال :

— ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟؟!

قالوا : أخذنا مع بريدٍ كتاباً بقتلنا) .

وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك ، وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك .

وقال الكوفيون والبصريون : فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً (كأنما كانوا على ميعاد) .

فقال لهم علي :

(كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة ، بما لقي أهل مصر ، وقد سرتهم مراحل ثم طويتم نحونا ؟؟؟!)

هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

قالوا : فضعوه على ما شئتم . . .) .

ووجهة نظر علي رضي الله عنه : أن أهل مصر يدعون ويكذبون
بمسكهم يريدون بقتلهم ، والكوفيون والبصريون يمنعون إخوانهم
المصريين .

من الذي أدري أهل الكوفة بما لقي أهل مصر ؟!

ومن الذي أدري أهل البصرة بما لقي أهل مصر ؟

وذلك بعد أن قطعوا مراحل في سفرهم إلى بلادهم . وحتى
الآن كل ما أعلنه الثوار أن قصدهم عزل عثمان بن عفان أمير المؤمنين
رضي الله عنه . (وهو في ذلك يصلي بهم ، وهم يصلون خلفه ، ويفشى
من شاء عثمان ، وهم في عينه أدق من التراب ، وكانوا لا يمنعون
أحداً من الكلام ، وكانوا زمراً بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع) .
إذاً لقد كانت أوامر قيادة المتأمرين ذات اتجاهين في بادئ
الامر :

الاتجاه الأول :

هو أن يسمحوا بالكلام ليتعرفوا على نوعيات الناس وأهوائهم .

الاتجاه الثاني :

ولا شك أن في ذلك أوامر مشددة ؛ هو أن تقوم دوريات
مسلحة في أرجاء المدينة تمنع الناس من أي اجتماع ، وهم يعلمون
أن اجتماع أهل المدينة قد يقضي على تنظيمهم وسيطرته عليها .



وإزاء هذا التسلط رأى عثمان رضي الله عنه أن أهل المدينة إنما يطلب منهم الانتحار حين يدافعون عن حوزة الإسلام ؛ ولا بد من إمداد من الأمصار تكسر حدة الثوار .

كتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم قائلاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلغ عن الله ما أمره به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه ، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه ، وبين الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا . فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ، ثم أدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة ، ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس عليّ ، على غير طلب مني ولا محبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون ، تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف » .

وعثمان مضطر إلى إعادة هذه النقاط إلى أذهان الأمة ، لأن هؤلاء الناكثين يريدون خلع أمير المؤمنين وعزله .

ثم كان القسم الثاني من الكتاب حول بيان هوية هؤلاء المارقين :

« ... فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن واهواء على غير إجماع ولا ترة فيما مضى ؛ إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا عليّ أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها) .

وانتقل في رسالته إلى الأمة يحدثهم عن سياسته مع هؤلاء المتأمرين قائلاً :

(فصبرت لهم نفسي ، وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله عز وجل جراءة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه ، وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب) .

وغني عن البيان بعد هذا العرض الصراح أن يكونوا كما قال عثمان رضي الله عنه في ختام رسالته :

(فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأحد ، إلا ما يظهرون ! فمن قدر على اللحاق بنا فليلق) .

وبذلك كانت الرسالة شعلة من البارود حركت الأمصار الإسلامية كلها لإتقاذ المدينة المحتلة .

(فأتى الكتاب أهل الأمصار ، فخرجوا على الصعبة والذلول : فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري ، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكوني ، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو .

وكان المحضضين بالكوفة على إعانة أهل المدينة: عقبة بن عمرو وعبد الله بن أبي أوفى وحنظلة بن الربيع التميمي في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ . وكان المحضضين بالكوفة من التابعين أصحاب عبد الله : مسروق بن الأجدع والأسود بن يزيد وشريح بن الحارث وعبد الله بن عكيم في أمثالهم ، يسيرون فيها ويطوفون على مجالسها يقولون : يا أيها الناس إن الكلام اليوم وليس به غداً ، وإن النظر يحسن اليوم ويقبح غداً ، وإن القتال يحل اليوم ويحرم غداً ، انهضوا إلى خيلفتكم وعصمة أمركم . وقام بالبصرة عمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك ، ومن التابعين : كعب بن سور وهرم بن حيان العبدى وأشباه لهما يقولون ذلك . وقام بالشام عبادة بن الصامت

وأبو الدرداء وأبو أمامة في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ يقولون
مثل ذلك . ومن التابعين : شريك بن خباشة النميري وأبو مسلم
الخلواني ، وعبد الرحمن بن غنم بمثل ذلك . وقام بمصر خارجة
في أشباه له ، وقد كان بعض المحضّين قد شهد قدومهم فلما رأوا
حالهم انصرفوا إلى أمصارهم بذلك وقاموا فيهم (١) .



(١) كل ماورد في هذا الفصل هو رواية واحدة للسري عن
شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .
الطبري ج ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٨ .

أمير المؤمنين يُقتل

اشتد الأمر في المدينة المنورة شدة بالغة ؛ حتى حرية الكلام صارت ممنوعة بعد حرية الاجتماع من هؤلاء الناقمين :

(فلما جاءت الجمعة التي على إثر نزول المصريين مسجد رسول الله ﷺ خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال :

يا هؤلاء العدى ، الله . الله ؛ فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالصواب ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ إلا بالحسن . فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم بن جبلة فاقعده . فقام زيد بن ثابت فقال : ابغني الكتاب . فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فاقعده ، وقال فأقطع . وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مفشياً عليه ، فاحتمل فأدخل داره . وكان المصريون لا يطمعون بأحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر ، فإنهم كانوا يرأسونهم : محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر (١) .

(١) سئل سعيد بن المسيب عن محمد بن أبي حذيفة ما دعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان يتيماً في حجر عثمان ، فكان عثمان والي أيتام أهل بيته ، ومحتمل كلهم . فسأل عثمان العمل

وشمر أناس من الناس فاستقتلوا ؛ منهم : سعد بن مالك ،
وابو هريرة ، وزيد بن ثابت ، والحسن بن علي . فبعث إليهم
عثمان بعزمه لما انصرفوا فانصرفوا . وأقبل علي حتى دخل على
عثمان ، وأقبل طلحة حتى دخل عليه ، وأقبل الزبير حتى دخل
عليه ؛ يعودونه من صرعته ، ويشكون بثئهم ، ثم رجعوا إلى منازلهم .

لم تعد إمكانية التنظيم ولا إمكانية الحركة، ولا إمكانية الاجتماع
مهيأة ؛ هذا من جهة . ومن جهة ثانية يصر أمير المؤمنين عثمان على
أن لا يراق من أجله قطرة دم قد اتجه قلبه إلى الله تعالى ، وأصر
على أن يخرج من الدنيا دون أن يتلوث بشعرة فيها . وهو يرفض
في الوقت نفسه أن يكون العوبة بيد المنافقين ، فيسن سنة سيئة

حين ولي فقال : يا بني لو كنت راضاً ثم سألتني العمل لاستعملتك
ولكن لست هناك . قال : فأذن لي فلاخرج فلأطلب ما يقوتني .
قال : اذهب حيث شئت . وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فلما
وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية .

قيل : فعمار بن ياسر ؟ قال : كان بينه وبين عباس بن عتبة
ابن أبي لهب ، فضربهما عثمان ؛ فأورث ذلك بين آل عمار وآل
عتبة شراً حتى اليوم .

الطبري ج ٣ ص ٤٢٨ ، عن السري عن شعيب عن سيف عن
عبد الله بن سعيد عن يحيى بن سعيد .

وتعليل عثمان رضي الله عنه لموقف محمد بن أبي بكر أنه قد
أصابه الإعجاب : (فإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه) .
ولا شك أن للسن أثراً في سلوكه ؛ فلم يكن عمره آنذاك يتجاوز
الرابعة والعشرين من العمر .

لمن بعده ؛ حيث يجعل أمر الخلافة فوضى ، يخلع كل منافق من يخلع ، ويبقي كل سفيه من يبقي ؛ خاصة ولديه أوامر من رسول الله ﷺ تقول له بصراحة لا تقبل الجدل أو الشك :

(يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً ، فإذا أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني - ثلاثاً -) (١) .

وهو في الوقت نفسه يود أن يلقي الله تعالى ولا يحمل في رقبتك دم مسلم . وأمام هاتين الصورتين خرج على الناس ذات يوم بعد أن دعا قادة الأمة علياً وطلحة والزبير وغيرهم وقال :

(يا أيها الناس اجلسوا .

فجلسوا جميعاً المحارب الطارئ والمسالمة المقيم فقال :

يا أهل المدينة إني أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي . إني والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله في قضاءه ، ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتخذونه عليكم دخلاً في دين الله أو دنياً ؛ حتى يكون الله عز وجل هو الصانع في ذلك ما أحب) (٢) .

وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن ومحمداً وابن الزبير وأشباهاً لهم ، فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم واثاب إليهم ناس كثير ، ولزم عثمان الدار (٣) . واعتزل عثمان

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ، واللفظ لأحمد ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٢-٣) الطبري عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

الناس ، وانتظر لعل وفود الأمصار تقدم فتفك الحصار ، وتسقط في يد الثوار مخططاتهم فيستسلمون .

ولكن التخطيط المعادي كان يدرك أنه سينتهي لو قدمت الوفود إلى المدينة؛ فقررُوا إنهاء الوضع السلبي، والتضييق على أمير المؤمنين ، ثم قتله قبل وصول الأمداد من الأمصار الإسلامية .

(كان الحصار أربعين ليلة ، والنزول سبعين ، فلما مضت من الأربعين ثمان عشرة قدم ركبان من الوجوه ، فأخبروا خبر من قد تهيأ إليهم من الآفاق : حبيب من الشام ومعاوية (بن حديج) من مصر ، والقعقاع من الكوفة ، ومجاشع من البصرة ؛ فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان ، ومنعوه كل شيء حتى الماء .

وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علة ، فعثروا في داره بالحجارة ليُرْمَوْا فيقولوا : قوتلنا - وذلك ليلاً - فناداهم : ألا تتقون الله ، ألا تعلمون أن في الدار غيري ؟ قالوا : لا والله ما رميناك ، قال : فمن رمانا ، قالوا : الله ، قال : كذبتُم ؛ إن الله عز وجل لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا . وأشرف عثمان على آل حزم - وهم جيرانه - فسرَّح ابناً لعمرُو إلى علي ؛ بأنهم قد منعونا الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا . وإلى طلحة وإلى الزبير ، وإلى عائشة ، وأزواج النبي ﷺ . فكان أولهم إنجاءً له علي وأم حبيبة .

جاء علي في الفلس فقال : يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟

قالوا : لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب .

فرمى بعمامته في الدار بآني قد نهضت فيما انهضتني فرجع .
وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة ،
فقيل : أم المؤمنين أم حبيبة ! فضربوا وجه بغلتها فقالت : إن وصايا
بني أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا
تهلك أموال أيتام وأرامل ، قالوا : كاذبة ، وأهوا لها وقطعوا حبل
البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها
فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، واستتبعت أخاها
فأبى ، فقالت : أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون
لأفعلن .

وجاء حنظلة الكاتب حتى قام على محمد بن أبي بكر فقال :
يا محمد تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب
إلى ما لا يحل فتتبعهم ؟! فقال : ما أنت وذاك يا ابن التميمية ؟ فقال :
يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو
عبد مناف وانصرف وهو يقول :

عجبت لما يخوض الناس فيه	يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم	ولاقوا بعده ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى	سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق بالكوفة وخرجت عائشة وهي ممثلة غيظاً على أهل مصر ،
وجاءها مروان بن الحكم فقال : يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر
أن يراقبوا هذا الرجل ، فقالت : أتريد أن يصنع بي كما صنع
بأم حبيبة ، ثم لا أجدر من يمنعني ؟! لا والله ولا أعير ، ولا أدري
إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وبلغ طلحة والزبير مالقي علي وام حبيبة فلزموا بيوتهم ، وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات عليهم الرقباء .

فاشرف عثمان على الناس فقال : يا عبد الله بن عباس ! فدعي له . فقال : اذهب فانت على الموسم - وكان ممن لزم الباب - .

فقال : والله يا امير المؤمنين لجهاد هؤلاء احب إلي من الحج . فاقسم عليه لينطلقن .

فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة .

ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته فانصرف بها - وفي الزبير اختلاف ادرك مقتله او خرج قبله - وقال عثمان :

« يا قوم لا يجرمكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح . . » الآية . اللهم حل بين الأحزاب وبين ما ياملون كما فعل بأشياعهم من قبل (١) .

لقد انحصرت المواقف في الجراة الادبية التي تعلن كلمة الحق ؛ لأنها عاجزة عن استعمال القوة ، ولا يعني استعمال القوة شيئاً إلا ذبح خيار المسلمين وأئمتهم ، ليخلو الجو للمنافقين والحاquدين والمتورين .

وكل ما كان يملكه اصحاب رسول الله ﷺ أن يقدموا فلذات اكبادهم فداءً لعثمان أمير المؤمنين . اما هم فلو قضاوا هلكى فهذا يعني انهم يدعون الأمر لهؤلاء الثائرين يتحكمون ويتسلطون .

(١) الطبري ج ٣ ص ٤١٧ - ٤١٩ السري عن سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة .

إنه لا بد لهم - من أجل الأمة لا من أجلهم - أن يحافظوا على حياتهم وحياة الخليفة ، ويتدبروا الأمر ، ويحشدوا الجيوش ، ويجندوا الكتائب . فالناس لا تصيح إلا لهم ولا تسمع إلا لهم . ولكنهم لا يملكون الآن شيئاً ، وأمير المؤمنين عثمان عليه رضوان الله مصرّ على أن يقابل ربه بلا قطرة دم تراق من أجله ويسأله الله عنها .



ولنشهد عملية القتل الرهيبة من هؤلاء الحاقدين والمنافقين .

هؤلاء الذين لم يرعوا إلاّ ولا ذمة ولا حرمة لأم حبيبة زوج رسول الله ﷺ . هؤلاء الذين لم يرعوا إلاّ ولا ذمة ولا حرمة لعلّي رضي الله عنه ولا لطلحة ولا للزبير رضي الله عنهما ، ولا لعائشة أم المؤمنين .

ولن يكون لنا منها أكثر من العرض ؛ ففيه ما يدمي القلب ، ويذيب الفؤاد :

(. . . ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله (أي عثمان) فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ، مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم ، واجتلدوا ، فناداهم عثمان :

الله الله ! انتم في حل من نصرتي ، فأبوا ، ففتح الباب . وخرج ومعه الترس والسيف لينهضهم ، فلما راوه أدبر المصريون ، وركبهم هؤلاء ونهضهم ، فتراجعوا وعظم على الفريقين ، واقسم على الصحابة ليدخلن ، فأبوا أن ينصرفوا ، فدخلوا ، فأغلق الباب دون

المصريين واتخذ عثمان تلك الايام القرآن تحباً (١) ، يصلي وعنده المصحف ؛ فإذا اعيى جلس فقرأ فيه . وكانوا يرون القراءة في المصحف من العبادة . وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين الباب ، فلما بقي المصريون لا يمنهم احد من الباب ولا يقدرّون على الدخول؛ جاؤوا بنارٍ فأحرقوا الباب والسقيفة ، فتأجج الباب والسقيفة ، حتى إذا احترق الخشب خرّت السقيفة على الباب ، فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم الدخول . . .

واقترح الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ، ولا يشعر الذين بالباب ، واقبلت القبائل على ابنائهم ، فذهبوا بهم إذ غلبوا على أميرهم .

ونذبوا رجلاً لقتله ، فانتدب له رجل فدخل عليه البيت فقال:
اخلعها وندعك ؟!

قال : ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ !! ولست خالماً قميصاً كسانيه الله عز وجل ، وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء .

فخرج . وقالوا : ما صنعت ؟!

فقال : علقنا والله لا ينجيننا من الناس إلا قتله وما يحل لنا قتله !!

(١) نحباً : همأ وعادة .

فأقبل عبد الله بن سلام (١) حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال :

يا قوم، لا تسلبوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه .
ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ، فإن قتلتموه لا يقيم إلا بالسيف .
ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله ، والله لئن قتلتموه لتتركنها !!

فقالوا : يا ابن اليهودية ، وما أنت وهذا ؟!

فرجع عنهم .

قالوا : وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر ، فقال له عثمان : ويلك أعلی الله تغضب ؟! هل لي إليك جرم الاحقه اخذته منك ؟!

فنكل ورجع .

(١) أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام أنه قال - حين هاج الناس في أمر عثمان - : أيها الناس، لا تقتلوا هذا الشيخ واستعقبوه فإنه لن تقتل أمة نبيا فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء سبعين ألفاً منهم ، ولن تقتل أمة خليفتها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء أربعين ألفاً منهم .

فلم ينظروا فيما قال وقتلوه ، فجلس علي في الطريق . فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد أرض العراق . قال : لا تأت العراق ، وعليك بمنبر رسول الله ﷺ ، فوثب به أناس من أصحاب علي وهموا به . فقال علي : دعوه فإنه منا أهل البيت . فلما قتل علي قال عبد الله ابن معقل : هذه رأس الأربعين ، وسيكون على رأسها صلح . ولن تقتل أمة نبيا إلا قتل به سبعون ألفاً ، ولن تقتل أمة خليفتها إلا قتل به أربعون ألفاً .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

قالوا (أي الرواة) : فلما خرج محمد بن أبي بكر ، وعرفوا انكساره ؛ ثار قتيرة وسودان بن حمران السكونيان ، والفافقي ، فضربه الفافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله ، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه وسالت عليه الدماء . وجاء سودان بن حمران ليضربه ، فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ، ونفح أصابعها ، فأطنَّ أصابع يدها ، وولت ففمز أوراكها وقال : إنها لكبيرة العجيزة . وضرب عثمان فقتله !!

ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه - وقد كان عثمان اعتق من كف منهم - فلما رأوا سودان قد ضربه ؛ أهوى له بعضهم ، ف ضرب عنقه فقتله .

ووثب قتيرة على الغلام فقتله ، وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى . فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله ، ودار القوم ، فأخذوا ما وجدوا ، حتى تناولوا ما على النساء ، وأخذ رجل ملاءة نائلة ، والرجل يدعى كلثوم بن تجيب فتنحت نائلة . فقال :

ويح أمك من عجيزة ما أتمك .

وبضر به غلام لعثمان فقتله وقتل . . .

وكان الزبير قد خرج من المدينة ، فأقام على طريق مكة لئلا يشهد مقتله . فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو ؛ قال :
إنا لله وإنا إليه راجعون .

رحم الله عثمان وانتصر له .

وقيل : إن القوم نادمون . فقال : دبروا دبروا (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) الآية .

واتى الخبر طلحة فقال : رحم الله عثمان ، وانتصر له
والإسلام . وقيل له : إن القوم نادمون فقال : تبأ لهم ! وقرأ :
(فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) .

واتى علي ف قيل : قتل عثمان ، فقال : رحم الله عثمان وخلف
علينا بخير . وقيل : ندم القوم ، فقرأ : (كمثل الشيطان إذ قال
للإنسان اكفر ...) الآية . وطلب سعد فإذا هو في حائطه وقد
قال : لا أشهد قتله . فلما جاءه قتله قال : فررنا إلى المدينة فديننا!!
وقرأ : (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا) . اللهم أندمهم ثم خذهم .

وهاتان الروايتان يكمل بعضهما بعضاً ، وتأخذ منهما لحد
ما صورة كاملة عن مقتل عثمان الشهيد رضوان الله عليه ، وهما
منقولتان عن مصادر أمينة .

وقد ضربنا صفحاً عن بقية الروايات المختلطة المتناثرة ؛ لأن
هذه الروايات مجال شك من حيث سندها ، ومجال شك من
حيث متنها .



إن النفسية التي يحملها عثمان رضي الله عنه يستحيل أن
نجد لها مثيلاً في التاريخ كله إلا في زمانه في عصر فجر الرسالة .

إن بعض الحاكمين يسفكون دماء كل الناس لنجاتهم ، ونجد
عثمان يرفض أن تراق قطرة دم في سبيله .

لقد عرض عليه أن يعتزل الأمر فرفض ؛ وليس رفضه حباً
بالمَنْصب ، إنما هو تنفيذ لتوجيه رسول الله ﷺ له :

« يا عثمان إذا البسك الله قميصاً وأرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه » . وهو يمتنع عن القتال ، ويأمر بكف اليد ، ويحرر غلمانہ الذين يلقون سيوفهم التي يدافعون بها عنه ؛ لأن رسول الله أمره بذلك ، فلقد بشر بالجنة على هذا الابتلاء .

وقد وردت هذه البشارة في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يوم استأذن عثمان على رسول الله ﷺ ؛ فقال له :
« ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه » (١) .

وهو الذي قيل له في الدار : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟
قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً وأنا صابر نفسي عليه (٢) .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفضائل .

(٢) روى الإمام أحمد ٥٢/٦ قال : حدثنا يحيى عن إسماعيل بن قيس عن أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ادعوا لي بعض أصحابي . قلت : أبوبكر؟ قال : لا . قلت : عمر؟ قال : لا . قلت : ابن عمك علي؟ قال : لا . قلت : عثمان؟ قال : نعم .
فلما جاء عثمان ، قال : تنحي .

فجعل يساره ولون عثمان يتغير .
قال أبو سهلة : فلما كان يوم الدار وحضر فيها ؛ قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟!
قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً وأنا صابر نفسي عليه .

ولقد رأى رسول الله ﷺ في النوم يوم مقتله ، وقال له :
(يا عثمان أنت عندنا غداً ، وأنت مقتول غداً) (١) .

فقتل صائماً صابراً محتسباً قبيل غروب الشمس بقليل ،
ومضى إلى ربه انموذجاً خالداً في سجل التاريخ يوم قدم دمه فداءً
للمسلمين وهو على مشارف التسعين .



(١) وقد روى كعب بن عجرة قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة
فقرَّبَها وعظمها . قال : ثم مر رجل مقنع في ملحفة فقال : هذا
يومئذٍ على الحق ؛ قال : فانطلقت مسرعاً واخذت بضبعيه ، فقلت :
هذا يا رسول الله ؟ قال : هذا ، فإذا هو عثمان بن عفان .
رواه الإمام أحمد ٢٤٢/٤ وابن ماجه .

عليّ أمير المؤمنين

(بقيت المدينة بعد قتل عثمان رضي الله عنه خمسة أيام وأمرها الفافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه .

يأتي المصريون علياً فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة (بساتينها) ، فإذا لقوه باعدهم ، وتبرا منهم ومن مقاتلتهم مرة بعد مرة .

ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، فأرسلوا إليه حيث هو رسلاً فباعدهم وتبرا من مقاتلتهم .

ويطلب البصريون طلحة ، فإذا لقيهم باعدهم وتبرا من مقاتلتهم مرة بعد مرة ، فلما لم يجدوا ممالئاً ولا مجيباً جمعهم الشر على أول من أجابهم . وقالوا : لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا :

إنك من أهل الشورى ، فرأينا فيك مجتمع ، فاقدم نبايعك ، فبعث إليهم : إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال ، وتمثل :

لا تخلصن خبيثات بطيبة واخلع ثيابك منها وانج عريانا

ثم إنهم اتوا ابن عمر عبد الله فقالوا :

انت ابن عمر فقم بهذا الامر ؛ فقال :

إن لهذا الامر انتقاماً (١) ، والله لا أعرض له ، فالتمسوا غيري .

فبقوا خيارى لا يدرون ما يصنعون والامر امرهم (٢) .

ولما كان يوم الخميس على راس خمسة ايام من مقتل عثمان رضي الله عنه ؛ جمعوا اهل المدينة فوجدوا سعداً والزبير خارجين ، ووجدوا طلحة في حائط له ، ووجدوا بني أمية قد هربوا .. فلما اجتمع لهم اهل المدينة قال لهم اهل مصر :

انتم اهل الشورى ، وانتم تفقدون الإمامة ، وامركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع .

فقال الجمهور : علي بن ابي طالب نحن به راضون (٣) .

(١) لم ينفرد عبد الله بن عمر بهذا الرأي ؛ فعن قيس بن أبي حازم قال : سمعت سعيد بن زيد رضي الله عنه يقول : لقد رأيتني وإن عمر موثقي على الإسلام . ولو انقض أحد مما فعلتم بعثمان كان محقوقاً أن ينقض . (رواه البخاري) .

وعن زهدم الجرمي قال : خطب ابن عباس رضي الله عنهما فقال :

لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء !
رواه محمد بن سعد في الطبقات ، وذكره ابن كثير في تاريخه ،
وقد روي من غير هذا الوجه عنه .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٤٥٤ ، السري عن شعيب عن سيف
عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

(٣) الطبري ج ٣ ص ٤٥٥ ، السري عن شعيب عن سيف
عن أبي حارثة وأبي عثمان .

(وعن محمد وطلحة قالا) :

فقالوا لهم : دونكم يا اهل المدينة ، فقد اجلناكم يومين ، فوالله
لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وانا ساء كثيراً .

فغشي الناس علياً ، فقالوا : نبايعك ، فقد ترى ما نزل
بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى .

فقال علي : دعوني والتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون امراً له
وجوه ، وله الوان لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول .

فقالوا : ننشدك الله الا ترى ما نرى ؟ الا ترى الاسلام ؟
الا ترى الفتنة ؟

الا تخاف الله ؟

فقال : قد اجبتكم لما أرى .

(وكانت لحظة حاسمة في التاريخ الإسلامي ، وعلي رضي الله
عنه يدرك خطورة الموقف . فقال بعد لاي :)

— واعلموا إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم . وإن تركتموني فإنما
انا كأحدكم إلا اني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم .

ثم افترقوا على ذلك ، واتعدوا الغد ، وتشاور الناس فيما
بينهم ، وقالوا : إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت .

فبعث البصريون إلى الزبير بصرياً وقالوا : احذر لاتحابه
— وكان رسولهم حكيم بن جبلة العبدي في نفر — فجاؤوا به
يحدونه بالسيف . وإلى طلحة كوفياً وقالوا له : احذر لاتحابه ،
فبعثوا الاشر في نفر فجاؤوا به يحدونه بالسيف . واهل الكوفة

وأهل البصرة شامتون بصاحبهم ، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة ، وقد خشع أهل الكوفة وأهل البصرة أن صاروا اتباعاً لأهل مصر وحشوة فيهم ، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظاً . فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء عليّ حتى صعد المنبر فقال : يا أيها الناس عن ملأ وإذن ، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد .

فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس .

وجاء القوم بطلحة ، فقالوا : بايع ، فقال : إني إنما أبايع كرهاً ، فبايع - وكان به شكل - أول الناس ، وفي الناس رجل يعتاف فنظر من بعيد ؛ فلما رأى طلحة أول من بايع قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر !!

ثم جيء بالزبير ، فقال مثل ذلك وبايع - وفي الزبير اختلاف - . ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا : نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزير والذليل ؛ فبايعهم . ثم قام العامة فبايعوا (١) .



هذه هي الصورة الناصعة لولاية علي رضي الله عنه .

الجاه الناس إلى البيعة إجماعاً ، ولجؤوا إليه ليحمل لهم مسؤولية الحكم . غشيه أهل المدينة ، وطلبوا منه أن يكون خليفة

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٦ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

المسلمين ، فأمهلهم ليتشاوروا في الأمر حتى اليوم الثاني ، فإذا هم مصرون على مبايعته .

والذي بايع علياً رضي الله عنه أهل المدينة ، أهل الحل والعقد ، من لهم التولية والعزل ، أما الثوار فقد رفض علي بيعتهم ، ولاذ منهم في حيطان (بساتين) المدينة ، بل وتوعدهم لو كان يملك شيئاً من الأمر .

والمؤكد من هذه الروايات أنبيعة طلحة والزبير كانتبيعة إكراه ولا شك ، قام الناقمون بفرضها عليهم . وكما قال الزبير رضي الله عنه فيما روي عنه :

جاءني لص من لصوص عبد القيس ، فبايعت واللج على عنقي .

وكما روي عن طلحة كذلك ؛ عندما ذهب إليه الأشتر فقال له : دعني أنظر ما يصنع الناس .

فلم يدعه وجاء به يتلّه تلاً عنيفاً ، وصعد المنبر فبايع .

إذاً لا تزال السلطة للثائرين ؛ ومن هنا افرقت وجهة نظر طلحة والزبير رضي الله عنهما عن وجهة نظر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وانطلقا يحرضان الناس من الكوفة والبصرة للثأر بدم عثمان .

إنما الغريب في هذا الأمر هو موقف الحاقدين الناقمين ، إنهم يعلمون أن العزل ليس لهم ، وأن تنصيب الخليفة ليس لهم ؛ فكيف يقدمون ويجترئون على قتل أمير المؤمنين عثمان ؛ اللهم إلا أن تكون تلك اليد اليهودية تحركهم وقت ما تريد وتوقفهم عندما تريد !!

ولكن يمكننا ان ندرك احتمالات أخرى :

لقد حاولوا أن يكون لهم الأمر ويولون من يريدون ، فلم يستجب لهم أحد ، وتنصل منهم أهل الشورى بل وهددوهم ، وهم يعلمون أنه مالم يستجب لهم واحد من هؤلاء فسوف تثور بهم الأرض الإسلامية من كل حذب وصوب ، وسوف يقتلون عن بكرة أبيهم .

فكان لا بد من خليفة ، فاستعملوا سلاح التهديد الرهيب . أرادوا قتل العلية من أصحاب محمد ﷺ جميعهم ليرغموا الناس على اختيار خليفة ، وحققوا ما أرادوه لينقذوا أنفسهم من القتل . لا شك أن الذي يخطط لهم على مستوى من المهارة والدهاء ، بحيث يحقق مأربه ، وينسحب في اللحظة المناسبة .

* * *

وتعترض أماننا الآن تساؤلات شتى - وقد غدا علي أمير المؤمنين - :

ماذا يفعل مع هؤلاء الثوار ؟

لنستمع إلى هذا النقاش الهاديء بين علي رضي الله عنه ومستشاريه طلحة والزبير :

(واجتمع إلى علي بعدما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة :

فقالوا : يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل ، وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم :

يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع
بقوم يملكونا ولا نملكهم ؟! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ،
وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل
ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون !!

قالوا : لا

قال : فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . إن هذا
الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم
يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً .

إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور :

فرقة ترى ما ترون . وفرقة ترى ما لا ترون . وفرقة لا ترى
هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ
الحقوق . فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا (١) .

يبدو أماننا هنا رأي لعلي رضي الله عنه لم نكن نعلمه من قبل ؛
وهو أن شوكة الثائرين قد قويت ، وانضم إليهم أفواج جديدة من
الأعراب والعبدان .

ويمكن أن يحل جزء كبير من المشكلة إذا أمكن تفريق هذا
الجمع وتفتيته .

إنه يرى أن قتلة عثمان هم اليد المحركة الخفية التي يجب
أن تبتر ، ولن تكشف إلا عندما يتفرق هذا التجمع ، وينفض
المفرّ بهم إلى بلادهم .

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٨ ، السري عن شعيب عن سيف
عن محمد وطلحة .

ومن أجل هذا وجدناه في اليوم الثالث من خلافته يصعد على المنبر ويخطبهم قائلاً : يا أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب .

وقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم .

فأبت السبئية ، واطاعهم الأعراب ، ودخل علي³ بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من اصحاب النبي ﷺ .

— علي لطلحة والزبير : دونكم ثأركم فاقتلوه .

— عتوا عن ذلك .

— هم والله بعد اليوم اعننى وأبى ، وقال :

ولو أن قومي طاعوني سرّاتهم امرتهم أمراً يديخ الأعدايا

طلحة : دعني فلات البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل .

علي : حتى أنظر في ذلك .

الزبير : دعني فلات الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل .

علي : حتى أنظر في ذلك (١) .

لم يكن من السهل على علي بن أبي طالب أن ينظر حوله فلا يرى طلحة والزبير وهما أشد من يعتمد عليهما وعلى مشورتهم .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهو يعلم أن الظروف التي بايع فيها هذان ظروف غير طبيعية ، فلا شيء يمنع أن ينهجا نهجاً لا يقره ، ويصعب التفاهم بعدها بحجة هذه الظروف .

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٩ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

ومن جهة ثالثة لا يزال رأي عمر مرتسماً بذهنه ، وهو عدم السماح لكبار الصحابة بمغادرة المدينة ، حتى لا يفتتن بهم الناس ، ويتفرقوا بهم ؛ فتتفرق كلمة المسلمين .

وصدق حدس أمير المؤمنين . فكانت فتنة الجمل (١) التي فتحت نهر الدم على مصراعيه .



(١) كان الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي قد قام بين الفريقين (جيش علي وعائشة) بالوساطة الحكيمة المعقولة ، فاستجاب له أصحاب الجمل ، وأذن علي لذلك ، وبعث علي إلى طلحة والزبير يقول : إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر ، فأرسلا إليه : (إنا على ما فارقتنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس) . قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧ : ٢٣٩) : فاطمأنت النفوس ، وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما أمسوا بعث عليّ عبد الله بن عباس إليهم ، وبعثوا محمد بن طلحة السجّاد إلى علي ، وعولوا جميعاً على الصلح ، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة ، واستسروا بذلك خشية أن يظن بما حاولوا من الشر ، ففدوا مع الفلس ، وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلا إلى ذلك الأمر انسلا . (انظر تاريخ الطبري ٢٠٢ : ٢٠٣ ومنهاج السنة ١٨٥ : ٣ و ٢٢٥ و ٢٤١) .

وهكذا انشبوا الحرب بين علي وبين الزبير وطلحة ، فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم ، وظن علي أن إخوانه غدروا به ، وكل منهم اتقى الله من أن يفعل ذلك في الجاهلية ، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن - العواصم من القواصم من تعليق محب الدين الخطيب رحمه الله ص ١٥٦ - ١٥٧ - المطبعة السلفية .

مُعَاوِيَةُ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

بدأنا بعد غياب طال ، ندلف إلى معاوية رويداً رويداً . وما كان الغياب عنه من قبل إلا من أجل أن تكون قضية الخلاف الأولى بينه وبين علي واضحة أكثر ما يكون الموضوح ، جليلة أشد ما يكون الجلاء .

في هذا الجو المكفهر ، تباعد الاجتهاد ، وتشتت الآراء ، وصار الحليم في الأمة حيران لا يهتدي إلى سبيل . لقد جاءت الفتن تجر بعضها بعضاً !!

(بعث علي عماله على الأمصار : فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة - وكانت له هجرة - وعبيد الله ابن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل ، فقالوا :

- من أنت ؟

- أمير .

- على أي شيء ؟؟

- على الشام .

- إن كان عثمان بعثك فحينها بك ، وإن كان بعثك

غيره فارجع .

— أو ما سمعتم بالذي كان ؟

— بلى .

فرجع إلى علي . . . (١)

ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام ، وافته الأخبار ،
ورجع من رجع (وكان رسول أمير المؤمنين إلى معاوية سبرة الجهني .
فقدم عليه . فلم يكتب معاوية بشيء ، ولم يجبه ، ولبت رسوله .
وجعل كلما تنجز — طلب الانجاز — جوابه لم يزد على قوله) :

ادم إدامة حصن أو خدأ بيدي

حرباً ضروساً تشبّ الجزل والضرما

في جاركم وابنكم إذ كان مقتله

شنعاءً شيبّت الأصداغ واللمما

أعيا المسود بها والسيدون فلم

يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

لقد كان آخر لقاء لنا مع معاوية يوم ودّع المدينة وأوصى علياً
وطلحة والزبير بأمير المؤمنين عثمان بن عفان . أما الآن ، فهو يعلنها
حرباً شعواء تأكل الأخضر واليابس ، من أجل قتل أمير المؤمنين
عثمان وهو سيحمل لواء هذه الحرب ، ولن يغمض له جفن حتى
يثأّر للخليفة الشهيد .

وكانت الخطوة الثانية من هذا الإعلان الحربي السافر ،
رسول معاوية إلى علي (حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٢ ، السري عن شعيب عن سيف
عن محمد وطلحة .

في صفر (سنة ٣٦) ؛ دعا معاوية برجل من بني عبس ، ثم أحد بني رواحة يدعى قبيصة ، فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه : من معاوية إلى علي . فقال له :

إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار .

ثم أوصاه بما يقول وسرَّح رسول علي ، وخرجا ، فقدموا المدينة في ربيع الأول لغرفته . فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره ، وخرج الناس ينظرون إليه ، فتفرقوا إلى منازلهم ، وقد علموا أن معاوية معترض .

ومضى حتى يدخل على علي ، فدفع إليه الطومار ففض خاتمه ، فلم يجد في جوفه كتابة ؛ فقال للرسول : ماوراءك ؟

الرسول : آمن أنا ؟؟

علي : نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

الرسول : ورائي إني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقَوَد (القصاص) .

علي : ممن ؟؟

الرسول : من خيَظ نفسك .

وكظم عليٌ انفعاله ، بينما تابع الرسول قوله :

وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق .

علي : مني يطلبون دم عثمان ؟! أأست موتوراً كتيرة عثمان ؟! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً أصابه .

ثم قال للرسول : اخرج .

الرسول : وانا آمن ؟

علي : وانت آمن .

فخرج العبسي .

وصاحت السبئية : هذا الكلب ، هذا وافد الكلاب ، اقتلوه .

فنادى : يا آل مضر ، يا آل قيس الخيل والنبل .

إني أحلف بالله جلّ اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي ؛
فانظروا كم الفحولة والركاب .

وتعاونوا عليه ، ومنعته مضر (١) .

هذه هي الصورة عما جرى في المدينة لدى أهل الشام :

الثائرون قتلوا عثمان ، ولجؤوا إلى علي فبايعوه ؛ فمما لا شك
فيه أن هناك تواطؤا بين الثوار وعلي ، وأن له هوى في قتل
ذي النورين .

أما بيعة أهل المدينة فلا يعتد بها لأن الثوار هم المسيطرون
على المدينة . فيستطيعون تنفيذ ما يريدون ، وأن يجبروا أهل
المدينة على البيعة التي يحبون ؛ لأن سيوف الثوار مسلطة
على رقابهم .

ولو كان أهل المدينة قادرين على شيء من أمورهم لأمكنهم
حماية عثمان .

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٤ ، السري عن شعيب عن سيف
عن محمد وطلحة .

وإن خروج طلحة والزبير وعائشة وهم من كبار أصحاب رسول الله ﷺ ؛ لدليل أكيد على أن أهل المدينة لا يملكون من أمرهم شيئاً ، خاصة وأن بني أمية قد هربوا من المدينة قبل أن تتمبيعة علي ، ولم يكن بينهم أحد شهد ظروف البيعة ، وتمنع علي رضي الله عنه عنها عندما كانت في أيدي الثوار ، ولم يشهدوا زحف أهل المدينة إليه ، ورجاءهم الحار له أن يقبل الخلافة ، حتى لا يمكثوا تحت رحمة الثوار ، ولا يبقى المسلمون بدون أمير وتفرق الأهواء وتتشعب الآراء .

لم يشهد الفارون من بني أمية إلى الشام هذه الصورة السليمة النقية التي تشهد لابن أبي طالب بصحة بيعته .

لقد شهد نقلة الخبر إلى معاوية بقتل عثمان ، شهدوا سيوفاً مصلطة على رقابهم وبيت المال منتهكاً مسلوباً من هؤلاء الحاقدين ، وأصابع نائلة المقطوعة رضي الله عنها ، وشهدوا إرهاباً وتسلطاً حال بينهم وبين دفن عثمان في مقابر المسلمين — فلا غرابة أن تنتقل هذه الصورة إلى الشام ، فتتهيج لها النفوس والعواطف وتشتعل القلوب ، خصوصاً وأن هذه الصورة لا بد أنها حملت مبالغات وتصورات وأخباراً يصعب تمحيصها . هذا بالإضافة إلى خروج المسلمين في مكة والبصرة . مما جعل الأمر يقبل لدى معاوية اتهام علي رضوان الله عليه بالسكوت على دم عثمان .

على أساس هذه القاعدة يمكننا أن نفهم إصرار معاوية رضي الله عنه على الحرب للثأر بدم الخليفة الشهيد ، وهو موقف لمعاوية متناسب تمام التناسب مع كل مواقفه السابقة خصوصاً موقفه يوم عرض على عثمان رضي الله عنه المسير إلى الشام ، أو إمداده بجيوش لحمايته في المدينة . إنه موقف طبيعي ومنطقي وانطلاقاً من هذه

القاعدة التي ذكرناها . كما أن الظروف مكنته من أن يسبر أغوار المشاغبين الذين كانوا يرسلون إلى الشام من قبل الخليفة الراحل ، لتأديبهم وتوجيههم وعرف يومها أنهم طلاب فتنة لا طلاب حق .

لا غرابة بعد هذا اطلاقاً أن نرى إصرار معاوية ومعه المسلمون في الشام جميعاً ؛ على انتزاع السلطة المفصوبة من الثوار ، والتنكيل بهم جزاء الجريمة التي فاقت كل الجرائم بمقتل الخليفة العظيم . بل الغرابة أن يكون الموقف غير ذلك .

وهل نتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاquدين محتلين متآمرين ، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للثأر من أصحاب هذه الجريمة البشعة ؟!

وهكذا تجري الأمور عندما تقع في الأمة الفتن فلا يمكن لطرف أن يفهم الطرف الآخر ويلتقي معه ويتعرف على ظروفه وملابساته ودوافعه ، ويكون للمواطنين دور كبير في تأزيم القضايا وتعقيد الخلاف .

وهو عقاب الله تعالى للأمة جزاء تقاعسها عن حماية الخليفة الشهيد ، كما قال عبد الله بن سلام :

(ولن تقتل أمة خليفتها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء أربعين ألفاً منهم) (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : انى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) .

وما هو موقف علي رضي الله عنه من إعلان الحرب من معاوية عليه ؟

(.. وأحب أهل المدينة أن يعلموا ما رأي علي في معاوية

وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رايه في قتال اهل القبلة ، ايجسر عليه او ينكل عنه . وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس ، فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي - وكان منقطعاً إلى علي - فدخل عليه فجلس إليه ساعة ، فقال علي له :

- يا زياد تيسر .

- : لأي شيء ؟

- تغزو الشام .

- : الأناة والرفق أمثل .

وأنشد :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

- : (فتمثل علي)

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس ، والناس ينتظرونه ؛ فقالوا :
ما وراءك ؟ فقال : السيف يا قوم !!

ودعا علي محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله ابن عباس ميمنته ، وعمر بن أبي سلمة او عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ولاءه ميسرته ، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح فجعله على مقدمته ، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً .

وكتب إلى قيس بن سعد (١) أن يندب الناس إلى الشام ،

(١) واليه على مصر .

وإلى عثمان بن حنيف^(١) وإلى أبي موسى^(٢) مثل ذلك . وأقبل على التهيؤ والتجهز . وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة وقال :

(إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهديا بكتاب ناطق وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك . وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله . وإن في سلطان الله عصمة أمركم . فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها . والله لتفعلنّ أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الاسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها . انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم)^(٣) .

والذي يستوقفنا في هذا العرض هو خشية أهل المدينة من القتال ، بجانب إيمان علي الذي لا يتزعزع فيه ، وقد أرسلوا إليه زياد بن حنظلة يتعرفون على رأيه . وراي علي واضح لاتحتاج معرفته إلى جهد ، وهو الذي عرض على زياد القتال .

والأمر لا يحتمل لدى أمير المؤمنين التسوية ، ولهذا فقد اختار نماذج طيبة وموثوقة وفتية لقيادة الجيش : فعبد الله بن عباس حبر الأمة للميمنة ، وابن أم المؤمنين أم سلمة للميسرة ، وابن أخي أمين الأمة للمقدمة ، واللواء لابنه محمد بن الحنفية ، وجعل

(١) واليه على البصرة .

(٢) كان أبو موسى على الكوفة من قبل عثمان وأقره علي بادئ ذي بدء .

(٣) الطبري ج ٣ ص ٤٦٥ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

واليه على المدينة قثم بن العباس رضي الله عنهما - وهذه كلها نوعيات نظيفة لم تتلوث من قريب أو بعيد بدم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ؛ ومن أجل هذا وجدنا الراوي يشير إلى أن أمير المؤمنين علياً لم يولّ ممن خرج على عثمان أحداً .

إنه منهج إسلامي لدى ابن عم رسول الله ، إنه لا يؤمن بالمساومة والالتواء ، فبالرغم من سطوة قتلة عثمان وسلطتهم ، وبالرغم من أن الإرهاب منهم لا يزال له مجراه ؛ لكن أمير المؤمنين رفض أن يلوث حكمه والولاية عنده بمن شارك بدم عثمان بشيء . وطلب في الوقت نفسه الأمداد من الولايات الإسلامية . إنه يطمح أن يغزو الشام بأكبر جيش ممكن يضطر به أهل الشام إلى الدخول في طاعته دون إراقة دماء ، وليس أمام أمير المؤمنين إلا القتال .

فرسول علي إلى الشام ، ورسول الشام إلى علي يتحدثان عن الحرب الضروس التي تشبّ الجزل والضرر ، ويتحدثان عن ستين ألف شيخ سيكون تحت قميص عثمان ، يعاهدون الله على الشار للخليفة الشهيد .

إن غزو الشام قبل أن يستجمع قواته ، ويتمكن من إشعال الفتنة ؛ هي الخطة التي رآها علي مناسبة ، أملاً بأن تحقق الدماء ، ويعود الباغون إلى حظيرة الحق . ومعاوية رضي الله عنه يعبى القوى كلها لنصرة الحق ، والثأر للخليفة الشهيد من السفاكين المارقين . وهكذا يمضي كلا الفريقين إلى القتال .

* * *

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي الْمَعْرَكَةِ

من بين الروايات الكثيرة عن دخول عمرو بن العاص المعركة بجانب معاوية نأخذ رواية أوثق رواة الطبري : السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان ؛ قالوا :

لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام وقال : والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب .

(وهو رأي عبد الله بن عباس . وهو الذي قال لعثمان أن قتال هؤلاء المارقين أكثر أجراً عند الله من إمارة الحج التي كلفه بها) .

فسار (أي عمرو) وسار معه ابنه عبد الله ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله .

(.. وبينما عمرو بن العاص جالس بعجلان (اسم مكان) ومعه ابنه إذ مر بهم راكب .

فقالوا : من أين ؟؟

الراكب : من المدينة .

عمرو : ما اسمك ؟

الراكب : حصيرة .

عمرو : حصر الرجل ، فما الخبر ؟!

الراكب : تركت الرجل محصوراً .

عمرو : يقتل .

ثم مكثوا أياماً ، فمر بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال :
من المدينة ، قال عمرو : ما اسمك ؟ قال : قتال ؛ قال عمرو :
قتل الرجل . فما الخبر ؟

قال : قتل الرجل ، ثم لم يكن إلا ذلك إلى أن خرجت .

ثم مكثوا أياماً فمر بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال :
من المدينة . قال عمرو : ما اسمك . قال : حرب . قال عمرو :
يكون حرب . فما الخبر ؟؟

قال : قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبويع لعلي بن
أبي طالب .

قال عمرو : أنا أبو عبد الله يكون حرب من حك فيها قرحة
نكأها . رحم الله عثمان ورضي الله عنه ، وغفر له .

قال سلامة بن زنباع الجذامي :

(يا معشر قريش ، إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب .
فاتخذوا باباً إذ كسر الباب) .

إنها دعوة إلى الاجتماع على خليفة للمسلمين .

فما هي وجهة نظر عمرو في هذا الموضوع ؟؟

إنه مقتنع بعودة الخلافة ، لكن بغير الصورة التي تمت بها
والثوار يحتلون المدينة ، لا بد من العودة بالأمور إلى نصابها وتكون
الخلافة شورى بعد ذلك ، وهي وجهة نظر معاوية . ولم يعرف

عمرو كيف تمت خلافة علي ، ومن أجل هذا أعلن عمرو كذلك نذر الحرب فقال :

(وذاك الذي نريد ، ولا يصلح الباب إلا أشافٍ تخرج الحق من حافرة البأس ، ويكون الناس في العدل سواء ...) .

لا بد من أن يخرج الحق من منطق الضغط والإكراه ومن مخالف القوة .

لا بد أن تكون الخلافة ، ولا ظل أو سلطان للثائرين المحتلين للمدينة .

واعترضت قلبه الأحزان على الخليفة الشهيد . وكيف تمت هذه المأساة ، وكأن القوم مخمورون !! فقال :

يا لهف نفسي على مالك وهل يصرف اللف حفظ القدر
أنزع من الحر أودى بهم فأعذرهم أم بقومي سكر

ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه !
أنعي الحياء والدين ! حتى قدم دمشق .

* * *

وهنا لابد من الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ونحن بصدد الحديث عن معاوية - فلقد كان عمرو من أبرز العناصر التي قادت الأمة في تلك الفترة ، وهو الشخصية الثالثة دون منازع بعد علي ومعاوية رضوان الله عليهما . ولا أدل على ذلك من أن الخوارج عندما أرادوا - على تصورهم القاصر - القضاء على قادة المسلمين ، اختاروا هؤلاء الثلاثة ليفتالوهم ، وهم : علي ومعاوية وعمرو رضي الله عنهم .

ومعالم شخصية عمرو محددة : فهو ذو بصر نفاذ ، بعيد الغور ، يترقب ويتربص عندما تكون الأمور غامضة ، والحوادث

مشتجرة متكاثفة ، ويمضي لهدفه بعد أن يستجلي الأمور التي يسبر غورها ، ويدرك مآلها قبل غيرها ، وهنا يبرز دهاؤه وتكمن عبقريته .

لقد رأى ريح الفتنة تهب عاتية ، وروائحها تفوح ، فلخص الموقف بكلمة واحدة : (والله يا أهل المدينة ماقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عزوجل بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب) .

لقد رأى ببصره الثاقب أن لا قبيل لأحد بهؤلاء العتاة ولا طاقة . وإن الإقامة في المدينة والأيدي مكتفة ، والنفوس حبيسة ، هو تلوث بهذه الفتنة ومسؤولية . والنجاء والهرب يمكن أن يخفف شيئاً من جسامه المسؤولية ورهبتها حيث لا يكون حل إلا النجاء .

لقد مضى يترقب الأمور ويتابعها ، وكأنه هو الذي رسمها لشدة وعيه بما يجري ، فمن الحصار إلى القتل إلى الحرب . وكان مقتل عثمان كافياً لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين . وكان لابد من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرؤوا على حرم رسول الله وقتلوا خليفته على أعين الناس .

وأي غرابة أن يثور عمرو لعثمان ؟ بل الغريب أن لا يثور ، وإن كان هناك من يشكك في هذا الموضوع فمداره على الروايات المختلفة أو المكذوبة التي تصور عمراً كل همه السلطة والحكم .

إن التنظيم الدقيق دائماً هو الذي يغلب عامة الناس ودهماءهم حتى لو كان فيهم العالم التحرير ، والبطل الشجاع . وأمر المدينة لم يكن إلا كذلك .

فأي انقلاب عسكري يأتي — كما نشهد في أيامنا المعاصرة — يطيح بالحكم القائم . وللحكم جنوده وجيوشه ، وخاصة في العاصمة .

لقد كان العمل ضد الثوار في المدينة من المستحيل أن ينجح أو يحقق هدفه ، فكان لابد من العمل خارج المدينة ، وليس عمرو ابن العاص وحده الذي اقتنع بذلك ، وليس وحده الذي عجز عن أن يفعل شيئاً فيها . فلقد كان من هو أقدم منه سابقة ، وأعظم منه شجاعة ، وعجز عن أن يفعل شيئاً تجاه هذه الحركة المحتلة . إن طلحة والزبير وعائشة كانوا عاجزين عن فعل شيء في المدينة فاختراروا مكة ثم البصرة والكوفة . وإن علياً رضي الله عنه كان عاجزاً عن فعل شيء في المدينة لحماية أمير المؤمنين عثمان ، وكان تصوره عن طبيعة العمل ضد الثوار يتم من خلال مبايعة الولايات له . ثم تقديمها الأمداد له للتخلص من هؤلاء البغاة المتسلطين .

لم يكن غريباً إذاً أبداً أن يغادر عمرو المدينة حتى لا يلحقه ذل السكوت على حصار الخليفة الشهيد . وليس غريباً أن يمضي إلى معاوية ؛ فمعاوية قادر بما مكن الله له في قلوب أهل الشام من أن يحرك الكتائب للثأر للخليفة المقتول ، وقد تواردت الأنباء إليه بعزم معاوية . فكان أن مضى إليه وانضم له ؛ وهدفه بين ، وغايته مرسومة ، ندرك ذلك بقراءتنا لهذين البيتين اللذين تمثل بهما :

يا لهف نفسي على مالك

وهل يصرف اللف حفظ القدر

انتزع من الحرّ أودى بهم

فأعذرهم أم بقومي سكر

إنه يرى أن اللهفة لاتجدي ، وإن الغافلين كأنهم سكارى ، ولا بد أن يفيقوا وليحمل هو هذا اللواء .

وهكذا كان مجيء عمرو للشام هو الشيء المنطقي والمعقول نظراً لإدراكه أبعاد المؤامرة ، ولأن معاوية — وهو قريب عثمان في

النسب - غدا مركز التجمع بعد أن فر بنو أمية إليه ، وغدت الشام بذلك مركز من يريد الثأر لعثمان ، ففيها قميصه وأصابع نائلة زوجه ، يرفعان على منبرها ، ويشيران حفائظ الناس .

وأيـن يمضي عمرو بن العاص إن لم يمض إلى الشام ؟

إن الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان ثوار أتوا من الكوفة والبصرة ومصر . إن الشام وحدها من بين الولايات المجاورة هي التي بقيت على الولاء التام لأمير المؤمنين عثمان . وكان وجود معاوية فيها وضبطه للأمر ، وقطعه دابر الفتنة يجعل كل الأنظار تتجه إليها . والنجاح السياسي العظيم الذي حققه معاوية فيها خلال ستة عشر عاماً قمين أن يربط الأمة هناك بقائد حكيم كمعاوية .

ومع ذلك فلم تكن عملية تحريك الناس لقتال قتلة عثمان بالأمر السهل ؛ يفسر لنا هذا الرأي مالجاً إليه معاوية رضي الله عنه من وضع القميص على منبر دمشق مع أصابع نائلة رضي الله عنها فترة طويلة ليستشير الغضب ، ويصوب الأنظار إلى أنه ولي دمي عثمان ، ويدفع بالناس إلى قتال هؤلاء المارقين المعتدين .

أما مضي طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما إلى البصرة والكوفة فله جذور ليست قائمة عند عمرو بن العاص . فللزبير شيعته بالكوفة ، ولطلحة شيعته بالبصرة . فهناك الانصار والأمداد التي يمكن أن تحرك المؤيدين للقتال .

ولم يحتلّ هذان الصاحبان مركزهما من ولاية توليها ، إنما احتلاه من جهاد عريق في الإسلام ؛ بجانب إقامة معينة هناك هيأت لهما هذا النفوذ . وإن كنا لا نستطيع أن ننفي أن دعاة الفتنة قد شجعوا هذه التبعيات للقادة من الصحابة ، ليفترق أمر المسلمين شيعاً وأحزاباً .

أما عمرو فإنه وإن كان والياً على مصر فقد عزل عنها وتولى بعده ولاية عديدون ؛ إضافة إلى أن مصر قد تحرك الثوار منها لقتل عثمان أمير المؤمنين . إنه يمكن أن يفعل شيئاً هناك لو كان لديه سلطة رادعة أو ولاية معينة يستطيع أن يتصرف من خلالها ، ولقد فعل الكثير الكثير عندما استلم الولاية .

فإذن ليس له أرضية يستند إليها كما كان لدى طلحة والزبير في الكوفة والبصرة .

وعامل آخر يرد ذكره كذلك ؛ هو الصداقة الوطيدة القائمة بين معاوية وعمرو بن العاص .

لقد أمضيا في جيش الشرك ، وفي صف واحد ضد الدعوة قرابة عشرين عاماً .

ولقد عادا إلى اللقاء ثانية تحت لواء الإسلام في الشام في كل ربوعها : في الأردن وفلسطين ودمشق .

فالمعرفة قائمة ، وكل منهما يفقه الآخر ، ويمكن أن يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه .

وبقي أماننا السؤال الأخير :

الم يكن بإمكان عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يمضي إلى المدينة ، ويباعع علماً رضوان الله عليه ؟

نعم كان يمكنه ذلك ، ولكن ما قلناه عن معاوية يقال عن عمرو . لم يحضر عمرو بيعة علي ، ولم ير إجماع المهاجرين والأنصار على تلك البيعة ، وقد شهد جو المدينة المخنوق ، وسيطرة الثوار على المدينة بالقوة ، وقتلهم خليفة المسلمين دون أن يجروا أحد على أن يقف في وجوهم ، ما عدا الفدائيين من أبناء الصحابة : الحسن والحسين ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم .

بل وبلغه كيف دفن عثمان ، وكيف نهب بيت المال .

فلا يمكن أن يتصور أن بيعة علي رضي الله عنه قد تمت بطروف طبيعية وسليمة .

وإذا كان علي رضي الله عنه قد وجد عذراً لطلحة والزبير حين ذكرنا بيعتهما مكرهين ولم يردّ عليهما هذا الموقف ، وعذر سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، عن عدم البيعة وهما في المدينة ؛ فما بالك بالذي لم يحضر البيعة مطلقاً ، وإنما تتوارد إليه الأخبار التي قد ينالها التهويل والمبالغة عن المدينة وأحوالها وسيطرة الثوار عليها ؟ !

كل هذه العوامل تؤكد أن عمراً ليس فقط من المنطقي والمعقول أن يمضي إلى الشام ويطالب مع المطالبين بدم عثمان ، بل لم يكن أمامه إلا طريق واحد هو طريق الشام للثأر من قتلة الخليفة المظلوم .

أما الرواية المتداولة التي تشير إلى أنه استدعى ولديه محمداً وعبد الله ، واستشارهما ، فأشار عبد الله عليه بالانضمام إلى علي فقال له : إنك اخترت لي آخرتي ، وأشار عليه ابنه محمد أن ينضم إلى معاوية ؛ فقال له : اخترت لي دنياي ، ثم اختار دنياه على آخرته - فهي رواية ضعيفة السند ؛ لذا لا يعول عليها (١) .



مأساة صفين

(لما بلغ معاوية سير علي سار معاوية نحو علي ، واستعمل على مقدمته سفیان بن عمرو أبا الأعور السلمي ، وعلى الساقة بسر ابن أبي أرطاة حتى توافوا جميعاً سائرین إلى جانب صفین) (١) .

(وقد اقتتلوا في مدة شهر ذي الحجة كل يوم ، وفي بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين ، وجرت بينهم حروب يطول ذكرها) (٢) ، والمقصود أنهم لما دخل شهر المحرم تحاجز القوم رجاء أن يقع بينهم مهادنة وموادعة يؤول أمرها إلى الصلح بين الناس وحقن دمائهم) (٣)

(١) رواه ابن ديزيل من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر ويزيد بن الحسن بن علي . وقد اختلفوا في جابر الجعفي : وثقه الثوري وضعفه آخرون ، وبقية الرواة ثقات .

(٢) أورد ابن جرير الطبري هذه الحروب وكلها عن طريق أبي مخنف الشيعي . قال عنه الحافظ الذهبي : أبو مخنف أخباري تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره . وقال فيه ابن عدي : شيعي محترق صاحب أخبارهم .

ومن جهة ثانية فلم يرو السري عن شعيب عن سيف - أوثق رواة الطبري - شيئاً من هذه الحروب ؛ ومن أجل هذا أعرضنا عن تفصيلها .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٨/٧ .

(فأقاموا يتراسلون في ذلك (١) ويقرعون في غصون ذلك
القرعة بعد القرعة ، ويزحف بعضهم على بعض ، ويحجز بينهم
القراء فلا يكون قتال . قال : فقرعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين
قرعة (٢) .

(قال : وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلوا على معاوية
فقالا له :

يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله إنه أقدم منك ومن
أبيك إسلاماً ، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ ، وأحق بهذا الأمر
منك !!

فقال : اقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته ؛ فاذهباً إليه
فقولاً له فليقتلنا من قتلة عثمان ثم أتا أول من بايعه من أهل الشام .
فذهباً إلى علي ، فقالا له ذلك .

فقال : هؤلاء الذين تريان .

فخرج خلق كثير فقالوا :

نحن قتلة عثمان . فمن شاء فليرمنا .

(١) أورد ابن جرير تفاصيل المراسلات ، وقد أعرضنا عن
ذكرها للسبب نفسه . لأن مصدرها الوحيد هو أبو مخنف الشيعي
وفيها قدح بجانب معاوية رضي الله عنه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٦٠ .

فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة ، فلم يشهدا لهم حرباً (١) .

لقد كانت وجهة نظر الصحابين الجليلين سديدة ، فهما لا يشكان أن أمير المؤمنين علياً على الحق ؛ لكن وجود هذه الأعداد الكثيرة من الألوف العديدة تصر على أنها من قتلة عثمان كان كابحاً لهما عن أن يشتركا في الحرب مع أحد الفريقين .

ومضى وفد من علي إلى معاوية رضي الله عنهما ، كما جاء وفد من معاوية إلى علي ، وتدخل القراء في محاولة نهائية للإصلاح . فقد ورد من غير وجه أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له :

انت تنازع علياً أم انت مثله ؟

فقال : والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل ، وأحق بالأمر مني ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمه ، وأنا أطلب بدمه ، وأمره إلي ؟! فقولوا له فليسلم إلي قتلة عثمان ، وأنا أسلم له أمره .

(١) أورده ابن ديزيل . وقد أورد الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ ما يلي : ابن ديزيل الحافظ الرحال أبو إسحاق إبراهيم ابن الحسين الكسائي الهمداني المتوفى سنة ٢٨١ هـ . قال صالح بن أحمد محدث همدان : سمعت علي بن قيس يقول : الإسناد الذي يأتي به ابن ديزيل لو كان فيه أن لا يؤكل الخبز لوجب تركه لصحة إسناده ! ويلقب بدابة عفان وبسفينته ؛ وسفينة طائر لا يحط على شجرة .

وقد وردت هذه الرواية في البداية والنهاية لابن كثير ٢٦٠/٧ .

فأتوا علياً فكلموه في ذلك ، فلم يدفع إليهم أحداً . فعندئذ صم أهل الشام على القتال مع معاوية (١) .

لم يقتنع أي من الفريقين بوجهة نظر الآخر ، ولو كانت القضية خلافاً على الدنيا ورغبة في مطامعها ، لتقاسم الفريقان النفوذ في الدولة الإسلامية ، ومضى كل منهما في حال سبيله .

إن القضية ليست قضية حكم ، وشهوة تسلط ، وليست قضية صراع على مفاتم ومكاسب ، إن الأمر أعمق من ذلك بكثير ؛ إنها قضية عقيدة يجب أن تسود ، وأول معالم سيادة عقيدة الإسلام هو : أن لا يكون خليفتان في وقت واحد . إن منطق الإسلام الجماعي يرفض الفرقة والانفصال رفضاً باتاً .

ومن أجل هذا قدم علي رضي الله عنه البيان الأول للحرب :

(ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله عز وجل ، ودعوتكم فلم تنأوها عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى الحق ، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . .) .

أما تعليمات الحرب الإسلامية فهي :

(لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم ، فانتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتموهم فهزمتوهم : فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . فإذا وصلتكم إلى رجال القوم : فلا تهتكوا سترأ ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٢٩ . وقد أورد الخبر الذهبي في سير أعلام النبلاء ورجاله ثقات ١٤٠/٣ .

أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى ، وإن شتمن
أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهن ضعاف القوى
والأنفس !! (١) .

ومتى كان هذا الموقف ؟

كان بعد مرور ثمانية أشهر في محاولة دائبة للصلح ، لكن دون
جدوى . فلم تات الحرب اندفاعاً أو عصبية أو عاطفة ، أو جزافاً .
لقد جاءت عن بصيرة و يقين وإصرار يوم لم يكن بد من الحرب ،
أو فرقة الكلمة وتمزق الأمة .

ونحن لن نخوض في تفاصيل الحرب (٢) ، إنما يهمنا بواعثها
وأهدافها ، ولكننا سنعرض بلمحة عامة عن خطواتها :

١ - ابتدأت حروب جانبية بين فصائل الجيشين خلال شهر
ذي الحجة بكماله .

وكانت هذه الحروب بعد الاختلاف على الماء . والرواية
الصحيحة التي تحدثنا عن الخلاف على الماء هي رواية أبي الصلت
العضرمي التي يقول فيها :

حلنا بين أهل العراق وبين الماء ، فأتانا فارس ثم حسر ،
فإذا هو الأشعث بن قيس فقال :

الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ .

(١) الطبري ج ٤ ص ٦ من رواية أبي مخنف عن عبد الرحمن
ابن جندب الأزدي . وقد قبلنا هاتين الروایتين لاتساقهما مع المنهج
الإسلامي في الحرب بين المسلمين .

(٢) لأن كل تفصيلاتها من رواية أبي مخنف ، وقد رأينا رأي
علماء الرجال فيه .

هَبُوا أنكم قتلتم أهل العراق ، فمن للبعوث والذراري ؟!

أم هَبُوا أنا قتلناكم فمن للبعوث والذراري ؟

إن الله تعالى يقول :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » .

قال معاوية : فماذا تريد ؟

قال : خلوا بيننا وبين الماء .

فقال لأبي الأعور : خلّ بين إخواننا وبين الماء (١) .

٢ - عادت الهدنة ثانية والمراسلات خلال شهر المحرم من العام الجديد .

٣ - احتدمت الحرب بعنف يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ واستمرت في هولها حتى يوم الثلاثاء دون أن يظهر أحد من الفريقين على الآخر فقد كانا متكافئين .

٤ - كان يوم الأربعاء الثامن من صفر على أشد هول ، وذلك بعد تعبئة كاملة من الجيشين حيث كان الاصطدام كاملاً ، وتم فيه إحراز النصر من أهل العراق على أهل الشام .

٥ - واستمر القتال على عنفه وشدته ؛ حيث استطاع أهل الشام أن يشنوا هجوماً معاكساً ويكشفوا ميمنة جيش علي رضي

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٢٧ وسند هذه الرواية أبو المفيرة الخولاني وهو ثقة وصفوان بن عمرو وهو ثقة .

الله عنه حتى إنه لم يبق مع أمير المؤمنين فيها غير ثلاثمائة وكذا قبيلة ربيعة التي ثبتت معه رضي الله عنه ، وفي هذه المرحلة من الحرب كان مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه .

٦ - واستمر القتال عنيفاً شرساً حتى يوم الجمعة حيث استعاد جيش أمير المؤمنين قوته ، وتغانى في جهاده ، وصار قاب قوسين أو أدنى من النصر !!

٧ - لم يكن الفرار ممكناً من أي من الطرفين ؛ لأن كل طرف واثق بحقه ، واستمرار القتال يعني فناء المسلمين جميعاً . وهنا نبتت فكرة رفع المصاحف وتحكيم الكتاب من القراء (١) .

أما قصة التحكيم فيحدثنا عنها الإمام أحمد رضي الله عنه فيما رواه عن حبيب بن أبي ثابت قال :

أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان فيما استجابوا له ، وفيهم فارقوه ، وفيما استحل قتالهم ؟ فقال :

كنا بصفين فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :

أرسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك . فجاء به رجل فقال : بيننا وبينكم كتاب الله .

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) .

(١) اخذ هذا التلخيص بدقة عن البداية والنهاية لابن كثير ٧ ص ٢٦٠ - ٢٧٥ وعن الطبري ج ٤ ص ٦ - ٣٤ .

فقال علي : نعم انا اولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله (١) . .

واما الرواية التي تشير إلى أن عمرو بن العاص قد دعا إلى
المصاحف خدعة يخدع بها المؤمنين ، وأن علياً حذرهم من ذلك ؛
فهي رواية مكذوبة (٢) .



(١) روى الإمام أحمد هذا الحديث عن يعلى بن عبيد ، عن
عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن ابي ثابت .

وقد ورد في ترجمتهم في تقريب التهذيب ما يلي :
يعلى بن عبيد : ثقة إلا في حديثه عن الثوري ففيه لين .
عبد العزيز بن سياه : صدوق يتشيع .

حبيب بن ابي ثابت : ثقة فقيه جليل كثير الإرسال والتدليس .
وإذا نحن وصلنا في رواية تاريخية إلى هذا النوع من الروايات
فقد حصلنا على كنز عظيم . فرواة التاريخ غير رواة الحديث .
ونتمنى أن تكون رواياتنا كلها على هذا المستوى .

(٢) رواة الرواية المذكورة هم : أبو مخنف ، عن ابي جناب
الكلبي ، عن عمارة بن ربيعة الجرمي . قال عنهم الذهبي في الضعفاء :
أبو مخنف لوط بن يحيى : ساقط ، تركه أبو حاتم ، وقال
الدارقطني : ضعيف .

أبو جناب الكلبي : قال أبو زرعة : صدوق مدلس ، وقال
النسائي : ضعيف . وقال يحيى بن سعيد القطان : لا استحله أن
أروي عنه . وعمارة بن ربيعة الجرمي مجهول .

رَسُولُ اللَّهِ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَعْرَكَةِ

لئن فقدنا رواية أمينا نقل لنا تفاصيل الحرب كاملة واتجاهاتها، فإن رسول الله ﷺ أمين الله في خلقه يحدثنا عنها فيغنيننا عن رواية الخلق أجمعين .

ولقد تناول الحديث النبوي الحرب من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : ذكرها وتحديد زمانها .

وذلك فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة) (١) .

فلقد حدد رسول الله ﷺ القتال بهذه الأعداد الهائلة التي تجاوز بها المؤرخون مئتي ألف من الشام والعراق .

أما المقتلة العظيمة فهي شيء رهيب حقاً .

فقد روى البيهقي عن صفوان بن عمرو قوله :

(١) متفق عليه .

(كان أهل الشام ستين ألفاً ، فقتل منهم عشرون ألفاً . وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً فقتل منهم أربعون ألفاً) .

فأي مقتلة بين فئتين عظيمتين دعواهما واحدة تفوق هذا العدد؟! ويكفينا رسول الله ﷺ حكماً على المعركة أنه قال عن الطرفين : دعواهما واحدة .

فهم أصحاب عقيدة واحدة ودين واحد ، فدعواهما واحدة . وقد حمل الإمام البيهقي هذه الواقعة على الحديث السابق كما ذكر ابن كثير في تاريخه (١) .

فأي محاولة مأكرة لإدخال الهوى في هذه المعركة ، أو محاولة اتهام أحد الطرفين بقصد الباطل وشهوة التسلط والحكم ؛ هو اتهام باطل ، لأن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن دعوى الفريقين واحدة .

وحدد رسول الله ﷺ ثانياً : الفريق الذي أصاب الحق .

وذلك فيما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة ؛ تمرق بينهما مارقة يقتلها أولاها بالحق) . وإسناده حسن .

وفي رواية أخرى عن الثوري عن ابن جدهان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٧٥ .

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة .
 فبينما هم كذلك مرق منهما مارقة تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) (١) .
 وأهمية هذا الحديث هو أنه يؤكد بأن المقصود في هاتين
 الفئتين العظيمتين هما جيش علي وجيش معاوية رضي الله عنهما ،
 لأنه جمع بين قتال الفئتين وبين خروج الخوارج - الفئة المارقة -
 والتي يقاتلها أولى الطائفتين بالحق . وقد قاتل علي رضي الله عنه
 الخوارج ، هذه الفئة المارقة التي خرجت عليه وعلى معاوية . فهو
 الأولى بالحق .

هذا وهناك رواية منفصلة عن الفئة المارقة دون أن تربطها
 بالمقتلة العظيمة عند عدد من أئمة الحديث هي :

(تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين
 بالحق) .

ورواية أبي داود الطيالسي في مسنده : تكون فرقة بين طائفتين
 من أمتي ، تمرق بينهما مارقة تقتلها أولى الطائفتين بالحق .

أما رواية الإمام مسلم رضي الله عنه فهي :

(تكون في أمتي فرقتان ، فتخرج من بينهما مارقة تقتلها أولى
 الطائفتين بالحق) .

(١) رواية هذا الحديث كما قال عنهم الإمام ابن حجر في تقريب
 التهذيب :

سفيان الثوري : ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة ربما دلس .
 علي بن زيد بن جدعان : ضعيف . أبو نضرة المنذر بن مالك بن
 قطعة : ثقة .

إن الفرقتين متنازعتان على الحق ، لكن علياً رضي الله عنه هو الذي أصابه ، ومعاوية هو الذي أخطأه ؛ وكلاهما يقصد الحق ويهدف له .

ولعل الفئة المارقة كثير منها من قتلة عثمان ، فشاء الله تعالى أن يكون قتلهم على يد أمير المؤمنين علي . بعد أن كان لا يملكهم وهم يملكونه .

والشهادة الثالثة لرسول الله ﷺ في هذا الصدد هو ما ورد عن عمار رضي الله عنه في الأحاديث الصحيحة التي لا يرتقي الشك إليها : (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) (١) .

فهذا حديث أوضح وأصرح في أن معاوية رضي الله عنه وصحبه في الشام قد بغوا على أمير المؤمنين علي . ولقد كان لمقتل عمار رضي الله عنه ضجة كبرى في الجيشين ، غير أنا لا بد أن نعرض لنقطتين اثنتين في هذا الموضوع هما :

النقطة الأولى : نفسية عمار رضي الله عنه وهو يقاتل .

النقطة الثانية : شعور المسلمين في جيش معاوية بعد مقتل عمار بن ياسر .

أما عمار رضي الله عنه ، فقد حدثنا بشأنه قيس بن عباد فقال :

قلت لعمار بن ياسر :

أرايتم قتالكم مع علي رايأ رأيتموه ، فإن الراي يخطيء ويصيب ؟ .

أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟

(١) روى الحديث البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والطيالسي بروايات مختلفة .

فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده للناس كافة .
وقد رواه مسلم من حديث شعبة وله تمام عن عمار عن
حذيفة في المنافقين .

فعمار رضي الله عنه يؤكد أنه لا يملك عهداً من رسول الله ﷺ
أن يكون مع علي رضوان الله عليه ، ولكنه اجتهد فرأى الحق مع
علي ، وكان واثقاً تمام الثقة من موقفه حتى إنه ليقول :

والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ
ثلاث مرات وهذه الرابعة . والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا
بنا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق ، وأنهم على
الضلالة (١) .

ولم يكن حديث مقتل عمار رضي الله عنه مجهولاً بين المسلمين
الأوائل الذين شهدوا فجر الرسالة وأحداثها الأولى ، بل وحتى
المتأخرين منهم . ولكن معاوية رضي الله عنه عاش مع الدعوة نزراً
يسيراً بعد الفتح ، ومضى يجاهد في سبيل الله ؛ فليس غريباً ألا
يشهد ولا يسمع هذا الحديث إلا في الحرب .
وقُتِلَ عمار بن ياسر رضي الله عنه .

فماذا كان صدى مقتله في جيش المسلمين بالشام ؟

لقد كان عمرو بن العاص يعلم هذا الحديث ، وكان لا يدري
من الذي سيقتل عماراً ، إنه وإن كان في جيش علي ، فقد ينقض

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني . قال الهيثمي : ورجال أحمد
رجال الصحيح . ورواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على
شرط الشيخين ولم يخرجاه .

عليه رجل من جيش علي ويقتله ، تماماً كما حصل للزبير بن العوام رضي الله عنه ، فلم يقتله رجل من جيش علي ، بل قتله رجل من اهل الجمل !!

فما إن بلغ عمرأ رضي الله عنه مقتل عمار وهو في جيش علي حتى قطع ظنّه اليقين .

ولعل اقتراحه رفع المصاحف والرغبة في الصلح ناتج عن هذا الموقف النفسي ومحاولة للتكفير عن هذه الخطيئة .

وبين أيدينا رواية لابن جرير نجت من بين يدي أبي مخنف التالف ، فلم تصله ولم يشترك في روايتها ، وهي تعطينا صورة حية عن أثر مقتل عمار في جيش المسلمين بالشام وسنسوقها كاملة . وذلك فيما نقله ابن جرير عن الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال (١) :

كنا مع علي بصفين ، فكنا قد وكلنا بفروسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل ، فكان إذا حانت منهما غفلة يحمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه . وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه فألقاه إليهم وقال : لولا أنه انثنى ما رجعت .

قال الأعمش : هذا والله ضرب غير مرتاب !

فقال أبو عبد الرحمن : سمع القوم شيئاً فأدّوه وما كانوا بكذابين .

(١) رواية الخبر هم : أحمد بن محمد : صدوق كان فيه غفلة . الوليد بن صالح النخاس : ثقة . عطاء بن مسلم : يخطيء كثيراً . الأعمش : ثقة حافظ ورع لكنه يدلس . أبو عبد الرحمن السلمي : ثقة ثبت . فنحن مع رواية موثوقين لكن قد يخطيء بعضهم في النقل .

قال : ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً إلا تبعه من كان هناك من أصحاب محمد ﷺ (١) ، ورأيته جاء إلى المرقال : هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي ، فقال :

يا هاشم أعوراً وجبناً ، لا خير في أعور يخشى البأس .

فإذا رجل بين الصفتين قال : هذا والله ليخلفن إمامه ، وليخذلن جنده ، وليصبرن جهده ، اركب يا هاشم ، فركب .

ومضى هاشم يقول :

أعور يبقي أهله محلاً قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفلّ أو يفلا

وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسل وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه !!

فلم يرجعا وقتلا .

قال : يفيد لك عليهما من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانا علماً .

فلما كان الليل قلت : لأدخلن إليهم حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا - وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم - فركبت فرسي وقد هدأت الرجل ، ثم دخلت فإذا أنا بأربعة يتسايرون : معاوية ، وأبو الأعور السلمي ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمرو - هو خير الأربعة - .

(١) لأنهم يعلمون من حديث رسول الله ﷺ أنه إذا اختلف الناس فابن سمية مع الحق .

فادخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول أحد الشقين .
فقال عبد الله لابيه : يا ابت قتلتهم هذا الرجل في يومكم هذا
وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال !؟

قال : وما قال ؟

قال : ألم تكن (١) معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون
حجراً حجراً ولبنة لبنة ، وعمار ينقل حجرين حجرتين ولبنتين
لبنتين ؛ ففُشّي عليه ، فأثاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب
عن وجهه ويقول : « ويحك يا ابن سمية ، الناس ينقلون حجراً
حجراً ، ولبنة لبنة ؛ وانت تنقل حجرين حجرتين ولبنتين لبنتين
رغبة منه في الأجر ! وانت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » !!
فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال :

يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله ؟!

قال : وما يقول ؟ فأخبره الخبر .

فقال معاوية : إنك شيخ أخرج ولا تزال تحدث بالحديث
وانت تدحض في بولك ، أو نحن قتلنا عماراً ؟ إنما قتل عماراً من
جاء به !!

(١) لاشك أن كلمة — تكن — غير صحيحة لأن عمرو بن العاص
رضي الله عنه أسلم بعد صلح الحديبية . فهو بالتأكيد لم يكن مع
المسلمين يوم بناء المسجد النبوي عقب الهجرة مباشرة ، وقد
صححها ابن كثير بقوله : ألم يكن ؛ ليستقيم المعنى . وقد ظهر
الخطأ في هذه الكلمة من خلال رواتنا الذين فيهم عطاء بن مسلم
الذي يخطيء كثيراً .

فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون :
إنما قتل عماراً من جاء به .

فلا أدري من كان أعجب هو أو هم (١) !!

وثقة معاوية رضي الله عنه أنه على الحق لا تقبل النقاش عنده
ولا غرابة أن يفهم النص أو يؤوله بهذه الصورة ، فلا يمكن لمعاوية
أن يتصور أن قتلة عثمان على الحق .

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩ .

وقد وردت هذه الرواية عن عبد الله بن الحارث قال :
إني لأسير مع معاوية رضي الله عنه منصرفه من صفين بينه
وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : فقال عبد الله بن عمرو بن
العاص رضي الله عنهما : يا ابت ما سمعت رسول الله ﷺ يقول
لعمار : ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية ، قال : فقال عمرو
لمعاوية : ألا تسمع ما يقول هذا ؟ فقال معاوية : لا تزال تأتينا بهنة
انحن قتلناه ، إنما قتله الذين جاؤوا به !!

رواه الامام أحمد بإسناد صحيح

وقد رواه الامام أحمد أيضاً من حديث حنظلة بن خويلد العنزي
قال : بينما أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار
يقول كل واحد منهما أنا قتلته . فقال عبد الله بن عمرو رضي الله
عنهما : ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه فإني سمعت رسول الله ﷺ
يقول : (تقتلك الفئة الباغية) . قال معاوية : فما بالك معنا . قال :
إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال : (أطع أباك ما دام حياً ولا
تعصه) ؛ فأننا معكم ولست أقاتل .

ورواه ابن أبي شعبة وابن عساكر في تاريخه بنحوه .
ورواه النسائي في كتاب خصائص علي بإسناد حسن وليس فيه قول
معاوية لعبد الله وجواب عبد الله له .

وصورة عمار في ذهنه مشوهة ايما تشويه : فعمار إن لم يقتل عثمان فقد كان من المؤلبيين والمحرضين عليه ، ولا يمكن أن يتطرق إلى ذهنه ادنى شك في أن الفئة الباغية هي التي قتلت عثمان ، وجميعها في جيش علي .

حتى ولا غرابة في تجاوب الناس مع أميرهم معاوية .

فمقتل عثمان ، والصورة البشعة التي تم بها القتل كانت كافية لتصرف البغي عنده نحو جيش علي ، ففي ذلك الجيش من بغي على الخليفة ، بل وقتله .

ونحن نقول : إن التأويل بعيد عن مجموع النصوص التي وردت في هذا الموضوع ، وإن عماراً رضي الله عنه خرج قانعاً مختاراً بصحة هذه الحرب كما قال :

(والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سغفات هجر لعرفت أن مصلحيننا (١) على الحق ، وانهم على الضلالة) .

فأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أولى بالحق من معاوية ، وهو أدري الناس بملاسات خلافته والطريقة التي تمت بها بيعته ؛ ولكننا نقول لمن يرسل لسانه في حق معاوية رضي الله عنه - إن كان من اهل الصدق والتقى والصلاح - ما قاله أبو بكر رضي الله عنه لعمر يوم تكلم في حق خالدٍ وطالب بعزله :

(١) لقد كان عمار رضي الله عنه عميق الغور حين استعمل هذه العبارة : لعرفت أن مصلحيننا على الحق ؛ فهو يؤكد أن المصلحين في الجيش على الحق ، وليس كل افراد الجيش . إذ فيهم الانتهازيون ، وقتلة عثمان ، ومن هذا الجيش نفسه كانت الخوارج .

(تأول فأخطأ . كف لسانك عن خالد ، لا أشيم سيفاً سله الله
على المشركين) .

وأما إن كان من أهل الهوى والضلالة ، فحسيبه الله
رب العالمين .

إن جلّ الصحابة (١) والتابعين قد فهموا من قول رسول الله

(١) حتى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة ، وعلى رأسهم سعد
ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ،
ندموا أن لا يكونوا قد شاركوا في الحرب مع علي رضي الله عنه ، فعن
محمد بن إبراهيم التيمي أن فلاناً دخل المدينة حاجاً فأتاه الناس
يسلمون عليه فدخل سعد رضي الله عنه فسلم فقال : وهذا لم يُعنا
على حقنا على باطل غيرنا ، قال : فسكت عنه . فقال : مالك لا تتكلم ؟
فقال : هاجت فتنة وظلمة ، فقلت لبعيري : أخ أخ ، فأنخت حتى
انجلت . فقال رجل : إني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره ؛
فلم أرَ فيه أخ أخ !! فقال : (أي سعد) : أما إذا قلت ذاك فإني
سمعت رسول الله ﷺ يقول : (علي مع الحق ، أو الحق مع علي
حيث كان) . قال (أي الرجل) : من سمع ذلك ؟ قال : قاله في
بيت أم سلمة قال : فأرسل إلى أم سلمة ، فقالت : قد قاله رسول
الله ﷺ في بيتي . فقال الرجل لسعد : (ما كنت عندي قط اليوم
منك الآن ؛ فقال : ولم ؟ قال : لو سمعت هذا من النبي ﷺ لم أزل
خادماً لعلي حتى أموت) .

رواه البزار . قال الهيثمي : وفيه سعد بن شبيب ولم أعرفه
وبقية رجاله رجال الصحيح . (وقد ورد في رواية أخرى أن الذي
قال هذا الكلام هو معاوية بن أبي سفيان) . كما روي عن عبد الله

←

عليه السلام : (تقتلك الفئة الباغية) (١) ان المقصود جيش معاوية رضي الله عنه ، مع أنهم معذورون في اجتهادهم فهم يقصدون الحق ويريدونه لكنهم لم يصيبوه . وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولا بد من الإشارة إلى أن عمرو بن العاص لم يكن اجتجاهه مثل اجتهاد معاوية (٢) ، وكان يأمل أن ينضم عمار إلى جيش معاوية

→

ابن عمر قوله : (لم أجدني آسى على شيء إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي) . رواه الطبراني بأسانيد قال الهيثمي : واحدا رجاله رجال الصحيح .

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : روى حديث تقتل عماراً الفئة الباغية جماعة من الصحابة منهم : قتادة بن النعمان وأم سلمة عند مسلم ، وأبو هريرة عند الترمذي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب ، وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه . وكلها عند الطبراني وغيره ، وغالب طرقها صحيحة أو حسنة ، وفيه عن جماعة آخرين يطول عددهم . وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار ، ورد على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم قال : لما قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال : قتل عمار ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تقتله الفئة الباغية) . فقال عمرو بن العاص : يرجع - يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون - حتى دخل على معاوية فقال معاوية : مه ؟!

←

قبل وفاته أو قتله على الأقل . فلما قتل عمار رضي الله عنه ، مضى إلى إنهاء الحرب باقتراح رفع المصاحف لحقن دماء المسلمين .



→

فقال : قتل عمار .

فقال معاوية : قد قتل عمار فماذا ؟

قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية !!

فقال له معاوية : دحضت في بولك انحن قتلناه ؟ إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى القوه بين رماحنا - أو قال بين سيوفنا .

رواه الإمام أحمد ، والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه .

وهذا يعني أن ثقة عمرو بعد قتل عمار رضي الله عنه بحقه كانت أضعف من ثقته بأنه على الحق قبلها ، وإن كان لم يعترض على اجتهد معاوية رضي الله عنهما وأجرهما على اجتهداهما وإن كان خاطئاً .

قصة التحكيم

روايات التحكيم عديدة ، وليس بين أيدينا رواية واحدة نطمئن إليها لكون كل رواتها ثقات ، وسندع روايات أبي مخنف جانباً ؛ فهي تحمل في ثناياها أقبح الصور عن الخلاف والتحكيم ، ومما يؤلم أن هذه الصور هي الثابتة في أذهان الناس :

١ - فالمعروف لدى عامة الناس أن عمرو بن العاص غدر بأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ، وقدمه للكلام بعد أن اتفقا على خلع معاوية وعلي رضي الله عنهما ، وخلع أبو موسى معاوية وعلياً ، بينما تقدم عمرو بعده فخلع علياً ، واثبت معاوية .

٢ - ومن هذه الصور كذلك أن علياً رضي الله عنه كان إذا قنت لعن معاوية وعمراً وغيرهما من أهل الشام ، فبلغ ذلك معاوية فصار إذا قنت يلعن علياً وابن عباس والأشتر وحسناً وحسيناً !!

ويسقط الخبر الأول لتهافت روايته وضعفهم (١) .

ويسقط الخبر الثاني لتهافت روايته وضعفهم أيضاً (٢) .

٣ - ومن هذه الصور كذلك تشبيه أبي موسى لعمرó بالكلب وتشبيه عمرو لأبي موسى بالحمار . وفي الرواية كذلك أن أبا موسى سمى عمراً ، الفاسق (٢) .

(١ و ٢ و ٣) رواية هذا الخبر كما أوردهم الطبري : (قال أبو مخنف حدثني أبو جناب الكلبي أن عمراً وأبا موسى . . .) .

←

وأصح الروايات التي وردت عن التحكيم وندعها تنطق دون أن
نتدخل فيها:

(... .) وكان يعد في العرب حتى ثارت الفتنة الأولى خمسة، يقال
لهم ذووا رأي العرب ومكيدتهم: يعدُّ من قريش معاوية، وعمرو، ويُعدُّ
من الأنصار قيس بن سعد، ويعدُّ من المهاجرين عبد الله بن بديل بن
ورقاء الخزاعي، ويعدُّ من ثقيف المغيرة بن شعبة، فكان مع علي منهم
رجلان: قيس بن سعد، وعبد الله بن بديل، وكان المغيرة معتزلاً
بالطائف وأرضها.

فلما حُكِّم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة،
وأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله بن الزبير، ووافى
رجال كثير، من قريش، ووافى معاوية بأهل الشام، ووافى أبو موسى
الأشعري، وعمرو بن العاص وهما الحكمان، وأبى عليٌّ وأهل العراق أن
يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي رأي أهل قريش، هل

→

وأبو مخنف لم يوثقه أحد من علماء الرجال . أما أبو جناب
الكلبي ، فكما أورد ابن حجر رحمه الله في تقريب التهذيب (ضَعُفَ
لكثرة تدليسه) ويظهر تدليسه هنا أنه لم يذكر من روى عنه الخبر
إطلاقاً؛ ففي الرواية راوٍ ساقط . كما ذكرت الروايات أن أهل الشام
سلموا على معاوية بالخلافة بعد خطبة الحكمين . وهذا لا يصح كذلك .
وهكذا يشوه التاريخ الإسلامي برواية ساقطة كاذبة .

ترون أحداً يقدر على أن يستطيع أن يعلم: أيجتمع هذا الحكمان، أم لا؟ فقالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إني لأظنني سأعلمه منهما حين أدخلوا بهما فأراجعهما، فدخل على عمرو بن العاص، فبدأ به، فقال: يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة، فإننا قد شككنا في هذا الأمر الذي قد تبين لكم في هذا القتال، رأينا نستأني وننتبث حتى تجتمع الأمة على رجل. فدخل في صالح ما دخلت فيه الأمة؟ فقال عمرو:

أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، ومع الفجار. فانصرف المغيرة، ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبي موسى الأشعري. فخلا به، فقال له نحواً مما قال لعمرو، فقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، وأرى فيكم بقية المسلمين فانصرف فلم يسأله عن غير ذلك. قال: فلفقي أصحابه الذين قال لهم ما قال من ذوي رأي قريش. قال:

أقسم لكم، لا يجتمع هذان على رأي واحد. وليدعونا كل واحد منها إلى رأيه، فلما اجتمع الحكمان، وتكلما خاليتين. فقال عمرو:

يا أبا موسى، أرايت أول ما نقضي به في الحق، علينا أن نقضي لأهل الوفاء بالوفاء ولأهل الغدر بالغدر، فقال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألسنت تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وافوا للموعد الذي وعدناهم إياه؟ فقال: نعم، فقال: فاكتبها، فكتبها أبو موسى.

فقال عمرو: قد أخلصت أنا وأنت على أن نسَمِّي رجلاً يلي أمر هذه الأمة فسَمِّ يا أبا موسى ، فأنا أقدر على أن أبايعك على أن تبايعني ، فقال أبو موسى : أُسَمِّي عبد الله بن عمر بن الخطاب . وكان عبد الله بن عمر فيمن اعتزل . فقال عمرو: فأنا أُسَمِّي لك معاوية بن أبي سفيان ، فلم يبرح من مجلسهما حتى اختلفا واستبَّا ثم خرجا إلى الناس ، ثم قال أبو موسى :

يا أيها الناس ، إني قد وجت مثل عمرو بن العاص مثل الذي قال الله تبارك وتعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه فانسلك منها ﴾ ، حتى بلغ ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ .

وقال عمرو بن العاص : يا أيها الناس ، إني وجدت مثل أبي موسى مثل الذي قال الله تبارك وتعالى ﴿ مثل الذي حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ ، حتى بلغ ﴿ والظالمين ﴾ .

ثم كتب كل واحد منهما بالمثل الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار^(١).

قال الزهري عن سالم عن ابن عمر قال وأخبرني ابن طاووس عن

(١) المغازي النبوية للزهري تحقيق (سهيل دكار) ص ١٥٨ - ١٦٠ . والرواية هي (عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال . . .) وهؤلاء الرواة هم رجال الصحيحين البخاري ومسلم .

عكرمة عن خالدٍ عن ابن عمر قال: (دخلت على حفصة ونوساتها^(١)) تنطف^(٢). قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين. فلم يُجعل لي من الأمر شيء. فقالت: إالحق. فإنهم ينتظرونك. وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب. فلما تفرّق الناس خطب معاوية قال:

مَنْ كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه. فلنحن أحقّ منه ومن أبيه. قال حبيب بن مسلمة: فهلّا أجبتّه؟! قال عبد الله: (فحللت جبوتي وهممت أن أقول: أحقّ بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام. فخشيت أن أقول كلمة تفرّق بين الجمع، وتسفك الدم، وتحمل عني غير ذلك. فذكرت ما أعدّ الله في الجنان).

قال حبيب: حُفِظَتْ وَعُصِمَتْ^(٤).

والذي نجده نشاراً في هذه الرواية لا يتسق مع المستوى الإسلامي المطلوب، وقد يزل قليلاً عن المنهج الإسلامي هو قوله:

(١) نوساتها: ذوائب شعرها.

(٢) تنطف: تسيل من الماء.

(٣) البخاري/ك المغازي والسير ٦٤/ب غزوة

الخنندق/جـه/ ص ١٤٠.

— فلم يبرحاً مجلسهما حتى استبا .

— والمثل الذي ضربه كل واحد منهما لصاحبه .

ولا نعرف في الحقيقة علام اختلفا حتى استبا ، خاصة وقد بدأت المباحثات بروح مرنة ونفسية رضية حريصة على الصلح وإصلاح ذات البين . وفي الرواية فجوة هي الحديث الذي تناقشا فيه حتى وصلا إلى السباب ، وظني أن السباب الذي حصل بينهما هو هذا المثل المضروب من كتاب الله .

وقد تبرز الطبيعة البشرية في لحظة حنق زائد وغضب جارف . فيتصور أبو موسى أن يكون عمرو قد نكث بعهده ، وتخلّى عن مسؤولياته حين أصر على نوعيات معينة لتحكم الأمة . ويتصور عمرو أن أبا موسى لم يدرك مدى مسؤولية حمله للقرآن والاحتكام إليه . فاختار عبد الله بن عمر وهو من جماعته الذين اعتزلوا الفتنة ولم ينصروا الحق .

إن الجو المشحون بالتوتر قاد إلى هذه الآراء التي صدرت عن كل صحابي في صاحبه ، ويحسن أن يكون واضحاً في ذهننا أن ما وراء النص يوحى بالقصد المباشر منه .

فعمر و رضي الله عنه يرى في أبي موسى القارئ المتقن لكتاب الله لا يعمل بما فيه ، وأبو موسى رضي الله عنه يرى في عمرو أنه تخلّى عن مسؤوليته الإسلامية ، ولم يستجب لداعي الجماعة .

وكل ما يمكن الاطمئنان إليه فقط من مجموع الروايات : هو

أن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري حاولا أن يصلا إلى شخصية يجتمعان عليها لكن هذا لم يحصل .

وقد لخص ابن كثير في البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال :

(فلما اجتمع الحكماء تراوضا على المصلحة للمسلمين ، ونظرا في تقدير أمور ، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية ثم يجعل الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما . وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب . فقال له عمرو : فولّ ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد .

فقال أبو موسى : إنك قد غمست ابنك في الفتن معك ، وهو مع ذلك رجل صدق (١) .

هذه هي الصورة التي قدمها ابن كثير عن التحكيم ، ولكنه عاد بعد ذلك فساق بعض روايات الطبري التي اطمأن إلى طبيعتها لا إلى سندها ، وعندما انتهى إلى آخرها قال :

(ويقال إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ، ورد عليه عمرو بن العاص مثله) .

ونذكر هنا رواية أوردها الحافظ الدارقطني بسنده عن الحُضَيْن بن المنذر قال :

(لما عزل عمرو معاوية جاء (أي حُضَيْن بن المنذر) ف ضرب

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٨٣ .

فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية ، فبلغ نبأه معاوية ، فأرسل إليه فقال :

إنه بلغني عن هذا (أي عمرو) كذا وكذا ، فاذهب فانظر ماهذا الذي بلغني عنه . فأتيته فقلت :

أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ ؟ .

قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولكن قلت لأبي موسى : ماترى في هذا الأمر ؟

قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟

قال : إن يستعن بكما ففيكما معونة . وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما .

قال : فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه . فأتيته فأخبرته أن الذي بلغه كان كما بلغه (١) .

ونخلص من هذه الروايات التي هي أقرب ما تكون إلى الصحة والتي اتفقت على قدر معين من الحوادث إلى ما يلي :

١ - أن الحكمين التقيا بدومة الجندل في الموعد المحدد .

٢ - كانت محاولات أبي موسى رضي الله عنه في إقناع عمرو بولاية عبد الله بن عمر بن الخطاب فأبى عليه ذلك .

٣ - كانت محاولات عمرو بن العاص رضي الله عنه في إقناع

(١) العواصم من القواصم ص ١٢٩ .

أبي موسى رضي الله عنه بولاية معاوية فأبى عليه ذلك ، ثم بولاية عبد الله بن عمرو بن العاص فأبى عليه ذلك .

هذه هي النقاط الثابتة في موضوع التحكيم . والذي ميّع الأمر هو عدم اتفاقهما على والٍ معين يجمعان عليه ، فكانت النتائج سلبية ، وبقيت الأمور على ما هي عليه بدون اتفاق .

وما عدا ذلك فروايات ضعيفة أو مكذوبة يتعرض الوهن لها من حيث المتن ومن حيث السند ، لاتقوم عليها الحقائق ، ولا تبني عليها المفاهيم .

يقول المؤرخ المحدث خليفة بن خياط في تاريخه :

وفيهما (أي سنة سبع وثلاثين) اجتمع الحكمان أبو موسى الأشعري من قبل علي ، وعمرو بن العاص من قبل معاوية بدومة الجندل في شهر رمضان ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب . فبعث علي ابن عباس ولم يحضر وحضر معاوية فلم يتفق الحكمان على شيء ، واقترب الناس .

وبائع أهل الشام لمعاوية بالخلافة في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين . واقتضى هذا الأمر موقفاً جديداً من معاوية رضي الله عنه ؛ أن يبدأ بمحاولات اخذ البيعة من بقية المناطق له بالخلافة بعد أن بايعه أهل الشام .

عَکَام ثَمَانِيَّة وَثَلَاثِينَ

جاء في تاريخ الطبري :

(... لما حَدَّثَ قيس بن سعد (١) بمجيء محمد بن أبي بكر ،
وانه قادم عليه أميراً ، تلقاه وخلا به وناجاه فقال :

إنك جئت من عند امرئٍ لا رأي له ، وليس عزلکم إياي بمانعي
أن أنصح لکم . وأنا من امرکم هذا على بصيرة .

وإني في ذلك على الذي كنت أكيد به معاوية وعمرأ واهل
(خَرَبَتَا) (٢) فكأيدهم به فإنك إن تكأيدهم بغيره تهلك) .

ووصف قيس بن سعد لمحمد بن أبي بكر المكأيدة التي كان
يكأيدهم بها ، واغتشه محمد بن أبي بكر (اعتبره غاشأ له) وخالف

(١) قيس بن سعد بن عبادة من كبار الأنصار وساداتهم .
أعطاه رسول الله ﷺ اللواء يوم فتح مكة بعد أن نزعه من أبيه ،
وهو الذي رآب صدع المسلمين وباع أبا بكر بالخلافة حين امتنع
سعد بن عبادة رضي الله عنه عن ذلك . وكان من كبار مستشاري
علي بن أبي طالب ، وكبار قادته ، وولاه قيادة مصر ، ثم دخل
الوشاة بينهما فعزله عن مصر وولى محمد بن أبي بكر مكانه ، فما
غير ذلك قيساً . وعاد فوضع طاقاته تحت تصرف أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب حتى استشهد .

(٢) خربتَا : موطن في مصر بقي أهله موالين لعثمان رضي الله
عنه بعد مقتله ، ولم يدخلوا في طاعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

كل شيء أمره به ، فلما قدم محمد بن أبي بكر ، فبلغ ذلك معاوية وعمرأ ، فسار بأهل الشام حتى افتتحا مصر ، وقتلا محمد بن أبي بكر ، لم تزل في حيز معاوية حتى ظهر .

وقدم قيس بن سعد المدينة ، فأخافه مروان بن الحكم والأسود ابن البختري ، حتى إذا خاف أن يؤخذ ويقتل ركب راحلته وظهر إلى علي .

فكتب معاوية إلى مروان والأسود يتغيب عليهما ويقول :
امدتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكايده ، فوالله لو أنكما امددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي !!

فلما بائه الحديث وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف أن قيس بن سعد كان يوازي أموراً عظماً من المكايده ، وأن من كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم ينصح له (١) .

ولعل أصح رواية (٢) في مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما ؛ ما رواه عمرو بن دينار قال : أتني عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر أسيراً فقال : هل معك عهد ؟ هل معك عقد من أحد ؟ قال : لا ؛ فأمر به فقتل !!

(١) الطبري ج ٥ ص ٧٠ عن عبد الله عن يونس عن الزهري .
وقد أوردها الزهري في مغازيه برواية عبد الرزاق عن معمر عنه وكلهم من رجال الصحيحين .

(٢) رواية الحديث هم : غندر عن شعبة عن عمرو بن دينار ؛ وكل هؤلاء الرواة ثقات ، وهم رجال الصحيح عند البخاري ومسلم .

بينما تأتينا رواية أخرى تسرد جميع التفاصيل الثابتة في اذهان الناس عن مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، وإحراقه في جوف حمار ، وكلام قبيح من علي رضي الله عنه بحق معاوية وعمرو ، ودس السم للأشتر النخعي عن طريق معاوية . كل هذه الترهات والأباطيل وجدت في رواية هذا سندها :

(وأما ما قال - في ابتداء أمر محمد بن أبي بكر في مصيره إلى مصر وولايته إياها - أبو مخنف فقد تقدم ذكرنا له ، ونذكر الآن بقية خبره في روايته ما روى من ذلك عن يزيد بن ظبيان الهمداني ، قال (. . . .) .

فالراويان هما : أبو مخنف ، ويزيد بن ظبيان .

وأبو مخنف : ضعيف تالف .

ويزيد بن ظبيان : لا اسم له في الرواة .

فكيف نأخذ أحداثاً ونبني عليها أحكامنا من مطعون بصدقه ، ومجهول بحقيقته ومنكر بمعرفته !!؟

والرواية التي اعتمدناها متسقة مع المنهج الإسلامي ، ترفع من مقام قيس بن سعد رضي الله عنه . ولا تزري بحق أحد من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم جميعاً .

ولكن هذا الحادث يشير إلى انطلاقة جديدة في الحوادث بعد أن انتهى أمر التحكيم إلى نتائج سلبية ، وتمكن معاوية بن أبي سفيان أن يضم مصر إلى جانبه ، وهذا يعني أن الكفة بدأت تميل إلى جانبه وتعطي مؤشراً جديداً في طبيعة التحرك للجانبين .

وقد فتحت جبهة جديدة على أمير المؤمنين من الخوارج الذين انشقوا عنه ومرقوا من جيشه ، وكان على ثقة تامة من حربهم

وكونهم على الباطل رغم كل ادعائهم بالحق وصراعهم الظاهر من أجل الحق (١) .

واستفاد معاوية من هذه الظروف ، ورأى أنه لا بد من حزم للأمور تنهي هذه الفرقة بين المسلمين ، فأقدم على مغامرات لتفتيت

(١) روى البخاري قال: حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من بني تميم - فقال : يا رسول الله اعدل ، فقال : ويلك ومن يعدل . قد خبت وخسرت إن لم أعدل !! فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه ؛ فقال : دعه . فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ينظر إلى نضله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نضبه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى قدذه فلم يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم . آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد :

فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمس ، فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته .

وهكذا رواه مسلم من حديث أبي سعيد . البداية والنهاية ج ٦/ص ٢١٩ .

التجمع حول علي رضي الله عنه ، وكان أولها في البصرة حيث تجمع
حول ابن الحضرمي الذي أرسله لهم نفر كبير من أهلها ، واختبأ
زياد والي البصرة من قبل أمير المؤمنين ، لكن علياً سارع وانتقد
الموقف، وكانت المحاولة الثانية من قبل معاوية الأمير أن وجه النعمان
ابن بشير رضي الله عنه في ألفي رجل إلى عين التمر إحدى الولايات
التابعة لعلي ؛ ولم تجد المحاولة وذهبت أدراج الرياح .



محاوالت امتداد معاوية

كان عام تسع وثلاثين أكثر إيجابية لصالح أمير الشام ، حيث عبأ ستة آلاف جندي بإمرة سفيان بن عوف إلى هيت في العراق ، ومنها إلى الأنبار فالمدائن . وحدث اشتباك في الأنبار ، قتل فيه ثلاثون رجلاً من المسلمين ، كما تمت بعض الإغارات على تيماء وواقصة ودجلة .

أما عام أربعين فقد كانت الوقائع فيه سجلاً بين الفريقين بالنسبة للولايات النائية .

بعث معاوية رضي الله عنه بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز في بيته . أما الجيوش الإسلامية فهي مرابطة على الثغور في الشام وفارس ، ولم يكن هناك قوات ثابتة مستقرة في المدن الإسلامية الداخلية ، فاضطر أبو أيوب الأنصاري أن يفر من وجه الجيش الفارزي ، ودخل بسر المدينة ، ولم يقاتله فيها أحد . والمدينة أقرب مدن الحجاز إلى الشام ، والمسافة بينها وبين الشام أقرب بكثير من المسافة بينها وبين الكوفة في العراق .

وصعد بسر منبر المدينة ونادى :

يا دينار ، ويا نجار ، ويا زريق ، شيخي شيخي ، عهدي به بالأمس ، فأين هو - يعني عثمان - ؟!

إنها المرة الأولى التي تتحرر فيها المدينة من شبح الثوار الذين

قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة المظلوم ، والمرة الأولى التي ينادى فيها بشارت عثمان .

ويشير نداء بسر من جهة ثانية إلى أنه يتهم أهل المدينة بقتل عثمان ، أو هكذا كانت الصورة في ذهن الجيش الغازي . إنه ينادي قبائل أهل المدينة : بني النجار وبني دينار ، وبني زريق ، وينعى عليهم تخليهم عن شيخ الأمة عثمان بن عفان .

وكان يود لو ينتقم من أهل المدينة الذين تواطؤوا على قتل عثمان كما خيل له .

وبسر قائد فاته ، ولولا أن معاوية رضي الله عنه أخذ بلجامه لعاث فيها فساداً .

ولقد صرح بذلك فقال : يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتملاً إلا قتلته .

ويح بسر ألم يقرأ في القرآن الكريم عن (الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . .) ! وعن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ؟!

الم يسمع حديث رسول الله ﷺ :

(اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار) ؟!

(والله لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار ، والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) !!

لهف نفسي على المدينة !!

بالأمس احتلها الثوار ، وتركوا فيها خليفة المسلمين مزرعاً بدمائه .

واليوم يرعد بسر فيها ويبرق ؛ إنه لولا لجام معاوية له لما
أبقى محتلماً فيها .

ولئن فات معاوية رضي الله عنه أن يحمي عثمان الخليفة الشهيد
في الاحتلال الأول لأن الثوار عاجلوه وقضوا عليه قبل وصول جيش
الشام ، فلن يفوته اليوم أن يحمي دماءها وذمارها في الاحتلال
الثاني نتيجة توصياته العظيمة لبسر بن أبي أرطاة أن لا يريق
فيها دماً .

وتمت البيعة لمعاوية في المدينة تحت ضغط التخويف والإرهاب،
ولا بيعه لمكره . يؤكد هذه الفكرة قول بسر وهو يطلب الصحابي
العظيم جابر بن عبد الله - وكان قد استخفى - فأرسل إلى بني
سلمة فقال : والله ما لكم عندي أمان ولا مبايعة حتى تأتونني بجابر
ابن عبد الله .

فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها :

ماذا ترين ؟ إنني قد خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة ؟!

قالت : أرى أن تباع ، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة
أن يبايع ، وأمرت ختني عبد الله بن زمعة فاتاه جابر فبايعه (١) .

ومن المدينة انطلق بسر إلى مكة حيث كان أبو موسى الأشعري
رضي الله عنه ، فخشي أن يقتله . فأمنه بسر قائلاً :

ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ذلك فخلي عنه .

لقد كان أبو موسى قد اشتهر بعد الحكومة ، وتداول الناس
أن أبا موسى صاحب رسول الله ﷺ . بينما لم يكن غيره على هذا

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٩ عن زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة .

المستوى من الشهرة والمعرفة لدى ابن أبي أرتاة . واستمر زحف
بسر من الحجاز إلى اليمن في الجنوب ، حيث انطلق عبيد الله بن
عباس بتوّه إلى الكوفة يخبر أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه
بالتطورات الأخيرة والخطيرة التي أدت إلى سقوط المدينة ومكة
واليمن بيد معاوية .

وكانت مبادرة طيبة وناجحة جهز علي رضي الله عنه إثرها
بعثين :

الأول : بإمرة جارية بن قدامة في الفين .

والثاني بإمرة وهب بن مسعود في الفين .

وكان لابد من قتل كبار المحاربين لتستقر البلد في يد من تقع
في يده ؛ فقتل من الطرفين في اليمن عدد كبير .

ومع وصول جيش علي وجد بسر أن لا قدرة له على المقاومة ،
فانسحب عائداً بمن تبقى معه من جيشه إلى الشام ، ونزلت اليمن
مرة ثانية على حكم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، كما أمكن
استعادة مكة دون أن تراق قطرة دم في البلد الحرام .

وتابع جيش أمير المؤمنين علي زحفه إلى المدينة ، واستردها
من حوزة معاوية .

ولم تبق تجربة يمكن فيها أن يتغلب أحد الفريقين على الآخر
إلا سلكها الآخر ولكن دون جدوى . فالبلد تحتل من جانب ،
وسرعان ما تعود إلى طاعة الآخر . لقد أثبتت القوة فشلها في حل
المشكلة ، وتوحيد الكلمة للمسلمين قاطبة . وهو الحل المنشود يوم
تسود الفرقة ، لا بد من القوة !!

لكن القوتين متكافئتان . وإيس أي طرف من التغلب على
الآخر .

وعادت المفاوضات من جديد .

وليس بين أيدينا أية صورة عنها إلا ما انتهت إليه .
و (لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى علي :

أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام ، وتكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين .

ففعل ذلك ، وتراضيا على ذلك (١) .

فاقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها ، وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده) .

ونتساءل : لم لم يكن هذا من بداية الطريق ؟

والجواب واضح : إنه حرام في بداية الطريق أن يكون خليفتان قائمين في وقت واحد . لا بد من الحرب حتى يستسلم أحد الفريقين ، وتعود الكلمة واحدة .

وتم ذلك ، وسقط القتلى بعشرات الألوف دون حساب ، ودون أن يتزحزح أحد الفريقين عن موقفه ؛ لأن كلا الفريقين واثق من حقه .

فهل يستمر القتال حتى تفنى الأمة ؟!

لا بد من هدنة مؤقتة حتى ينجلي الموقف ، وترجع كفة أحدهما على الآخر .

ومن هذا المنطلق كان التراوض والصلح .

ورفض كل فريق أن ينصاع للآخر لأنه - كما قلنا - واثق من حقه . ولن يتنازل للباطل من أجل الحق . ورسول الله ﷺ يؤكد لنا أن أولى الطائفتين بالحق طائفة أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه .

* * *

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٠ . زياد بن عبد الله عن ابن اسحاق .

معاوية أمير المؤمنين

لما خرج معاوية رضي الله عنه ليصلي الغداة شدّ عليه البرك
ابن عبد الله بسيفه ، فوقع السيف في أليته ، فأخذ ، فقال لمعاوية :
إن عندي خبراً أسرك به ، فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟!
قال : نعم

قال : إن أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة .

قال : فلعله لم يقدر على ذلك .

قال : بلى إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه .

فأمر به معاوية فقتل (١) .

ورأى أنه أوشك على الخطر ، فاستدعى طبيبه الساعدي ،
فلما نظر إليه قال :

اختر إحدى خصلتين : إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع
السيف ، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرا منها ؛ فإن
ضربتك مسمومة .

وراجع معاوية رصيد حياته ، وردد على مسامع الطبيب :

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٩ .

أما النار فلا صبر لي عليها . وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني . فسقاه تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها ؛ وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات ، وحرس الليل ، وقيام الشرط على رأسه إذا سجد (١) .

وأنت الأخبار إليه بمقتل علي أمير المؤمنين ، وبيعة الحسن رضي الله عنه ابن بنت رسول الله ﷺ . وكان هذا إيذاناً بمرحلة جديدة من العنف والقتال ، فليست القضية قضية رجل يقتل ، إنما الأمر أمر مبادئ يجب أن تسود ، فلعل قتلة عثمان يبقون في ظل الحسن كما هم في ظل أبيه .

إنهم وإن خضدت شوكتهم ، لكن لا يزال بعض رؤسائهم بارزين في جيش علي ، فأعلن في المسلمين النفير ، ومضى يعبىء جيشه لمعركة فاصلة إذا لم يكن لدى الحسن شيء سوى القتال .

وكان الحسن رضوان الله عليه يعبىء جيشه كذلك للقاء الحاسم ، وبدأ على الأفق أن ساعة اللقاء الرهيبة قد دنت ، وأن صفيين جديدة قد أزفت .

واضحى معاوية في قلق شديد وهم عظيم .

الثرات تتجدد ، والجيوش تزحف ، أترى حان هلاك المسلمين على يد بعضهم بعضاً . وراح معاوية يسائل نفسه .

(١) ذكر ابن كثير عن جرير بن عبد الحميد (ثقة) عن مغيرة قال : لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي . فقالت له امراته: ابكيه وقد قاتلته ؟ . فقال : ويحك إنك لا تدري ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم !!

لقد خطا الخطوة الحاسمة مع علي أمير المؤمنين ، وأوقف سيول الدماء ، ورفع السيف عن رقاب هذه الأمة يوم مضى بالشام وما حولها ، وبقي أمامه العراق وما حوله . إنه متربص ينتظر اللحظة المواتية لينهي هذه الحالة المؤقتة التي لا يمكن أن تستمر فكلمة المسلمين متفرقة ، وقلوبهم متباغضة ، وعيونهم زائفة من هول اللقاء والمصير .

وحانت الفرصة المواتية .

لعل الشخصية الجديدة ، شخصية الحسن رضوان الله عليه يكون لها موقف آخر .

فلا بد من البدء بالمفاوضات .

وصدق ظن معاوية ، وكانت الرحمة بعد الفاجعة .

ولكن لا بد من إعداد الغدة مع ذلك .

هذا معاوية يخلو بعمر بن العاص ، ويبيثه مخاوفه وأشجانه . كما نقل لنا الحسن البصري يقول :

(استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاص :

إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها !!

فقال له معاوية - وكان والله خير الرجلين - :

أي عمرو إن قتل هؤلاء وهؤلاء من لي بأمور الناس ؟!! من لي بنسائهم ؟! من لي بضيعتهم ؟!

فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس : عبد الرحمن ابن سمرة ، وعبد الله بن عامر بن كريز ؛ فقال :

اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له ، واطلبا إليه .
فأتياه - أي الحسن - فدخلوا عليه فتكلما ، وقالوا له وطلبا
إليه .

فقال لهما الحسن بن علي :

إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة
قد عاثت في دمائها .

قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ويسألك .

قال : فمن لي بهذا ؟

قالا : نحن لك به .

فما سألهما شيئا إلا قالوا : نحن لك به .

فصالحه (١) .

(١) قال الحسن (أي البصري) :

ولقد سمعت أبا بكره رضي الله عنه يقول :

رأيت رسول الله على المنبر ، والحسن بن علي رضي الله عنهما
إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول :
(إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين
من المسلمين) .

وهذا الحديث رواه البخاري ورواه الامام أحمد .

قال الخطابي :

قد خرج مصداق هذا القول فيه بما كان من إصلاحه بين

←

وهكذا انتهت الفتنة الكبرى التي مزقت شمل المسلمين بفضل نبل الحسن وإخلاصه لله عزوجل ، وحكمة معاوية وبعد نظره .
ولا شك أن عظمة الحسن رضي الله عنه وسماحته التي استحق بها لقب السيادة ؛ كانت عن جدارة شهد له بها سيد الخلق صلوات الله عليه !!

→

أهل العراق والشام وتخليه عن الأمر خوفاً من الفتنة ، وكراهية لإراقة الدم ، ويسمى ذلك العام عام الجماعة .
وفي الخبر دليل على أن واحداً من الفريقين لم يخرج بما كان منه في تلك الفتنة من قول أو فعل عن ملة الإسلام إذ قد جعلهم النبي ﷺ مسلمين .

ومعلوم أن إحدى الفتنتين كانت مصيبة والأخرى مخطئة .
وقال ابن كثير : قد شهد الصادق المصدوق للفرقتين بالإسلام ؛ فمن كفرهم أو واحداً منهم لمجرد ما وقع فقد أخطأ وخالف النص النبوي المحمدي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : قلت للحسن ابن علي رضي الله عنهما :
إن الناس يقولون إنك تريد الخلافة ؛ فقال :

قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ، ويسالمون من سلمت ؛ تركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء أمة محمد ﷺ ، ثم أثيرها ثانياً من أهل الحجاز ؟!
رواه ابن سعد والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

ودخل الناس في طاعة معاوية ، ودخل معاوية الكوفة فباعه
الناس .

يقول ابن جرير الطبري في تاريخه :

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ، حدثني بذلك
موسى بن عبد الرحمن قال : حدثنا عثمان بن عبد الرحمن قال :
أخبرنا اسماعيل بن راشد - وكان قبل يدعى بالشام أميراً -
وحدثت عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز (١) ، قال : كان
علي رضي الله عنه يدعى بالعراق أمير المؤمنين ، وكان معاوية يدعى
بالشام الأمير فلما قتل علي رضي الله عنه دعي معاوية : أمير المؤمنين .

ولا بد من أن تتضح أمام الناس طبيعة هذا الصلح ؛ لذلك
طلب معاوية رضي الله عنه من الحسن بن علي أن يخطب في المسلمين ،
وقال له :

قم فاخطب الناس واذكر ما كنت فيه ، فقام الحسن فخطب
فقال (٢) :

الحمد لله الذي هدى بنا أولكم ، وحقق بنا دماء آخركم .

الا إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور .

وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون
أحق به مني ، وإما أن يكون حقي ، فتركناه لله ولصلاح أمة محمد
ﷺ وحقق دمائهم .

(١) أبو مسهر : مقبول . سعيد بن عبد العزيز : ثقة إمام ،
اختلف في آخر عمره . جعله الامام أحمد كالأوزاعي .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١ / ٣٧٤) .

قال : ثم التفت إلى معاوية فقال :

« وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » .

ثم نزل فقال عمرو لمعاوية : ما أردتُ إلا هذا (١) .

فهذه نفسية الحسن ، نفسية المسلم الذي تربى في حضن محمد ﷺ . فلقد تنازل حقناً لدماء المسلمين ، ولصلاح الأمة ، ولم يتنازل عن عجز أو ضعف ؛ بل كانت جماجم المسلمين بيده . حتى لقد قال له بعض المفضبين من صنيعة : السلام عليك يا مذل المؤمنين !!

فأجابه : لا تقل ذلك يا أبا عامر ، لم اذل المؤمنين ؛ ولكني كرهت أن أقتلهم في طلب الملك (٢) .



-
- (١) وأخرجه الحاكم أيضاً (٣ : ١٧٥) . والبيهقي (٨ : ١٧٣) عن الشعبي بنحوه؛ انظر : حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٩٩ ، ط دار القلم .
- (٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٩٨ ، عن الحاكم في مستدركه (٣ : ١٧٥) ، وابن عبد البر في الاستيعاب (١ : ٣٧٢) .

دَاهِيَتَا الْعَرَبِ يَنْضَمَّانِ إِلَى مَعَاوِيَةَ

أما قيس بن سعد فقد بايعه المسلمون أميراً عليهم بعد تنازل الحسن رضي الله عنه ، وتعاهدوا معه على قتال معاوية .

(وخلص معاوية حين فرغ من عبيد الله بن عباس والحسن رضي الله عنهم إلى مكايذة رجل هو أهم الناس عنده مكايذة ، ومعه أربعون ألفاً . وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشام . وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول : على طاعة من تقاتل . وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟! فأبى قيس أن يلين له) (١) .

وليست هذه هي التجربة الأولى لمعاوية مع قيس رضي الله عنهما ، لقد كانت المحاولة الأولى حين كان قيس بن سعد أمير مصر ، وبذل معاوية كل طاقاته ودهائه ليلين جانبه فعجز . ولا زلنا نذكر كيف غضب معاوية غضباً شديداً يوم اضطر والي المدينة قيساً أن يمضي إلى الكوفة ، وقال يومئذ :

(امددتما علياً بقيس بن سعد ورايه ومكايذته ! فوالله لو

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢٥ وهي رواية عبد الله بن أحمد عن أبيه عن سليمان بن الفضل عن عبد الله عن يونس عن الزهري وسبق أن تكلمنا عن روايتها من قبل وهي عموماً مقبولة . وقد رواها الزهري في مغازيه برواية عبد الرزاق عن معمر عنه ص ١٥٧ .

أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي) .

وبذل محاولات مضنية في استدراجه إلى صفه ؛ لكنه لم يفلح .

لكن الفرق واضح بين موقفين :

الموقف الأول : وهو موالٍ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الموقف الحالي : ليس له أمير يواليه !!

وليس من شيمة قيس وخلقه أن يشق عصا الطاعة ، فهو الذي رآب صدع المسلمين في سقيفة بني ساعدة ، وبائع الخليفة أبا بكر وترك أباه . وهو الذي اختاره رسول الله فأعطاه راية قومه ليعز قريشاً يوم فتح مكة بعد أن نزعها من أبيه .

وحتى يؤكد معاوية ثقته بقيس :

(أرسل إليه بسجل قد ختم عليه في أسفله . فقال :

اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك) (١) .

واستغرب عمرو بن العاص هذا التساهل من معاوية أمير المؤمنين إلى هذا الحد . وهو يرى أن جانب معاوية قد رجح ، ولم يعد ينازعه أحد ، فلم لا يقاتل قيس بن سعد ، ويضطره للخضوع له أو يقتله ؟!

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢٥ الرواية السابقة .

أما منطلق معاوية رضي الله عنه فهو الهدي النبوي في معرفة الرجال وفقه معاملتهم . إنه يريد أن يمسح جراحات القلوب ، والمحاولة الدؤوبة للحل المقنع ما دام في قوس الصبر منزع . وفرق كبير بين أن يخضد شوكة الخصوم أو يستأصلهم ، وتبقى الأحقاد والضغائن فيمن تبقى منهم ؛ وبين أن يجبر مصيبتهم ويؤلف قلوبهم ويكسب ودهم .

(قال عمرو لمعاوية : لا تعطه هذا وقاتله .

قال معاوية : على رسلك ، فإننا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ؛ فما خير العيش بعد ذلك !! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدأ) (١) . وكانت خطة حكيمة غاية الحكمة ، فلقد اضطر معاوية قيساً أن يفتح صدره للأمن والسلام معه رغم شديد تحمسه للحرب من قبل .

(واشترط قيس فيه له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالا' .

واعطاه معاوية ما سأل) (٢) .

ورغم أنها مخاطرة كبيرة ولا شك . فكثير أولئك الذين تتلظى قلوبهم حقداً على معاوية . وكثير أولئك الذين قد يفتحون حرباً عنيفة عليه في كل وقت . لكن تفتيت هذا الجمع وإعطاءه الأمان هو ربح كبير لمعاوية في صفوف رعيته ، وكسب قيس بن سعد لجانبه

(٢-١) الطبري ج ٥ ص ١٢٥ الرواية السابقة .

هو أكبر الأرباح في تصوره ، لأنه يعدل عنده مائة ألف في موازين الرجال ، بسبب دهائه وصبره ، وحنكته وشجاعته .

وأعطاه معاوية ما سأل ، ودخل الكوفة التي وقفت ضده أربع سنين متوالية . وما هي إلا أيام قليلة حتى توجه خارجاً من الكوفة ، وقد نكأ الجرح الذي عانى منه طويلاً .



وتحركت الكتائب الأولى للخوارج .

إنه وهو في النخيلة تداعت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعي قائلة :

قد جاء الآن مالا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه .

وابتدأت خطواتهم الأولى بالاستيلاء على الكوفة .

وأراد معاوية أن يجنب أهل الكوفة مقاومة الخوارج ، فبعث خيلاً من أهل الشام ، وما إن كان اللقاء بين الفريقين حتى انكشف أهل الشام وعادوا مهزومين .

وتدبر معاوية الأمر . . لا بد من حل حازم .

إنه لا يتقن الحرب مع الخوارج إلا بنو جلدتهم من أهل الكوفة .

وكما تحدث عن نفسه ، فقد خلقه الله للمعضلة ، وهذا باب واسع إن فتح عليه من الخوارج فلن يفلق ، وهو قد يجريء الخوارج على غزو الشام إن بدا تراجع جيش الخلافة ، وعزم عندئذ عزمته القوية ، وأمر مناديه أن ينادي أهل الكوفة :

لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم .

وهذا تهديد خطير يلف أهل الكوفة الذين غدوا في قبضة معاوية ، فكان أن تسارعوا إلى سيوفهم ، ومضوا إلى قتال الخوارج فقاتلوهم .

وقالت الخوارج : ويلكم ما تبغون منا ، اليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا .

قالوا : لا والله حتى نقاتلكم .

فقالوا : رحم الله إخواننا من أهل النهر هم كانوا أعلم بكم منا يا أهل الكوفة (١) .

ولم تجد المناقشات ، وكان لا بد من الحرب .

وأجهز أهل الكوفة على الخوارج ، وأعادوا الكوفة مرة ثانية إلى ظر الخلافة .

والبصرة البلد الثاني في العراق ، هل استسلم لمعاوية بسهولة؟

عادت التحركات من جديد فهذا حمران بن أبان يغلب على البصرة ، ويحكمها ويصرف الأمور فيها ، فيسارع أمير المؤمنين معاوية ، ويرسل أحد بني القين إليها .

غير أن الخبير المجرب في العراق لم ينصحه بذلك ، ومن هو هذا الخبير ؟

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢٦ سنة ٤١ وهي رواية زياد عن عوانة .

إنه شخصية جديدة كانت قبل لأي من أشد المخاصمين ،
وانكى الأعداء له . ولكن الإسلام العظيم الذي ربى هذا الجيل على
مفهوم الجماعة ؛ علمه الانصياع للعقيدة لا للعاطفة . إنه الساعد
الأشد لعللي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأحد دهاة العرب وقادتها ،
وترجمان القرآن الكريم : حبر الأمة عبد الله بن عباس . وسنلتقي
مع ابن عباس من الآن كثيراً ، بصفته المستشار الأمين لأمير المؤمنين
معاوية .

أشار ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية أن يولي عليها
بسر بن أبي أرطاة . وابن عباس أدري الناس بالبصرة وأهلها فهو والي
أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عليها طيلة حياته .

واستجاب معاوية حالاً لمشورة ابن عباس ، وولى بسرأ على
البصرة ، فاستطاع أن يذلها له ويهيئها للطاعة لإمام المسلمين .



كانت الكوفة بلا شك هي أخطر البلدان على الإطلاق ، إنها
مركز الخلافة الأولى ومركز شيعة علي رضي الله عنه ، وأكبر تجمع
خطر على معاوية وخلافته .

فمن لها ؟

فكر معاوية كثيراً ، ورأى أن مصر محفوظة مضبوطة من عمرو
ابن العاص . ولكن أين له مثل عمرو ؟

وفكر ملياً في الأمر : فليجرب ابنه عبد الله ، فولاه الكوفة ،
ولم يمر طويلاً على توجيهه الوالي الجديد حتى كان الداهية الشهير ؛
المغيرة بن شعبة يستأذن عليه ويقول له بعد معرفته بولاية ابن عمرو :

استعملت عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، وعمراً
على مصر فتكون أنت بين لحيي الأسد !

ولعل كلمة المفيرة لم تجد وقعاً مهماً لدى معاوية . لكن أليس
هذا الذي أمامه المفيرة ، داهية ثقيف المحنك المجرب ؟! لم لا يرمي
به في خضم الكوفة ، وهو أعرف الناس اليوم بما في الكوفة ؟!

ويالها من موافقات عجيبة ، فيوم كانت الكوفة تصدع رأس
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فينقل همه للمفيرة بن شعبة أن أهل
الكوفة لا يعجبهم أمير ، فمن يضبطها له ؟

ويقترح المفيرة النوعية المؤهلة للكوفة في مواصفاتها وحنكتها ،
فلا يجد عمر غير المفيرة يحمل هذه المواصفات . فيقول له :
اذهب فليس لها إلا أنت .

ويصبح المفيرة والي عمر على الكوفة ، وما أعرف عمر بالرجال !!
الموقف نفسه ، يستثير كل اهتمام معاوية ، وينظر بالمفيرة ،
ويستعرض الكوفة ، فيعلم أن ليس لها إلا جذيلها المحنك ، وعذيقها
المرجب المفيرة بن شعبة . وأصدر أمره بالحال ، فعزل عبد الله بن
عمرو ، واستعمل المفيرة على الكوفة ، وهكذا انضمت هذه الطاقة
العبقرية إلى معاوية أمير المؤمنين .



الدَّاهِيَةُ الثَّالِثُ وَاللِّثُ الْمُتَرَبِّصُ

كان هناك في أقصى الأرض الإسلامية ليث متربص شديد ، وكان هو آخر من يخشاه أمير المؤمنين معاوية . فلقد كان في ذكائه ودهائه لا يقل عن قيس بن سعد أو عبد الله بن عباس اللذين أعطياه بيعتهما وثمره قلبيهما .

كان زياد بن أبيه هو ذاك الليث الذي يقلق معاوية ويقض مضجعه ، فهو يخشى أن ينتقض بالمسلمين في فارس . وبدأ معاوية خطواته الأولى في هذا الميدان ، هذه الخطوات التي تعطينا صورة فذة عن عبقريته في أصول السياسة والإدارة والحكم ، وكيف استطاع بما وهبه الله من حلم وأناة وتعقل ؛ أن يضم تحت جناحه أكبر المبغضين له .

كانت الخطوة الأولى رسالة بعث بها أمير المؤمنين معاوية إلى زياد قال فيها :

(إن في يدك مالا من مال الله ، وقد وليت ولاية ، فاد ما عندك من المال) (١) . وقرأ زياد الرسالة ، وبعث على جناح السرعة جوابه الآتي بعد حمد الله وثنائه :

(١) الطبري ج ٥ سنة ٤١ هـ . عن أحمد بن زهير عن علي بن محمد عن سليمان بن بلال عن الجارود بن أبي سبرة .

(إنه لم يبق عندي شيء من المال ، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه ، واستودعت بعضه قوماً لنازلة إن نزلت ، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه) (١) .

عرف معاوية من الرسالة أنه لن يظفر بما في يد زياد ، وحاول أن يظهر له كل ود ، ويذل الصعاب أمامه فكتب له :

(أن أقبل إلي ننظر فيما وليت وجرى على يدك ، فإن استقام بنا أمر فهو ذاك وإلا رجعت إلى مأمك) .

ولكن زياداً اعتصم بفارس ، ولم تلن قناته ، ولم يرض بالقدوم على معاوية .

وبقيت العضلة تملأ رأس معاوية ، وتملك عليه فؤاده .

لقد قال معاوية يوماً عن زياد : إنه لكل صغيرة وكبيرة .

فكم الفرق بين أن يكون زياد أبو العضلات له أو عليه .

وبلغ بسر بن أبي أرطاة أن زياداً استعصى على أمير المؤمنين ، وحسب أن القوة هي السلاح الوحيد الذي يحل المستعصي من الأمور .

وسارع فאלقى القبض على أولاد زياد جميعاً ، وزج بهم في السجن ، وقام من توه فكتب رسالة إلى زياد يقول فيها :

لتقدمن على أمير المؤمنين أو لاقتلن بنيك .

وكانت الرسالة غصة في حلق زياد ، لكن رجولته أبت عليه

(١) الطبري ج ٥ سنة ٤١ ، الرواية التي في الصفحة السابقة .

أن ينقاد انقياد الدليل ، ويستسلم استسلام العبيد ؛ فكتب جواب الرسالة من نفس شجيرة مثخنة بالجراح :

لست بارحاً من مكاني الذي أنا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك ، فإن قتلتَ من في يدك من ولدي ، فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن ورائنا وورائكم الحساب : (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وكان المفروض أن تشني هذه الرسالة عزم بسر عن القتل استحياءً وخوفاً من حكم الله ، لكنه صمم على قتلهم ، وانتشر النبأ في البصرة ، وتناهى إلى أبي بكره صاحب رسول الله ، وكان أخا زياد من أمه .

وأبو بكره قد حبس ولده مع ولد أخيه ، وبات في شر ليلة . إنه ليس من السهل أبداً أن يقدم على الأمير ، وقد أهانه من قبل ، وعرض نفسه للقتل .

كان ذلك يوم خطب بسر على منبر البصرة فشتم عليه رضي الله عنه ثم قال :

نشدت الله رجلاً علم أنني صادق إلا صدقني أو كاذب إلا كذَّبني .

فقال أبو بكره : اللهم لا نعلمك إلا كاذباً !!

فأمر به فخنق ، فقام أبو لؤلؤة الضبي فرمى بنفسه عليه فمنعه ، فأقطعه أبو بكره بعد ذلك مائة جريب .

وقيل لأبي بكره :

ما أردت إلى ما صنعت ؟

قال : أينا شدنا بالله ثم لا نصدق (١) !!؟

استعاد بذكرياته تلك الحادثة يوم كادت نفسه تتلف ، وعادت عوالج همومه تتوالى ، وهو يرى بسرّاً مصمماً على قتل بنيه ، وبني أخيه ، وخيّل إليه أن ولده وولد أخيه صرعى على بابهِ ، فانتفض انتفاضة المذعور ، وصمم على أن يدخل على الأمير ، ولو كلفه ذلك حياته .

لم يذق للنوم طعماً وهو يرقب انبلاج الفجر ، وما إن تدلت خيوط الشمس حتى كان على راحلته ماضياً إلى الأمير ، حيث استأذن عليه ودخل وبادره قائلاً :

أخذت ولدي وولد أخي غلماناً بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علي حيث كانوا ؛ فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل .

قال بسر : إن على أخيك أموالاً قد أخذها فامتنع من أدائها .

قال : ما عليه شيء .

وهمّ بسر أن يتكلم ، فقاطعه أبو بكره قبل أن يفلت زمام الكلام من يده فقال : فاكف عن بني أخي حتى آتيك بكتاب من معاوية بتخليتهم .

ولم يصدق نفسه أنه ضمن حياة بنيه وبني أخيه لفترة حتى مضى يسابق الريح نحو معاوية .

(١) الطبري : عن عمر بن شبة عن علي بن محمد سنة ٤١ هـ

ج ٥ ص ١٢٨ .

وسبقت الأخبار إلى معاوية رضي الله عنه بمقدمه ، فاحتفى به أمير المؤمنين اعظم حفاوة ، وقال :

— يا أبا بكره أرائراً جئت ، أم دعتك إلينا حاجة ؟

— لا أقول باطلاً ما جئت إلا لحاجة .

— تشفع يا أبا بكره ، ونرى لك بذلك فضلاً ، وانت لذلك أهل ، فما هو ؟

— تؤمن أخي زياداً ، وتكتب إلى بسر بتخيلة ولده ، وبترك التعرض لهم .

وهكذا وفي الوقت الذي كاد أبو بكره رضي الله عنه أن يخنق على يدي بسر بن أبي ارطاة ؛ كان لدى معاوية أمير المؤمنين مبعجلاً معزراً مكرماً !!

لقد كان معاوية أرحب أفقاً ، وأبعد مدى من المحيط الذي حوله ، لقد كانت تطلعاته إلى دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل ، وينتهي سيل الدماء فيها إلى الأبد . وها هو يرى أبا بكره الصحابي العظيم ، فحنا عليه ، ورق له وجدانه العظيم ، واکرمه ، وقال له :

أما بنو زياد فنكتب لك فيهم ما سألت .

وأما زياد ففي يده مال المسلمين ، فإذا أداه فلا سبيل لنا عليه .

— يا أمير المؤمنين إن يكن عنده شيء فليس يحبسك عنك إن شاء الله . فكتب معاوية لأبي بكره كتاباً إلى بسر ألاّ يتعرض لأحد من ولد زياد .

ورأى معاوية فرصة سانحة أن ينهل من معين النبوة العظيم — وأبو بكره أحد تلامذتها — فتوجه إلى أبي بكره يقول : (اتعهد إلينا عهداً يا أبا بكره ؟)

قال : نعم . أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك وورعيتك وتعمل صالحاً ؛ فإنك قد تقلدت عظيماً : خلافة الله في خلقه . فاتق الله فإن لك غاية لا تعدوها ، ومن ورائك طالب حثيث ، فأوشك أن تبلغ المدى فيلحق الطالب ، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه ، وهو أعلم به منك . وإنما هي محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرن على رضا الله عز وجل شيئاً (١) .

وأقبل اليوم السابع - وهو آخر أيام عودة أبي بكر - وسحب الغم تتكاثف لدى المسلمين بالكوفة ، خوفاً من أن ينفذ بسر تهديده .

وطلعت الشمس وأخرج بسر بني زياد ينتظر بهم غروب الشمس ليقتلهم إذا وجبت .
فاجتمع الناس لذلك ، وأعينهم طامحة ينتظرون أبا بكر .
إذ رفع لهم على نجيب أو برذون يكده ويجهدده .

فقام عليه فنزل عنه والاح بثوبه وكبر وكبر الناس ، فأقبل يسعى على رجله حتى أدرك بسرّاً قبل أن يقتلهم ، فدفع إليه كتاب معاوية فأطلقهم !!

وهكذا وافق معاوية أمير المؤمنين على إطلاق سراح بني زياد ، والمتسرع العجول يرى في هذا التصرف من معاوية تهوراً شديداً ، لكن صبر معاوية وحلمه كان يفتت كل المصاعب ، فلقد خلق للمعضلة كما تحدث عن نفسه ، ومع هذا فقد كادت هذه المعضلة تنهكه .

انتظر أشهراً لعل أبا بكر يقدّر أن يقنع زياداً بالبيعة فلم يحصل على شيء ، وبات ذات ليلة يتقلب على فراشه لا يجد النوم إلى عينيه سبيلاً ، فليس زياد ممن يستهان به ، وحاول معاوية

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢٩ .

ان يتسلى بالناس عن هذا الهم ، فأذن لمن يريد الدخول عليه ،
ودخل عليه داهية العرب المغيرة بن شعبة ، فرحب به ترحيباً
حاراً . فقد جاءه من يبشه شكاته ، علته يعينه على همه . فإن
ثقيف قوم مناكير ، ولعل دهاء المغيرة يذل الصعاب .

وقال معاوية حين نظر إليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه لمنتصح
فإذا بحث بسر فإلى ناصح يستره أو لا تبح

ولقد كنا عهدنا المغيرة في بداية الفتنة بجوار علي رضي الله عنه
وهو الذي اقترح على أمير المؤمنين علي أن لا يعزل معاوية ، لأنه
يدرك شخصية معاوية ومدى سلطانه في الشام، ثم إنه اعتزل الفتنة .
أما الآن فهو عند أمير المؤمنين معاوية يضع طاقاته وعبقريته بين
يديه ، وهو الآن واليه على الكوفة .

وعندما وجد معاوية مهموماً ، قال له :

يا أمير المؤمنين إن تستودعني ناصحاً شقيقاً ، ورعاً
وثيقاً ، فماذاك يا أمير المؤمنين ؟!

معاوية : ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس ، وامتناعه
بها ؛ فلم أتم ليلتي .

وأحب المغيرة أن يهوّن من شأن زياد وخطره ليخفف من
قلق الخليفة فقال :

— ما زياد هناك يا أمير المؤمنين !

— بئس الوطاء العجز !!

داهية العرب معه الأموال متحصن بقلاع فارس ، يدبر
ويربص الحيل ما يؤمنني أن يبايع لرجلٍ من أهل هذا البيت ،
فإذا هو قد أعاد علي الحرب جذعة .!؟

— أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ؟

— نعم فآته وتلطف له .

وهياً المغيرة رحله ، وجمع حوائجه ، ومضى يكد السير إلى
فارس .

وطرق المغيرة باب زياد بفارس .

فسأل عمن في الباب ف قيل له : المغيرة بن شعبة ، فخرج مهرولاً
يستقبل ضيفه الكبير المغيرة الذي لم يلقه من وقت طويل .

وقال زياد : أفلح رائد .

واهتبلها المغيرة فرصة سانحة يتحدث فيها عما بدا له بعد أن
رحب زياد به وأدناه .

وقال المغيرة : إليك ينتهي الخبر أبا المغيرة ، إن معاوية استخفه
الوجل حين بعثني إليك .

وهنا سكت المغيرة هنيهة ، وتفرس في وجه زياد ليرى وقع
الكلام عنده فوجده مصغياً بكليته إليه فتابع قائلاً :

ولم يكن يعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد
بايع معاوية . ثم اختلس نظرة ثانية تفحص بها وجه زياد ؛ فوجده
على أشد ما يكون من الاهتمام .

قال عندئذٍ : فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغني عنك
معاوية .

زياد : أشر عليّ ، وارم الغرض الأقصى ، ودع عنك الفضول
فإن المستشار مؤتمن .

المغيرة : في محض الراي بشاعة (لب الراي) ولاخير في المذيق
(هامشه) .

أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله .

زياد : أرى ويقضي الله .

وعاد المغيرة ادراجه من حيث جاء .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد زياد بين يديه كتاباً من
أمير المؤمنين ، ففضه فإذا فيه :

علام تهلك نفسك . فأقبل إلي فأعلمني علم ما صار إليك مما
اجتبيت من الأموال وما خرج من يديك ، وما بقي عندك وأنت آمن ؛
فإن أحببت المقام عندنا أقمت ، وإن أحببت أن ترجع إلي مأمناً
رجعت .

وكانت هذه الرسالة هي الحاسمة في الأمر ، فأشخاص المغيرة
إليه ، والوثيقة الخطية بيده ، ليؤكدان حرص معاوية على سلامته
وأمانه . فعزم على السير دون تردد ، ومضى يقطع سهوب فارس
وجبالها الوعرة يركب كل صعب وذلول حتى قدم الشام ، ونزل
على أمير المؤمنين معاوية .

وكان لقاء طالما انتظره معاوية ، وأحسن استقبال زياد ،
واحتفى به ، وانتقل بعدها للموضوع الذي أشجاه . موضوع المال
الذي يقدر به زياد أن يززع الحكم ، ويزحزح الأرض من تحت
معاوية .

وحق لمعاوية هذا الخوف .

فالرايات السود التي أقبلت من فارس والتي بايعت لرجل من آل بيت النبي ، هي التي قوضت دعائم الدولة الأموية واجتثتها بعد قريب من مائة عام .

و (سأل معاوية زياداً عما صار إليه من أموال فارس ، فأخبره بما حمل منها إلى علي رضي الله عنه ، وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة ، فصدّقه معاوية على ما أنفق ، وما بقي عنده ، وقبضه منه وقال :

قد كنت أمين خلفائنا) (١) .

قال زياد : يا أمير المؤمنين قد كان لي مال قبل الولاية فوددت أن ذلك المال بقي ، وذهب ما أخذت من الولاية .

وكان المغيرة يتنسم أخبار زياد ، فما إن عرف بتوجهه لأمير المؤمنين ، حتى مضى إلى الشام ، وآخر وصوله إليها شهراً بعد وصول زياد .

قال معاوية : يا مغيرة ، زياد أبعد منك بمسيرة شهر ، وخرجت قبله وسبقك .

فقال : يا أمير المؤمنين إن الأريب إذا كلم الأريب أفحمه .

قال : خذ حذرک ، واطور عني سرّک .

فأجاب المغيرة :

إن زياداً قدم يرجو الزيادة ، وقدمت أتخوف النقصان .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٧٨ رواه ابن جرير عن عمر بن شبة (ثقة) عن علي بن محمد (صدوق) عن مسلمة بن محارب . وقد ذكره البخاري في التاريخ ٣٨٧/٧ وابن أبي حاتم بدون جرح ولا تعديل .

وهكذا التقى الدهاء الثلاثة ، وكان رابعهم عمرو بن العاص متربصاً في مصر . اما الداهيتان الآخران فقد اكتفى منهما معاوية بالاستشارة . وكان هؤلاء جبلاً في الدهاء والحكمة ، لكن زياداً لا يزال حتى الآن تحت الاختبار .

واستأذن زياد معاوية أن يمضي للإقامة في الكوفة ، فأذن له على حذر :

فالخليفة يعلم أن الكوفة معقل خصومه ، وهم وإن دخلوا في البيعة والولاية لكن قلوبهم لا تزال منطوية على البغضاء له .

نزل زياد الكوفة ، وأخبار معاوية تلاحقه ، وزياد يعلم أن معاوية لا بد وأن يلاحقه ، فسلك سبيلاً هيناً حيث ربط حبله بحبل المغيرة بن شعبة أمير الكوفة . وتناهى إلى معاوية بعض الأخبار أن زياداً قد يتفلس من الجماعة بعض الأحيان ، فأسرع بإرسال كتاب هذا نصه :

خذ زياداً وسليمان بن صرد ، وحجر بن عدي ، وشبث بن ربعي ، وابن الكواء ، وعمرو بن الحمق ، بالصلاة في الجماعة . فكانوا يحضرون معه الصلاة .

وأحب المغيرة أن يكرم زياداً أكثر فأكثر ، فعندما حضرت الصلاة قال له : تقدم فصل .

فقال : لا أفعل أنت أحق مني بالصلاة في سلطانك (١) .



(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٠ . عمر بن شبة عن علي بن محمد عن سليمان بن أرقم (ضعيف) .

شيعة علي في وجه المارقين

السنة الثالثة من خلافة معاوية تدلف ، والخلاف بين المسلمين تفتت أو كاد ، وحلم معاوية يذيب المعضلات . ولقد آن الأوان للتطلع إلى الجهاد من جديد ، بعد أن تعطل أربع سنين أو يزيد . فكان عوداً على بدء ، وبدأت الغزوات تتوالى في أرض الروم ، وحوّل معاوية بسر بن أبي أرطاة من البصرة إلى قيادة الجيش على الثغور الإسلامية ، فلقد كان شديداً في ولايته ، فلتكن هذه الشدة على أعداء الله . وتفرغ معاوية لمشاكل المسلمين ، وكان الحدث الذي هزه في هذا العام هو نبأ وفاة عمرو بن العاص الذي كان يكفيه أرض مصر ، فسارع وولى ابنه عبد الله هناك . ومن مثل عبد الله في صلاحه وتقواه (١) .

(١) ولنحضر عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يعالج سكرات الموت :

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن شماس قال :

(لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى ، فقال له ابنه عبد الله :

لم تبكي ؟ أجزعاً من الموت ؟

فقال : لا والله ولكن مما بعد الموت .

فقال له :

قد كنت على خير ، فجعل يذكره صحبة رسول الله وفتوحه الشام .

فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله .

وبينا هو كذلك ، إذ فتحت عليه ثغرة داخلية كبيرة حيث اشتعلت ثورة الخوارج في العراق . لكن قلقه من جراء هذا الحدث

→

وراح عمرو يستعرض شريط حياته كله . فقال :

(إني كنت على ثلاثة أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه :

كنت أول قريش كافراً ، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار .

فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياءً منه ، فما ملأت عيني من رسول الله ، ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله حياءً .

فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه نرجو له الجنة .

ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء . فلا أدري عليّ أم لي ، فإذا مت فلا تبكين عليّ باكية ، ولا يتبعني مادم ولا نار ، وشدوا عليّ إزاراي فإني مخاصم ، وشنوا عليّ التراب شنأ ، فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر ، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نخرجزور استأنس بكم) .

وقد روى مسلم هذا الحديث في صحيحه من حديث يزيد ابن أبي حبيب بإسناده نحوه .

ولعل هذا العرض الذي قدمه عمرو بن العاص رضي الله عنه لأطباقه الثلاثة هو الذي يعطينا صورة عن نفسيته في موقفه مع معاوية ، إنه اجتهد . ولا يدري أصاب باجتهاده أم أخطأ ، وعمل ما في وسعه لتحري الحق وهو يسأل الله عز وجل المغفرة إن أخطأه الصواب .

لم يكن كبيراً ، فهو يعلم أن المغيرة بن شعبه أبو العضلات ، وكان من عبقرية المغيرة أن وجه الطاقات الكامنة المتفجرة في الشجاعة والبطولة إلى قتال الخوارج ، إذ ابتدأ خطواته عندما علم بخروجهم فقال : قد علمتم أيها الناس أنني لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، وإنني والله لقد خشيت أن يكون لك أدب سوء لسفهائكم . فأما العلماء الاتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفية الجاهل (١) .

إنها بوادر تغيير جديدة في سياسة المغيرة ، وما استطاع امرؤ أن يسبر نفسية أهل الكوفة ، ويقدر على حل مشاكلهم مثل المغيرة بن شعبه ، وهو الذي اختاره أمير المؤمنين عمر ليحل معضلة أهل الكوفة ، وأحس أهل الكوفة بالوجل خاصة عندما رأوا اللهجة الصارمة في حديثه والتهديد العنيف الذي يقول :

(فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في مصر بالشقاق والخلاف ؛ وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار) (٢) .

وتحرك أكبر سادات الكوفة : معقل بن قيس الرياحي ، والذي كان من كرام شيعة علي فقال :

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٢ ، سنة ٤٣ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ ، سنة ٤٣ .

أيها الأمير هل سمّي لك أحد من هؤلاء القوم ؟ فإن كانوا سموا لك ، فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفيناكهم ، وإن كانوا من غيرنا ، أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها .

قال المغيرة : ما سمي لي أحد منهم ، ولكن قد قيل لي إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر .

أجاب معقل : أصلحك الله فإنني أسير في قومي ، وأكفيك ما هم فيه ؛ فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه .

واهتبلها المغيرة من فم معقل بن قيس ، فبادر فوراً بالدعوة إلى اجتماع مفلق لرؤساء الكوفة .

ولما التأم الشمل قام فيهم خطيباً فقال :

إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ؛ فليكفني كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره (لا تحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلزم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر) (١) .

وانتهى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه من إنذاره ليتحرك الرؤساء جميعاً إلى عشائرهم ، فناشدوهم الله والاسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة .

ونجحت خطة المغيرة أيما نجاح ، لقد حرك الاساد من آجامها ، وراحت الكتائب تترى تحمساً للقتال ، وكأنما علي أمير المؤمنين هو الذي يقودها .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ ، سنة ٤٣ .

هذا صعصعة بن صوحان رئيس عبد قيس - والخوارج بين
ظهرانيهم - يخطب قومه قائلاً :

إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين
خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره
لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورسله ، ثم أقمت عليه حتى قبض الله
رسوله ﷺ ، ثم اختلف الناس بعده فثبتت طائفة وارتدت طائفة ،
وادھنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله
وقاتلت المرتدين حتى قام الدين واهلك الله الظالمين .

فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء وعلى كل حال حتى
اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة نريد طلحة والزبير وعائشة ،
وقالت طائفة نريد أهل المغرب ، وقالت طائفة نريد عبد الله بن وهب
الراسبي راسب الأزد .

وقلتم انتم : لا نريد إلا أهل البيت الذين ابتدانا الله من قبلهم
بالكرامة تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين
له ، آخذين به ؛ حتى اهلك الله بكم وبمن كان على مثل هداكم ورايكم
الناكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهر .

(وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ
سلطانهم) .

ولا قوم أعدى لله ولكم ، ولاهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين ؛
من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إيماننا ، واستحلوا دماءنا
وشهدوا علينا بالكفر .

فإياكم أن تؤوهم في دوركم ، أو تكتموا عليهم ؛ فإنه ليس
ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد

والله ذكر لي ان بعضهم في جانب من الحي ، وانا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حكي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم فإن دماءهم حلال ، ثم قال :

يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

ثم تنحى فجلس (١) .

وكان لابد لصعصعة أن يستعرض مواقف عشيرته ، ليضعهم على الخط الأقوم الذي يحملون عبأه منذ أن دخلوا أفواجاً في دين الله ، واستطاع أن يجعل عشيرته صفاً واحداً معه ضد الخوارج ، وكان جريئاً في الحق حيث تحدث عن نصرته لآل البيت ، وأنه مع قومه من اتباعهم . وبهذه الخطة انتزع من كل رؤساء عشيرته موافقته ، فكل قومه قال : لعنهم الله وبريء الله منهم ، فلا والله لا نؤوينهم ، ولئن علمنا بمكانهم لنطلعنك عليهم .

غير سليم بن محدوج الذي اختفى الخوارج عنده ، حيث مضى إلى بيته والهم يعتلج في صدره ، وضيقه جائم على أنفاسه ، وعرف الخوارج ذلك منه ، فما طلع الفجر ، وفي بيته منهم مخبر (٢) .

فلقد رحلوا بعيداً دون أن يبقى منهم أحد .

وكان الأولى بسليم أن يهيبء المجال لحصر الفتنة ، والقبض عليهم قبل انتشارهم ، وانتشار الفتنة معهم أين حلوا وأينما رحلوا ؛

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٦ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨٧ .

غير انه رفض ان يخفر ذمته ويفدر بمن وثق به ، ولم يجد حلاً
إلا الرحيل .

أما صعصعة بن صوحان فقد صحا ، ومع الضحى مضى إلى
الأمير المفيرة بن شعبة تتنازعه هواجس شتى ؟!!

ترى هل يكون على قيادة الحملة التي تقابل الخوارج ؟!!

لكن بينه وبين الأمير بعض الملامة ، وحب آل البيت مشتعل
في فؤاده ، ولكم نصحه الأمير أن يكف عن مديحهم في المجالس العامة ،
لكن دون جدوى ؛ كما أن هناك منافسين آخرين قد يصلون إلى
قيادة الحملة ضد هؤلاء المارقة ، لكن لا عليه ، فهو يعرض نفسه
رغم خطورة المهمة التي يمضي بها .

ووصل صعصعة إلى مجلس الأمير ، وقبل أن تفوته الفرصة في
المجلس أسرع ليعرض نفسه لقيادة حملة الخوارج ، وهو يدافع
شكوكه بعتب الأمير عليه ، لكنه لا يمكن أن يتبدى بالحديث في
مجلس أمير الكوفة ، فأخذ ينتظر الفرصة السانحة .

وأتت الفرصة حين افتتح الأمير الحديث بعد حمد الله والثناء
عليه بقوله - وحوله رؤساء الناس - : إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم
الحين - الهلاك - وسوء الرأي ، فمن ترون أبعث إليهم ؟!

فقال عدي بن حاتم : كلنا لهم عدو ولرايهم مسفه ، وبطاعتك
مستمسك ، فأينا شئت سار إليهم .

وقال معقل بن قيس : إنك لا تبعث اليهم أحداً ممن ترى
حولك من أشراف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً ، ولهم مفارقاً
ولهلاكهم محباً .

ولا أرى - أصلحك الله - أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى
لهم ولا أشد عليهم مني ، فابعثني إليهم فإني أكفيكم بإذن الله .

وبعد كلام كثير جرى في المجلس ؛ توجه الأمير المغيرة بن شعبة
لمعقل بن قيس الرياحي قائلاً :
أخرج على اسم الله .

ودعا المغيرة أحد رؤساء جنده - وهو قبيصة بن الدمون -
وأفضى إليه بخطة التعبئة قائلاً له :

(الصق لي بشيعة علي فأخرجهم مع معقل بن قيس ، فإنه
كان من رؤوس أصحابه ، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون ،
فاجتمعوا جميعاً ؛ استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا ، وهم أشد
استحلالاً لدماء هذه المارقة ، وأجراً عليهم من غيرهم ، وقد قاتلوا
قبل هذه المرة) .

وكان قبيصة عند حسن ظن المغيرة ، فعباً ثلاثة آلاف مقاتل ،
وهم نقاوة الشيعة ، وفرسانهم ، فأتى معقل بن قيس المغيرة يسلم
عليه ويودعه ، فقال له المغيرة : يا معقل بن قيس إني قد بعثت
معك فرسان أهل مصر ، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً ، فسر إلى
هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا ، وشهدوا علينا بالكفر ،
فادعهم إلى التوبة ، وإلى الدخول في الجماعة ، فإن فعلوا فاقبل
منهم واكف عنهم ، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم واستعن بالله عليهم .

فأجابه معقل بحماس ووعي :

سندعوهم ونعذر ، وإيم الله ما أرى أن يقبلوا ، ولئن لم يقبلوا
الحق لا تقبل منهم الباطل .

ومضى الجيش على اسم الله ، ولم تنته معاركه الطاحنة مع
الخوارج إلا بقمع الفتنة والقضاء على المارقين ، وقتل قائدهم ،
وعادت وحدة الكلمة للأمة بعقريّة المغيرة ، وحسن بلاء المجاهدين
من شيعة علي رضي الله عنه في العراق .

لقد توحدت الطاقات كلها ضد الخوارج ، وكانت نهروانا
جديدة حسمت الموقف مع العابثين بوحدّة الأمة المسلمة .



زياد بن أبيه أميراً للمشرق

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أكثر ما يشغله - العراق - الكوفة والبصرة . وهذا معاوية قد اطمأن إلى الكوفة رغم وجود أكبر خصومه السياسيين فيها ، وذلك بسبب حكمة المغيرة وعبقريته ، وهو الذي استطاع أن يوجه الطاقات كلها ضد الخوارج ، ويدلّل الأمر للخليفة في هذا المصر بحسن سياسته .

أما البصرة وما وراءها فكان عليها عبد الله بن عامر ، ورغم بلاء عبد الله بن عامر في الفتوح ؛ إلا أن جانب اللين عنده كان غالباً عليه ، فأدى ذلك اللين إلى أن يفلت زمام الأمر من يده ، فشاعت الفوضى ، وانتشر اللصوص ، وعيث الفساق واختل الأمن ، وأصبحت البصرة وما وراءها مسرحاً للفتن .

وكان زياد بن أبيه قد اختار الكوفة مقاماً له بعد بيعته للخليفة ، وهو كالأسد المصفد في أغلاله ، يرى هذا العبث والفوضى ، والرعب بين الناس ، ولا سبيل له ولا سلطان له على أحد ، وشكا ابن عامر أمير البصرة إلى زياد بن أبيه فساد الناس وظهور الخبث ، فقال : جرد فيهم السيف .

قال الأمير : إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي .

وبلغ السيل الزبي ، فتداعى العقلاء ، ودعوه إلى الصرامة في تنفيذ حدود الله .

فقال : أنا أتألف الناس فكيف انظر إلى رجل قد قطعت إباه وأخاه .

وكان هذا الخط كذلك خروجاً على المنهج الإسلامي الذي جعل الحدود نكالا بالمجرمين وجعلها ردعاً للعابثين ، وأكد القرآن على أن الرحمة في مثل هذه الأمور خيانة للأمانة الملقاة على عاتق الإمام .

لقد أكد القرآن هذا المعنى حين قال بصدد عقوبة الزنى :

(. . . ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) .

أما معاوية الخليفة ، فقد بقي يحمل أعباء الخلافة على عاتقه وحده بعد أن فقد ركنه الركين عمرو بن العاص ، وتتبع أنباء العراق وما يجري في هذا البلد الذي حاربه أربع سنين ، وجعل كلما حضر وفد إليه سألته سؤال اللهفان .

كان أكثر ما يشغله شأن البصرة ، وذات مرة أحب أن يعلم علمها من أهل الكوفة حين حضر وفد منها إليه وفيهم ابن الكواء الشكري .

فقال الرجل :

إن أهل البصرة أكلهم سفهاؤهم ، وضعف عنهم سلطانهم !!

ولم تكن هذه أول الاخبار التي تصل معاوية عن البصرة ، وهي قد شغلت تفكيره طويلاً . . . وأخيراً رأى أن لابد من تولية زياد للبصرة ، ليضبط الساحة العابثة . لكن لابن عامر من حق القرابة ، وقدم الجهاد ما يخرجه . . لا ، إن مصلحة الأمة فوق مصلحة

الأفراد ، ولا بدّ من وال حازم عاقل للبصرة ، وليس لها إلا زياد ،
الذي أصبح يدعى : زياد بن أبيه بعد أن استلحقه معاوية بنسبه (١) .

وكان هذا في السنة الرابعة من خلافته ، حيث أحكم أمير
المؤمنين إدارة الدولة من كل جوانبها ، وأحاطها جميعها بسياس
حزمه وحكمته .

واستدعى معاوية عبد الله بن عامر أمير البصرة لزيارته ، ف جاء
ابن عامر ونزل ضيفاً على الخليفة معزراً مكرماً ، ولم يفتح بشيء
من أمر إمارته . وعندما أوشك على المسير قام معاوية يودعه
ويشيعه ، وفي اللحظة الأخيرة القى سهمه الصائب :

معاوية : إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هنّ لك .

ابن عامر : هنّ لك وأنا ابن أم حكيم .

(١) يقول القاضي ابو بكر بن العربي في كتابه العواصم من
القواصم ص ٢٤٠ - ٢٤١ :

وأما نكتة الكلام وهو القول في استلحاق معاوية زياداً ، وأخذ
الناس عليه في ذلك فأى أخذ عليه فيه إن كان سمع ذلك من أبيه ؟
وأي عار على أبي سفيان في أن يلبط بنفسه ولد زنى كان في الجاهلية!
فمعلوم أن سمية لم تكن لأبي سفيان ، كما لم تكن وليدة زمعة لعتبة .
لكن كان لعتبة منازع تعين القضاء له ، ولم يكن لمعاوية منازع في
زياد فالحارث بن كلدة لم يدع زياداً ، ولا كان إليه منسوباً ،
وإنما كان ابن أمته ولد على فراشه - أي في داره - فكل من ادعاه
فهو له ، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه . فلم يكن على معاوية
في ذلك مغمز ؛ بل فعل فيه الحق على مذهب مالك . فإن قيل :
فلم أنكر عليه الصحابة ؟ قلنا : لأنها مسألة اجتهاد ، فمن رأى
أن النسب لا يلحق بالوارث الواحد أنكر ذلك وعظمه .

معاوية : ترد عليّ عملي ولا تغضب .

ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وتهب لي مالك بعرفة ؟

ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وتهب لي دورك بمكة .

ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وصلتك رحم .

وعرف ابن عامر أن الأمر أفلت من يده ، وهو يحس في أعماقه أن الأمر أكبر منه ، واستعمل ذكائه في اللحظة المناسبة ، فقال ابن عامر :

يا أمير المؤمنين إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هن لك .

قال : هن لك وأنا ابن هند .

ابن عامر : ترد عليّ مالي بعرفة .

معاوية : قد فعلت .

ابن عامر : ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً .

معاوية : قد فعلت .

ابن عامر : وتنكحني ابنتك هنداً .

معاوية : قد فعلت (١) .

وبذلك انتهت الأزمة .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٣ - ٢١٤ . عن عمر بن شبة عن علي بن محمد .

وخلافاً للمعهود بعث معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي في نوع من الإيهام ليكون والياً على البصرة حتى ينسى الناس والأهل عزل ابن عامر . كان هذا في سنة خمس وأربعين ، وبعد مرور أربعة أشهر أعلن معاوية تولية زياد أميراً على البصرة ، ومع البصرة خراسان وسجستان ، وبذلك اطمأن إلى المشرق كله فقد جمع له الهند والبحرين وعمان .

فلنتابع زياداً والي البصرة ، لنشهد عبقريته ، ووقع إمارته على قادة البصرة وعلى سفهائها العابثين .

ولنستمع مع المسلمين في المسجد الجامع بالبصرة ، تلك الخطبة التي قلبت الموازين وزلزلت أركان العابثين (١) .



(١) قيل : إنه لم يحمد الله فيها فسميت البتراء . وقيل : إنه حمد الله فقال : الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ، اللهم كما رزقتنا نعماً فألهمنا شكراً على نعمتك علينا .

من الخلافة إلى الملك

قال زياد في خطبته :

أما بعد :

فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر (الفجور)
الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيها ؛ ما يأتي سفهاءكم ، ويشتمل
عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشي
منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآي الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم
تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم
لأهل معصيته ، في الزمن السرمد الذي لا يزول .

أتكونون كمن طرقت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ،
واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام
الحدث الذي لم تسبقوا به ؛ من ترككم هذه المواخير المنصوبة ،
والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل .

ألم تكن منكم نهاية تمنع الفواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟!!

قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغطون
على المختلس ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف
عقاباً ، ولا يرجو معاداً !! ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ،
ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ،
ثم اطرقوا وراءكم كنوساً (مستترين) في مكائس الريب .

حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله ؛ لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبرية وعنف (. . .) .

وصدق زياد . فالإسلام هو الذي يصلح هذه الأمة ، ولا بد من تهديم المواخير وقمع المنكر ، وتسوية بيوت الانحراف بالأرض هدماً وإحراقاً .

وماذا يستطيع أهل البصرة أن يردوا به على زياد أميرهم الجديد ؟!

أما المبدأ الذي أعلنه في الجانب السياسي فهو مبدأ إسلامي خالد ، وهو الذي يناسب الأمة الوسط في دينها ، في بعدها عن الغلو في الإفراط أو التفريط .

أما القسم الثاني من الخطبة ، فيختلف تماماً عن المنهج الأول .

قال : وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح بالسقيم ؛ حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد . أو تستقيم لي قناتكم (. . .) .

ووقوفنا مع هذه الخطبة عند هذه الفقرة يطلعنا على انحراف ضخّم عن المفهوم الإسلامي للحكم ، وهو الذي كان المنطلق الأول لتحول الحكم من خلافة إلى ملك .

إن الملك ينطلق من اتخاذ كل الوسائل الممكنة نظيفة أو غير نظيفة للوصول إلى الغاية ، أما مفهوم الخلافة فلا يتنازل عن سلامة الوسيلة وسلامة الغاية ، بل يتعبد الله بالوسيلة والغاية معاً .

فالملك يعتمد الإرهاب والقوة والفتك ليصل إلى غايته ، ولو كانت الغاية الحكم بشريعة الله ، بينما ترفض الخلافة ذلك .

ثم يعلن زياد بيانه السياسي الهام المعبر عن اتجاهات الدولة :

١ - إن كذبة المنبر تبقى مشهورة ، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة ، فقد حلت لكم معصيتي .

٢ - من بُيئت منكم فأنا ضامن لما ذهب له .

٣ - إياي ودلج الليل ، فإنني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي .

٤ - وإياي ودعوى الجاهلية ، فإنني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

٥ - وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقته ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفف يدي وأذاي .

٦ - لا يظهر من أحدٍ منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بيني وبين أقوام إحْن ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته .

٧ - إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترأ حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره .

٨ - فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس .

٩ - أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا) .

إن مفهوم الخلافة الإسلامي ينطلق من بيعة الناس للخليفة ، وميزان الطاعة والمعصية فيه هو طاعة الله ومعصيته ، فالسلطان ليس تفويضاً من الله بمقدار ما هو وكالة من الأمة .

يقول الصديق سيد الخلفاء رضي الله عنه :

(إني وليت عليكم ولست بخيركم ، إن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني) .

وشتان بين هذا النص ونص زياد :

(إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا) .

فالصديق يربط الولاية بالأمة نفسها ، وللأمة التقويم عند الخطأ ، أما زياد فيربط الولاية بعباء الله هذا السلطان للحاكم .

وهذا هو الفرق الأول بين الخلافة والملك ، ونلاحظ هذا الموقف من خلال المبادئ التالية :

— إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه .

— إياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

— لا يظهر أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

فسفك الدم وقطع اللسان وضرب العنق ومنع المناظرة ، ليست من نظام الإسلام في الحكم في شيء .

فرسول الله ﷺ يقول :

(لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والشيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) .

أما أن يكون مجرد إعلان الرأي أو المعارضة كافياً لضرب العنق وسفك الدم ؛ فهذا مالم يعهده نظام الخلافة الإسلامي أبداً .

ومنع المناظرة لمن أبدى رأيه ، هي سمات الفتك في الملك وليست من سمات الخلافة . أين هذا الموقف من موقف عثمان رضي الله عنه وهو يناقش الناس وينظرهم على المنبر ، ويدعوهم من الآفاق ليستمع منهم إلى رأيهم في ولاتهم ، ويعزل الولاة ممن يثبت لديه صحة اتهامهم .

أين هذا من منع المناظرة وسفك الدم ، ودفن الأحياء .

إن في شريعة الله وأحكامه سعة (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) .

وتطبيق شريعة الله هو الكفيل بتحقيق العدل ، وضبط الأمن ، وحفظ الاعراض والأموال ، أما التجاوز بقتل أي معارض ، ودفن أي معترض ، وسفك دم أي مجرم ، وضرب عنق أي مخالف للرأي العام حوله ، وضبط النفس بالإرهاب والقوة ، ثم تطبيق شريعة الله بعد ذلك ؛ فهذا من مفهوم الملك بلا شك ، وليس من مفهوم الخلافة .

أما الفرق الثاني فهو في مفهوم المال :

ونحن نرى أن مفهوم المال في نظام الخلافة الإسلامي لا يخرج عن أن يكون مالاً للأمة ؛ كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم ، إن استغفيت استغففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف) .

وقد حدد هذا المعروف بقوله :

(إنه لا يحل لممر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به وأعتمر ، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قریش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين) .

ولقد أقام أبو ذر الدنيا وأقعدھا على معاوية رضي الله عنهما يوم قال عن المال : مال الله ، ولم يقل مال المسلمين ، ولم يتركه حتى تعهد له معاوية رضي الله عنه بإعادة التسمية .

(أما إني لن أقول أن المال لغير الله ، ولكني أقول المال مال المسلمين) .

وكم الفرق كبير بين قول عمر رضي الله عنه السابق ، وقول زياد :

(ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا) .

وهذا معاوية رضي الله عنه نراه يختبر وضع الناس ومفهومهم حول المال في الحادثة المذكورة .

فمن أبي قبيل عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنه صعد المنبر يوم الجمعة فقال في خطبته : إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد .

فلما كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك ، فلم يجبه أحد .

فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال : كلا إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيا فنا !!

فنزل معاوية ، فأرسل إلى الرجل فأدخله ، فقال القوم : هلك الرجل . ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير ، فقال معاوية :

إن هذا أحياني أحياء الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة) . وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد عليّ أحد ، فخشيت أن أكون منهم ، ثم تكلمت في الجمعة الثانية ، فلم يرد عليّ أحد ، فقلت في نفسي : إني من القوم . فلما تكلمت في الجمعة الثالثة ، فقام هذا الرجل فرد عليّ فأحياني أحياء الله (١) .

إنها تقوى معاوية رضي الله عنه في حرصه على هدي النبوة ، وخشيته أن يكون في حكمه بعيداً عن منهج الله فيتقحم في النار . وأي شيء يقوله حتى يثير ردود الفعل عند الناس ؟!

لم يجد خيراً من أن يمسه في أموالهم ، وهو أول حاكم يعلن هذا الموقف النشاز عن منهج سلفه .

ولقد ملأ قلبه الرعب يوم لم يرد عليه أحد في خطبته هذه .

ترى هل هلك نتيجة خوف الناس ورعبهم منه .؟؟!

إن أي حاكم في الأرض بلا عقيدة ينتفش وينتفخ يوم يرى انصياع الناس وطاعتهم له ، فلا يجرؤ صوت أن يرتفع بمخالفة .

وتكراره الأمر في الجمعة الثانية والثالثة يدل على مدى عظمة العقيدة في كيانه ، ومدى خوفه الرهيب من النار أن يهلك بهذا الحكم الذي آل إليه .

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وأبو يعلى ، قال الهيثمي : رجاله ثقات .

ولكنه في الجمعة الثالثة اطمأن إلى أن الأمة لا تزال بخير ، وأنها تقول للظالم يا ظالم ، وأنها لا تخاف في الله لومة لائم .

أما عندما يبلغ الطفيان مبلغه ، ويبلغ الذعر بالناس كما قال زياد : انج سعد فقد هلك سعيد ؛ عندها تستحق الأمة الفناء ، وتصيب الفتنة الحاكمين والمحكومين على السواء . ولا شك أن معاوية الخليفة رضي الله عنه قد أعاد الثقة للنفوس ، حين تهامسوا فيما بينهم فيما قاله عن تخوفه الهلاك ، وعرفت الأمة أن حاكمها هو تمة ذلك العقد من الخلفاء .

إنما يمكن القول : إن هذا لم يكن عاماً في أرجاء الخلافة الإسلامية ، ففي بعض الولايات أصبح الناس يخافون قول الحق ، ولا يأمنون على حياتهم إذا طالبوا بحقوقهم ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الانتقال من الخلافة إلى الملك . وهذا بعض الاضطراب الذي نلاحظه في خطبة زياد التي عمل بنودها بدقة متناهية ، ولا يمكن الفصل بين معاوية وزياد في الوقت نفسه لأن زياداً والي معاوية ، ولو كان غير راضٍ عن هذا الموقف السياسي لعزل زياداً ووضع والياً آخر مكانه .

والجانب الثالث الذي نرى فيه اختلافاً عن منهج الخلافة الراشدة هو ميزان الطاعة للحاكم .

فالميزان الذي قدمه زياد لفرض الطاعة على المسلمين ، واستحقاق الحاكمين لها ؛ هو العدل ، وهذا الميزان وإن كان من الموازين الدقيقة التي يقوّم بها الحاكمون في الإسلام ، لكنما الميزان الأول الذي يشمل فيما يشمل العدل هو طاعة الله ورسوله . حدّد ذلك رسول الله ﷺ حين قال :

(اسمعوا واطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى) (١) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٢) .

ولقد طبق سيد الخلفاء أبو بكر رضي الله عنه هذا المنهج تمام التطبيق يوم قال في خطبة توليّه الخلافة : (اطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) .

وهنا تفرق الخلافة عن الملك كذلك .

ويختم زياد خطبته بقوله :

(واعلموا اني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث :

لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانة ، ولا مُجَمَّراً لكم بعثاً (مبقياً جيشاً) في أرض العدو أكثر من أربعة أشهر .

فادعوا الله بالصالح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ؛ فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ؛ مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كل . وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على اذلاله .

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه الخمسة .

وايم الله إن لي فيكم لصرى كثيرة . فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي (١) .

هذا البرنامج السياسي الذي أعلنه زياد من النقاط العشر ؛ كان أمراً خطيراً في تاريخ الإمارات الإسلامية ، فهدف إقامة الحدود ، وضبط المجتمع بالشريعة الإسلامية ، وإقامة الجهاد في سبيل الله ؛ بقي هو الأول والأعلى في هذا البرنامج السياسي . أما الخروج على المنهج الإسلامي ، فكان في :

١ - التخلي عن إرادة الأمة المسلمة في الحكم .

٢ - اللجوء إلى العنف والارهاب فيه .

٣ - منع الناس من محاسبة الولاة على تصرفاتهم المالية .

٤ - اعتبار الطاعة مرتبطة بالعدل ، لا بتطبيق شريعة الله .

وإن كانت هذه الأخيرة لا تعني خروج الحاكمين عن هذه الشريعة إلى شريعة أخرى ، إنما تعني أن بعض المخالفات لهذه الشريعة في المال والحكم قد تمرّ دون تغيير أو إصلاح .

ولعل هناك من يعذر زياداً في هذا النهج لطبيعة الفوضى والعبث والفساد المنتشر في البصرة ، لكن الإسلام لا يقبل هذا العذر ، ويعتبر الحكم بهذه الطريقة انتقلاً من الخلافة إلى الملك .

فعن سعيد بن جهمان ، عن سفينة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٧ - ٢١٩ . عن عمر (ثقة) عن علي (ثقة) عن مسلمة (مجهول) والهذلي (اخباري علامة لين الحديث) .

(خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء) .
 قال سعيد : قال لي سفينة : أمسيك عليك !! أبو بكر سنتين ،
 وعمر عشرأ ، وعثمان اثنتي عشرة ، وعلي كذا .
 قال سعيد : قلت لسفينة : إن هؤلاء يزعمون أن علياً رضي
 الله عنه لم يكن بخليفة ، قال : كذبت أستاه بني الزرقاء - يعني
 بني مروان - (١) .



(١) رواه الامام أحمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن
 حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، واللفظ لأبي داود .
 وقال الترمذي عن هذا الحديث : حديث حسن قد رواه غير
 واحد عن سعيد بن جهمان ولا يعرفه إلا من حديثه .
 يقول الهيثمي : قلت : قد رواه عبد الله ابن الإمام أحمد من
 حديث أبي ریحانة - واسمه عبد الله بن مطر البصري - عن سفينة
 رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، فقال
 رجل كان حاضراً في المجلس :
 قد دخلت من هذه الثلاثين سنة وستة شهور في خلافة معاوية .
 فقال : من هاهنا أتيت ، تلك الشهور كانت البيعة للحسن
 ابن علي بايعه أربعون ألفاً ، أو اثنان وأربعون ألفاً .

قال ابن كثير :

كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين وأربعة أشهر ، إلا
 عشر ليال . وكانت خلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين وستة أشهر

وإذا عدنا في الذاكرة إلى زياد وهو معتصم بفارس ، وإلى أخيه من أمه أبي بكره صاحب رسول الله ﷺ وهو يحمي ولد زياد عند معاوية ويأخذ الأمان لزياد ، وراينا مدى إجلال معاوية لأبي بكره ؛ يطالعنا هذا الحديث بين أبي بكره الذي لا يخشى في الله لومة لائم مع معاوية الحاكم :

فمن عبد الرحمن بن أبي بكره قال :

وفدنا إلى معاوية مع زياد ومعنا أبو بكره رضي الله عنه ، فدخلنا عليه ، فقال له معاوية رضي الله عنه :

حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عسى الله أن ينفعنا به .

قال : نعم . كان نبي الله ﷺ يعجبه الرؤيا الصالحة ويسأل عنها ، فقال رسول الله ﷺ : أيكم رأى رؤيا ؟

فقال رجل : أنا يا رسول الله ، إني رايت رؤيا : رايت كأن ميزانا دلي من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت بأبي بكر ،

→

وأربعة أيام . وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً . وكانت خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه خمس سنين إلا شهرين . قال : وتكمل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وهذا من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

وقال ابن كثير أيضاً : والسنة أن يقال لمعاوية رضي الله عنه : ملك ، ولا يقال له : خليفة ؛ لحديث سفينة رضي الله عنه .

ثم وزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر بعمر ، ثم وزن عمر بعثمان فرجح عمر بعثمان ، ثم رفع الميزان . فاستاء لها رسول الله ﷺ ثم قال :

خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء .

فغضب معاوية فرج في اقفاؤنا واخرجنا .

فقال زياد لأبي بكر : اما وجدت من حديث رسول الله ﷺ حديثاً تحدثه غير هذا .

فقال : والله لا أحدثه إلا به حتى افارقه .

قال : فلم يزل زياد يطلب الاذن حتى اذن لنا ، فأدخلنا ، فقال معاوية : يا أبا بكر حدثنا بحديث عن رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعنا به .

قال : فحدثه أيضاً بمثل حديثه الأول ، فقال له معاوية :

لا أبا لك تخبرنا أنا ملوك ، فقد رضىنا أن نكون ملوكاً (١) .



ثم نتساءل بعد هذا كله : كيف كان وقع بيان زياد على الأمة المسلمة ؟

نلاحظ ذلك من خلال ثلاثة نماذج :

(١) رواه الإمام أحمد ، والطيالسي . ورواه أبو داود مختصراً دون الوفادة على معاوية ، وهو حديث حسن . وقد رواه مختصراً كذلك الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

أولاً : انموذج المتزلفين والمنافقين ، نراه من خلال عبد الله بن
الاهتم حيث قال :

أشهد أيها الأمير انك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب .
وعلى ما يبدو فهؤلاء لن يكون لهم صولة ودور عند زياد ، إذ
أجابه على الثناء الكاذب بقوله :

(كذبت ذاك نبي الله داود عليه السلام) .

وبذلك قطع دابر الفئة التي تعيش على الفتات وتحيا بالمديح
الزائف للحكام .

ثانياً : انموذج قلب الأمة وعصبها الحي . ويمثل هؤلاء الأحنف
ابن قيس سيد بني تميم ، الذي قال :

(قد قلت فأحسننت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد
بعد العطاء ، وإنا لن نثني حتى نبتلي) .
فقال زياد : صدقت .

ثالثاً : انموذج المتطرفين في الأمة - الخوارج - ونرى نموذجاً
لهؤلاء أبا بلال مرداس بن أدية الذي قال وهو يهمس :

(انبأ الله بغير ما قلت ، قال الله عز وجل : « وإبراهيم الذي
وَفَّى . ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .
فأوعدنا الله خيراً مما واعدت يا زياد (١) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٩ ، عن عمر بن شبة (ثقة) عن علي
ابن محمد (صدوق) عن مسلمة (مجهول) والهللي (أخباري لين
الحديث) .

وصدق أبو بلال بن أدية . ولكن أنى للبشر أن يملك العدل التام الشامل .

ويعلم زياد ما وراء قول أبي بلال ، والتجمع الذي يمثل رأيه . فقال له وقد فهم كل منهما على صاحبه :

إننا لا نجد إلى ما تريد أنت وأصحابك سبيلاً حتى نخوض إليها الدماء .

وإشارة زياد تعني أنه لا بد من العنف والأخذ بالظنّة حتى يستقيم العدل فيما بعد ، وكان زياد كما قال ابن جرير :

أول من شدّ أمر السلطان ، واكد الملك لمعاوية ، والزم الناس بالطاعة .

وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف وأخذ بالظنّة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً . حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تفلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلاً . وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وأدرّ العطاء وبنى مدينة الرزق .

وقيل لزياد : إن السبل مخوفة .

فقال : لا أعاني شيئاً سوى المصر ؛ حتى أغلب على المصر وأصلحه ، فإن غلبني المصر فغيره أشد غلبة .

فلما ضبط مصر تكلف ما سوى ذلك فأحكمه . وكان يقول :

(لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه) .

واستعان زياد بعدة من أصحاب النبي ﷺ ، منهم : عمران بن حصين الخزاعي ، ولاء قضاء البصرة ، والحكم بن عمرو الغفاري ولاء خراسان ، وسمرة بن جندب ، وانس بن مالك ، وعبد الرحمن ابن سمرة . فاستعفاه عمران فاعفاه . واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي ، ثم أخاه عاصم بن فضالة ، ثم زرارة بن أوفى الجرشي ، وكانت أخته لبابة عند زياد (١) .

وكان من مظاهر الملك لدى زياد : أنه أول من سير بين يديه بالحراب ، ومشى بين يديه بالعمد ، واتخذ الحرس رابطة خمسمائة ، واستعمل عليهم شيبان صاحب مقبرة شيبان من بني سعد ، فكانوا لا يبرحون المسجد .

وبذلك اطمأن معاوية إلى المشرق الإسلامي الذي عاداه أربع سنين متواليات .



(١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٤ عن عمر بن شبة عن علي بن محمد .
وقد سبقت ترجمتهم .

قِيَادَاتُ بَنِي أُمَيَّةٍ تَحْتَجُّ وَتُنْذِرُ

لا شك أن بني أُمَيَّةٍ قد وقفوا مع معاوية بكل ثقلهم في حربه مع علي رضي الله عنه. وعندما انتهى الأمر ببيعة أمير المؤمنين كانوا يتطلعون إلى قيادة الدولة بجانبه، وأن يكون لهم المواقع الأولى في السلطة. فهم شيعة وعمل ثقته وعندهم من الكفاءات والطاقات ما لا يقل عن غيرهم. وعلى رأس هؤلاء ثلاثة من ستة كانوا مرشحين عنده للخلافة بعده وهم:

كريم قریش سعيد بن العاص.

وفتي قریش دهاء وحياء وسخاء عبد الله بن عامر.

والقارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله مروان بن الحكم^(١).

ولم يكن بعيداً عن الساحة كذلك ولدا عثمان بن عفان رضي الله عنه سعيد بن عثمان وإبان بن عثمان.

وإذا بهم يواجهون بأن أعظم السلطات بيد الرجلين عمرو بن

(١) الثلاثة الآخرون كما سيأتي هم: الحسن بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

العاص وزياد بن أبيه . فالمشرق الإسلامي بيد زياد . والمغرب الإسلامي بيد عمرو .

تداعى بنو أمية إلى لقاء عاجل واجتمعوا في دار مروان بن الحكم . لكن عبقرية معاوية كانت قد أدركت مثل هذا القلق . وقبل أن يتم مثل هذا اللقاء كان قد عهد بالمدينة لمروان بن الحكم . بصفته ممثلاً لهذه القيادات .

وولاية المدينة المنورة ليست بالأمر السهل . فجيل الصحابة والتابعين . وكرام الأمة وقياداتها وشخصياتها العلمية والسياسية والعسكرية في المدينة . وقبل أربع سنين أو خمس كانت هي العاصمة الكبرى لدولة الإسلام .

(فأتوا مروان بن الحكم في بيته ، وقد كتب له معاوية عهده على المدينة وأمره أن يسير يومه ذلك فقال القوم :

يا مروان إنك شيخنا وكبيرنا ، وقد ترى ما ركبنا معاوية من أمر ليس لنا عليه صبر ولا قرار ، ولا ينাম عن مثله الأحرار ، إدخاله فينا من ليس منا ، يريد أن يدخله على حرمانا ونسائنا ، وقد اجتمع رأينا على أن تأتيه فتعابه . فإن رجع قبلنا وإن أبى اعتزلنا .

فقال مروان : قد والله كلمته في هذا الأمر غير مرة فلم يجبني إلى شيء مما أحب ، بل يظهر لي التعتب والغضب . ويزعم أي في هذا الأمر أوحده .

فقال له سعيد بن العاص : يا مروان بل والله تحامي عن عهدك .

فقال مروان : والله لصلاحكم في فساد عهدي أحب إلي من

فسادكم في صلاح عهدي فاتوه فإنه رجل له إرب (دهاء) ونظر فكلموه بملء أفواهكم).

ولقد أصاب معاوية مرماه، وجاء سهمه في مقتل. فإن يتخلف مروان عن مشاركتهم في هذا الاحتجاج هو أول ثلثة ووهن في تحركهم للهدف الذي يريدون. وسواءً كان تخلف مروان ليأسه من التغيير أم المحافظة على عهده في المدينة، فالقضيتان لصالح معاوية أمير المؤمنين. فهو لا يريد أن يبخس أهله حقهم. فيتخلوا عنه ويخذلوه. ولا يريد أن يظأ الناس بهم ويفسح لهم مجال الاستغلال والعلو على عباد الله.

فانطلق القوم فاستأذنوا على معاوية. فأذن لهم، فسلموا، فأحسن الرد وكان فيما قال: أهلاً وسهلاً، قرب الله الديار، وأدنى المزار، أزيارة فتخطى؟ أم حاجة فتقضى؟ أم سخطة فترضى؟ فقالوا: كلا يا أمير المؤمنين.

قال: هاتوا. فجلس القوم ومثل عبد الرحمن بن الحكم بين يديه فقال:

يا أمير المؤمنين جاءتك عصابة من رهطك، وأحرار من أسرتك، كلهم عارف بفضلك، راع لحقك، تابع لأمرك، رافع لذكرك. في أمر ستره خير من نشره، وتركه خير من ذكره. لعظم البلية والخطيئة والأواء والبلوى والآفات والعاهات، واعلم أنا لم نأتك تجنياً ولا تجرماً ولا تعتياً. بل جئناك في أمر قد عجزت عن حمله الجنوب، وضائق به القلوب. وكرهنا أن نطويه عنك، فيثبت ذلك في قلوبنا ما لا يحصد لإبانه، ولا يبيد لزمانه. فإن تأذن قبلنا، وإن تأب صمتنا. مع أنك إن رجعت إلى ما تحب حمدنا وشكرنا، وإن تأب ذلك سمعنا وأطعنا).

لئن غاب مروان بن الحكم عن شهود المجلس. فهذا عبد الرحمن بن الحكم أخوه. قد حضر وعبد الرحمن شاعر فحل. قد وضع كل ثقله وبلاغته وفصاحته بين يدي أمير المؤمنين معاوية ليثنيه عن رأيه. والفشل في الهدف هذه المرة هو فشل نهائي، فالوفد كله قدم والإذن إن تم. فقد لا يتم مرة ثانية.

وحرص عبد الرحمن أن يقدم الكثير عن الأمر الخطير الذي جاؤوا من أجله، ليستجمع قلب معاوية كله، وانتباهه كله. ويوضح من جهة ثانية خطر ما جاؤوا من أجله. ومدى استفظاعهم له، واستهجانهم إياه. لكن هل ترزعزع بلاغة ابن الحكم هذا الجبل الأشم؟ لنر.

(فقال معاوية: هات لله أبوك.

قال: يا أمير المؤمنين إن أُمّية بن عبد شمس ولد عشرة ذكوراً. ولد حرباً وأباً حرب وسفيان وأباً سفيان، وعمراً وأباً عمرو، والعاصي وأباً العاص والعيص وأباً العيص. لم يلد عبيد^(١) مولى ثقيف، ولا العاص بن وائل. وقد جعلتهما شعارك دون دثارك، بل سربالك دون إزارك، بل نفسك بين جنبيك، ثم لم ترض لابن عبيد حتى جعلته ابن أبي سفيان عضيهة لأبيك، وازدراء بينيك، ومع أن في ذلك السخظة من ربك، والمخالفة لنبيك ﷺ إذ قضى بالولد للفراش، وللعاهر الحجر^(٢)،

(١) وَلَدَ زِيَادَ عَلَى فَرَّاشٍ عُبَيْدٌ مَوْلَى ثَقِيفٍ. فكان يقال له زياد بن عبيد ثم استلحقه معاوية بأبيه.

(٢) الولد للفراش وللعاهر الحجر. أخرجه البخاري ٢٠٤/٩ والترمذي ١٠٣/٥.

ففضيت أنت بالولد ثم نسبت أباك عاهراً. وكان غنياً عن ذلك،
فشهرت أمراً تريد أن تدخله على حرمك، وتمنح ولده غداً نساءك. ثم
قال:

أترضى يا معاوية بن حرب
بأن تحبو كرائمك العبيدا
كأني والذي أصبحت عبداً
له بالقوم قد شركوا يزيدا
فإن ترجع فمثلك زاد خيراً
وإن تأبى فلم تطع الرشيدا

وأما عمرو بن العاص فإنك ألزمت نفسك الحاجة إليه. فالزم
نفسه الغنى عنك، وايم الله لنحن أنصع جيوباً، وأقل عيوناً، وأمس
رحماً، وأوجب حقاً منه وما من أمر يبلغ فيه بنا عنه تقصير. غير أنك
رفعت المرء فوق قدره، فطغى علينا بفخره، وزخر ببحره. حتى صار
كأنه شيء وليس بشيء. وإنك وإياه وإيانا كما قال الشاعر الأول:

من الناس من يصل الأبعدين
ويشقى به الأقرب الأقرب

لقد كانت جرأة ابن الحكم لا حد لها بين يدي معاوية، وتجاوز
كل المخاوف وهو يفضي عمّا في نفسه. ولولا اعتماده على ما اشتهر به
معاوية من حلم، لما اقتحم هذه المهلكة. فلم يترك باباً إلا طرقه، ولا
منفذاً إلا دخله ليحطم هذين الرجلين بين يدي معاوية، والذي جعل
ظهره قوياً لذلك أن أشراف بني أمية وراءه جميعاً، لم يتخلف منهم رجل
واحد. ولقد اعتمد العصية القبلية وأثارها من قبرها الهاجعة فيه،

فأعادها حيّة تجار وتثار. وغمز من قناة معاوية في رفعه لنسب زياد أن يزوجه من كرائم بني أمية غداً هو وولده. وهو ابن سفاح وليس ابن نكاح. ونال من عمرو، وصغر من شأنه. وأنه لم يبلغ هذا المقام بكفاءته بمقدار ما ناله من رفع معاوية له. ثم عرج على الجانب الإسلامي واعتبر استلحاق زياد معصية لله سبحانه، مع أن ابن الحكم هذا كان لا يتورع في هجائه عند حد.

وحقيقة الأمر لو كان غير معاوية لأسقط في يده فكراً بما ساقه ابن الحكم من حجج، وأسقط في يده عاطفة وهو يرى احتمال انشقاق قبيلته عنه وتخليها عن عونه، وخضع لمثل هذا الابتزاز الرهيب.

ثم ثنى السيد الثاني في بني أمية سعيد بن العاص. فانبرى يقول:

(يا أمير المؤمنين: إن خير القول أصدقه، وأشد القول أملكه، وإن الحق الأبلج أقوم إلى طريق النهج. وإنك قد أتيت أمراً عظيماً ناهياً متبائناً تابعت فيه، وركبت في ذلك عقبة كؤوداً، صيخداً^(١) صيخوداً في تنائف^(٢) لا يهتدى فيها بدليل، ولا يؤم فيها قصد سبيل. قصّرت في ذلك برأيك، وأزريت بأبيك فإن ترجع قبلنا، وإن تأب غضبنا. فارجع إلى الله تباركت أسماؤه، وانظر ما الذي أقدمت عليه من أنك عمدت إلى امرئ لا رحم بينك وبينه ولا هوادة. وإنما عهدك به بالأمس وهو عامل علي بن أبي طالب يلعنك ويلعن أباك وأهل بيتك على المنبر، يتأول فينا القرآن، ويقول البهتان، وقد كنت تجترىء من ذلك إذا عظمته أن تجعله وزيراً وخلصاناً فلا يعاب ذلك عليك، ولا ينسب الخطأ إليك. فلم

(١) الصيخود: الشديدة.

(٢) تنائف: واحدتها تنوفة وهي الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

يرض حتى نسبته لأبي سفيان؛ إلى نسب إن يقبل منه عيّرت به آخر
دهرك. وإن رُدَّ عليك أزریت به، وصدقت في ذلك قول الشاعر حيث
يقول^(١):

ألا أبلغ معاوية بن حرب
مغلغة^(٢) من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عِفٌّ
وترضى أن يقول أباك زان
فأشهد أن رحمك من زياد
كرحم الفيل من ولد الأتان^(٣)

وايم الله لكأني أنظر إلى ولده من بعده قد تفخذوا نساء بني عبد
شمس بنسب أبي سفيان. فهذا ما وصلت به كرائمك من بعدك. وأما
عمرو بن العاص فإنك آثرته علينا، وأدنيته دوننا، ونحن في حالٍ
وعمر في أخرى. أما نحن فنعامل الناس بالوفاء والحياء، وعمر يعامل
الناس بالمكر والخداع. ومن كان كذلك فلا وفاء له، وقد تبين لأمر
المؤمنين غشّه إياه في بعض الحالات. فليس ينبغي لمن غش أولاً أن يقبل
منه آخراً..

ومع أن لهجة سعيد كانت أخفّ حنقاً من لهجة ابن الحكم. لكنها

(١) الأبيات ليزيد بن مفرغ الحميري ويقال إنها لعبد الرحمن بن
الحكم.

(٢) مغلغة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد.

(٣) الأتان: أنثى الحمار.

كانت تحمل في ثناياها نقداً لاذعاً، وتهديداً خفياً كما يقول:
(فإن ترجع قبلنا، وإن تأب غضبنا)

وليس سهلاً على معاوية غضب أعمدة عشيرته منه.

وهو حين يذكره بالله لا ينسى أن يثير فيه نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء (وايم الله لكأني أنظر إلى ولده من بعده قد تفخذوا نساء بني أمية).

ولا ينسى أن يثير الإحن القديمة يوم أن كان زياد عدواً لهدوداً له. وشخصية سعيد ودعائه لا يتناسب معها هذه الإثارة الخبيثة. فليس ينقص من قدر معاوية أن استطاع أن يستل بغضه من قلب عدوه اللدود له، وأن يسخره لصالح الأمة والجماعة. وقد أدرك سعيد ذلك، وسرعان ما تدارك هذه السقطة. واعتبر اتخاذ عمرو وزيراً لمعاوية لا تنقص من قدره. إنما مضى ليلح على استلحاقه بنسبه. وهيج نخوة معاوية في لحاق العار له بزنا أبيه، ثم ثنى بعمر بن العاص، فنال من إخلاصه لمعاوية، وشكك في وفائه له، بينها هو وقادة بني أمية لا يتطرق الشك بإخلاصهم ووفائهم له، فالحكم حكمهم، والدولة دولتهم.

(ثم دخل مروان عند جلوس القوم فقال معاوية: هيه يا مروان أعن رأيك صدر هؤلاء حتى أسمعوني ما أكره؟

قال: يا أمير المؤمنين هل تدري ما مثلنا ومثلك؟

قال: هات تخطيطاً كتخطيط أصحابك.

قال: إن عدي بن زيد العبادي نصح النعمان بن المنذر، وقدمه على إخوته وأشار على كسرى بولايته. فكان جزاؤه منه أن حبسه في السجن. فكتب إليه وهو محبوس:

أبا منذر جازيت بالودّ بغضة
فماذا جزاء المبغض المتبغض
مجازاته في ذا المثال كراهة
ولست لشيء بعد بالمتعرّض

واعلم أنا غير متعرضين لشيء من معاتبتك في هذا الأمر بعد اليوم. فإن ترجع قبلنا، وإن تأب سخطنا. مع أنك - والله يا أمير المؤمنين - لو قدرت أن تتكثر بالذبح على آل أبي العاص لفعلت توحشاً منك لعددهم، وتكرهاً منك لجمعهم، وتبرماً منك بهم. وإيم الله ما ذاك جزاؤهم منك، لقد آثروك وأكرموك فما كافيت ولا جازيت ولا آسيت).

إن معاوية بن أبا سفيان أمام تهديد سافر بتخليّ عشيرته عنه وغضبهم منه. فهل يخضع لهذه الضغوط، ويقصي هذين الرجلين حفاظاً على ودّ عشيرته، ونصرتها له؟ إنه وهو يسمع لهم يستعرض بذهنه خريطة العالم الإسلامي كله والذي أصبح في عهده. فهل يثيرها عصبية أموية. وبالتالي كلما خضع لضغط لا بدّ أن يخضع لضغط آخر بعده. حتى يصبح أسيراً لهم يتحكمون به كما يشاؤون وشخصيات العالم الإسلامي، وقياداته، ورجالات بني هاشم، وبني مخزوم، والبقية الباقية من قريش، ماذا يفعل بهم؟ هل يثير هؤلاء جميعاً ضده؟

إنه لو قبل هذه الضغوط. فهذا يعني أنه لا يملك حرية الاستفادة من الطاقات الضخمة في الدولة الإسلامية. ولن يتمكن من تقريب أحد إلا من عشيرته الأذنين. إنه بين نارين وخطرين.

بين نار تخلي رجالات بني أمية عنه، وهذا قصم لظهره، وتركه في

العراء دون نصير في الوقت الذي تعتلج عشرات القلوب ببغضه من بني هاشم وشيعة علي، والخوارج فهولا يطمئن لهؤلاء أن يقود بهم دولته.

وبين نار وقوعه في برائن رجالات بني أمية، ولن يفلت بعد من قبضتهم، وسيضطر إلى نصرهم في الحق والباطل، أو يتوعدونه بالتخلي عنه، وهو بحاجة إلى الأكفاء من الأمة مهما كان مشربهم ونسبهم.

هنا تتجلى عبقرية معاوية رضي الله عنه في حساب هذه التوازنات جميعاً في الأمة وعلى طبيعته وسجيته. فلن يترك المجال لغضبه وثورته أن تتحكم في الأمر.

لقد سمع كل ما أفرغوه من جعبتهم نحوه (وقام فدخل المنزل وأطال المكث) إنه لا يرضى أن يتخذ موقفاً انطلاقاً من نزوة عارضة أو انفصال طارئ.

كما قال عن دهائه لعمر بن العاص:

(لكني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه) ..

فلم تتمكن كل تلك الإثارات أن تدفعه لموقف عاجل يندم عليه. بل مضى، وترك قومه وما يقررون، وراجع كل ما سمع، واستعرض الأحداث والمواقف والرجال والاحتمالات. وقلب كل وجوه النظر، وخرج في موقف محدد واضح لمواجهة هذه الأزمة العنيفة والتي تستعصي على جهابذة الرجال.

وثم خرج قاطباً ما بين عينيه يمسح عارضيه^(١)، ثم جلس على

(١) العارضان: جانباً الوجه وشفحتا الخد.

سريره واستقبل القوم، وأنشأ يقول:

أما والذي نادى من الطور عبده
نداءً سميعاً فاستجاب وسلم
لقد كدت لولا الله لا شيء غيره
تبارك ربي ذو العلى أن أصم
ولكنني رؤيت في الحلم والنهى
وقد قال فيه ذو المقال وأحكم

عرف معاوية أن الثلاثة قد صدروا عن معنى واحد وهو النيل منه لموقفه من زياد واستلحاقه له بالنسب. فعالج هذه القضية من كل جانب، وسدّ عليهم كل المنافذ من خلال عرض محكم متسلسل.

(وايم الله مع ذلك لقد قطعتم من زياد رحماً قريبة، ونفساً حبيبة، وقلتم البهتان في غير ما ثبت ولا بيان. وإني لعلّى يقين من أمري).

فإذا كان الأمر عندهم هو تعيير أبي سفيان بالزنا.

(ولقد وضع الله ما كان من الجاهلية من البغي والحمية، وطلب التراث، وذكر قبيح الأمهات فسفك الدماء، والشرك برب السماء أعظم مما كان فيه أبو سفيان).

وما كان الزنا في الجاهلية عاراً يعير به الرجل. وليس بعد الإشراك بالله عار. فما يسقط من مقام أبي سفيان أن يذكر بأمر كان في الجاهلية. والإسلام جبّ ما قبله ثم عرّج على الدوافع العميقة التي دفعتهم لهذا الموقف، وأنه ليس رضا الله هو الهدف.

(وايم الله ما إياه راقبتم، ولا لي نظرتم. بل أدرككم الحسد

القديم لبني حرب بن أمية). ها هو يضرب على وتر جديد يكشف فيه مخبوءاً عند عشيرته. ألا وهو حسد معاوية بالذات، أو بتعبير أدق حسد بني أبي العاص بن أمية لبني حرب بن أمية.

ثم ها هو يعرض بهم بتنفيذ حدّ الله فيهم فيما يفترون على معاوية، وما يتهمونه به من عدم الغيرة على عرضه ونسائه، وما يثرونه من حمية الجاهلية.

(وإن نفسي لتؤامرني أن أقيم فيكم حدّ الله، وما أراه يسعني غير ذلك) ثم ترتفع لهجة التهديد إلى الذروة.

(ولئن عدتم إلى ما أرى، وجاءني من وراء ما أكره لأنهلنكم^(١) صاباً^(٢))، ثم لأعلنكم^(٣) علقماً، ثم لأوردنكم حياضاً مريراً طعمها، ثم لا تتركون بغير كرعها وإن جاءكم الموت من كل مكان حتى تعلموا مع طول علمي أن قد مُنيتم بمن إن حزّ قطع وإن همز أوجع، ثم لا تقبل عندي لكم العثرات، ولا تعفى لكم السيئات، ثم ليستصعبن عليكم ما كان عندي سهلاً، ولتتركن ما كان هيناً...).

وظاهر الأمر أنه قطع ما بينه وبينهم من أوصال، وحكم بالقطيعة. لكن له جولات وجولات.

والجولة الثانية عنده هي أن لا يدعهم يمضون وهم يشعرون بهزيمته إذا تخلّوا عنه، أو أنهم قادرون على إسقاطه إذا ابتعدوا عنه.

(١) النهل: أول الشرب.

(٢) الصاب والعلقم: الشراب المرّ.

(٣) العل: الشربة الثانية.

(فأما ما ذكرتم أني أصبت السلطان والمُلْك بحقكم ونسبتكم فوالله إنكم لتعلمون يا آل أبي العاص أن عثمان بن عفان - رحمة الله عليه - قُتل وأنتم حضور وأنا غائب. فوالله ما كان فيكم مَنْ مدَّ باعاً ولا بسط ذراعاً. بل أسلمتموه للْحُتُوفِ وشمتم^(١) من بعده السيوف. فما نصرتموه ولا آسيتموه، ولا منعتموه بأكثر من الكلام فما أبلِيتُمْ بذلك عذراً ولا ألهبتم ناراً. وإن جميع مَنْ أَلَّب عليكم وأجلب لبسببكم وإيثاره إياكم، وبذلك قطعت أوداجه^(٢) على أثباجه^(٣)، وسفك دمه واستحلت حرمة فما شبيتم فيه ناراً ولا طلبتم ثأراً...).

وإنه لتقريع أيّ تقريع فهو من جهة تعيير لهم بتخاذلهم عن نصره عثمان رضي الله عنه وهو أقرب منهم رحماً. فهو من آل أبي العاص بن أمية وليس من ولد حرب بن أمية ومن جهة أخرى فهو نيل منهم كذلك أنهم إن عجزوا عن نصره عثمان فهم أعجز من أن يهزّوا كيان الدولة الإسلامية إن تحاذلوا عن معاوية.

ثم مضى في جولة ثالثة؛ وبحصافة وصراحة متناهيتين يبرز لهم الأهوال التي خاضها والمراكب الصعبة التي ركبها في حرب علي رضي الله عنه، ووجدتها فرصة سانحة يثني فيها على خصمه بما لم يسمع منه إلا في مثل هذا الموقف.

(... حتى كنت أنا الطالب بالتراث، المتكل للأمهات، ولقد منيت من الطلب بدمه بحرب امرئ لا تخور قناته، ولا تتصدع صفاته،

(١) شمتتم: أغمدتم.

(٢) الأوداج: عروق في العنق.

(٣) الأثباج: واحدها الثبج وهو ما بين الكاهل إلى الظهر.

من إذا فزعْتُ لم يفزع، وإن أُطمعتُ لم يطمع. مَنْ لا يطمع في قراره، ولا يُنام من حذاره. بليت - والله - بليت ثابتة أنيابه، قليل غُلابه مصمم غضوب، شثن مهيب^(١). فلم أزل له ولأصحابه صابراً حتى قضى الله منه ما أحب. وهو الحاكم في ملكه بما يشاء تبارك وتعالى. فأدركت بالثار إذ لم تدركوا، وصبرت إذا لم تصبروا...).

ولا شك أنه كلما كان القرن المناجز قوياً وشجاعاً كلما كان النصر أضخم. وما ساق معاوية هذه الأمور بقصد الفخر والثناء على علي فقط. ولكنه يريد أن يصل إلى هدف محدد، وأن يوضح فكرة غاية في الأهمية بالنسبة لهم وله. إنه يودّ أن يؤكد أنه لم يستمدّ سلطانه منهم، أو عزته وقوته من قوتهم. إنما وصل إلى ما وصل إليه بصبره وجَلَدِه وجهاده وحكمته، وتأدب مع ذلك، فلم يعتبر انتصاره على علي رضوان الله عليه عائداً إلى قوته وشجاعته فيزدهيه الغرور بذلك، إنما اعتبر الأمر إرادة ربانية أن يؤتي الله الملّك مَنْ يشاء، وينزعه مَنْ يشاء خاصة وهو يعرف أنه لم يستطع أن يحسم الأمر مع أمير المؤمنين علي في معركة، ولم يهزمه في موقعه، ولم يكن قتله بتخطيطه، وكل ما أعانه في ذلك هو تنازل الحسن رضوان الله عليه عن الأمر له. ولا شك أنه من تمام مروءة الرجال أن يعرف الحقوق لأصحابها. وأن يقدر بطولة علي رضي الله عنه وصولاته، ولو كان خصمه الألدّ.

وها هو قد استطاع في الجولة الأخيرة أن يصرع أنداده من بني أمية بالحجة والبيان، ويتغلب عليهم عقلياً ونفسياً من خلال ما رسم وخطط.

(١) شثن: خشن غليظ الكف.

(... فأتينا أحقَّ بالشكر أنا لكم أم أنتم لي) ..

وبهذه البلاغة الرائعة أعاد الكرة إلى مرماهم . وهيهات أن يقدرُوا الدفاع . (وقد كانت تبلغني عنكم هنات قبل مخضة زبدتكم . كل ذلك أتعطف عليكم بحلمي وأتحنن عليكم بجهدي ، وكنت في ذلك كما قال أخو بكر بن وائل :

أعوذ على ذي الذنب والجهل منكم
بحلمي ولو عاقبت غرقكم بحري
فما بال من يسعى لأجبر عظمه
حفاظاً وينوي من سفاوته كسري

والله ما رأيته قط إلا ونفسي تدعوني إلى الحلم قبل ساعتي هذه .
فالحمد لله الذي كفاني شرَّ ما دعيتني إليه نفسي . ثم قال :

أولى ثم أولى ، أما إني في وعيدي إياكم كما قال الأول :

لقد كدتُم يا آل بكر سفاهة
تثيرون مني أعصل^(١) الناب ضيفما
هزّ براً هريثاً^(٢) يكره القرن قربه
إذا صال من بعد الزئير وصمما

وها هو يصرعهم في الجولة الأخيرة ، ثم يدعو عمرو بن العاص ليجهز عليهم ويدفع عليهم .

(١) أعصل الناب : معوج في صلابه .

(٢) هريثاً : مهيباً .

(...) وأما عمرو بن العاص فما هو حاضر فإن شاء أن يجيب عن نفسه فليفعل وإن شاء أن يدع فليدع، أما إني أرضاه للخصم إذا جمع، وللقرن إذا طمع.

فقام عمرو بن العاص ماثلاً بين يديه فقال:

يا أمير المؤمنين أنا الذي أقول بصفتين:

إذا تحازرت وما بي من خزر^(١)

ثم كسرت العين من غير عور

الفتني ألوي بعيد المستمر

أحمل ما حملت من خير وشر

إني والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بالغر^(٢) ولا الغمر^(٣)، ولا الضرع^(٤) ولا الورع^(٥)، ولا الواني ولا الفاني، وإني لأنا الحية الصماء التي لا يُبَلُّ^(٦) سليمها، ولا ينাম كليهما^(٧). وإني أنا المرء إن كُويت أنضجت، وإن همزت كسرت. فَمَنْ شاء فليشاور، وَمَنْ شاء فليؤامر.

(١) الخزر: النظر في مؤخرة العين أمانة الغضب.

(٢) الغر: الشاب الذي لا تجربة له.

(٣) الغمر: لم يجرب الأمور.

(٤) الضرع: الضعيف.

(٥) الورع: الجبان.

(٦) يُبَلُّ: يشفى.

(٧) كليهما: جريحها.

كان هدف معاوية من كلام عمرو متعمّد الجوانب . فهو يوّد منه أن يدافع عن نفسه وقد ظلم ، كما يوّد أن يريّ قومه طاقاته وإمكاناته . ويوّد من وراء هذا كله المشاركة معه في غزو القوم ، وتأكيد معاني قوته وسلطانه .

(. . . مع أنهم يا أمير المؤمنين لو عاينوا من يوم الحرير ما عانيت ، أو ولّوا مثل ما ولّيت ، إذ شدّ علينا أبو حسن في كتائبه مع أهل البصائر ، وأبطال العشائر ، فهناك يا أمير المؤمنين شخصت الأبصار ، وارتفع الشرار ، وقلصت الخصي إلى مواضع الكلى^(١) وقارعت الأمهات عن ثكلها ، وذهلت عن حملها ، واحمر الحلق ، واغبرّ الأفق ، وألجم العرق وارتفع غبار القتام^(٢) ، وصبر الكرام وفاض اللثام وذهب الكلام ، وأزبدت الأشداق ، وقامت الحرب على ساق ، وحضر الفراق ، وكثر العناق ، وبانت الأعناق ، وقامت الرجال على ركبها^(٣) بعد فناء في نبلها ، وتقصف في رماحها ، فلا يسمح إلا التغمغم في الرجال والتحمحم^(٤) في الخيل ، ووقع السيوف في الهام . فدار يومنا ذلك حتى طفقنا الليل بغسقه ثم انجلى الصبح بفلقه ولم يبق من القتال إلا الحرير^(٥) والزئير . أما والله لعلموا أني أعظم غناءً ، وأحسن بلاءً ، وأصبر على اللأواء منهم ، وإني كما قال الشاعر :

(١) قلصت الخصي إلى مواضع الكلى : كناية عن الخوف .

(٢) القتام : الغبار الأسود .

(٣) قامت الرجال على ركبها : كناية عن الالتحام المباشر بالسيوف .

(٤) التحمحم : صوت صهيل الخيل .

(٥) الحرير : من أيام صفين وهو صوت الكلب دون نباحه .

وأغضي على أشياء لو شئت قلتها
ولو قلتها لم أبقِ للصالح موضعاً

فإن كان عودي من نضار^(١) فإني
لأكره يوماً أن أُحطم خروعا^(٢)

ولئن جعلني أمير المؤمنين شعاره دون دثاره، أو سرباله دون
إزاره، أو نفسه بين جنبيه، لقد أوليت ذلك فوجدته شكوراً ذكوراً، إذ لم
تشكروه ولم تذكروه ولا إياي إذ طلبنا بدم عثمان إذ لم تحسبوه، وبلغنا
الغاية إذ لم تبلغوا، وإذ جحدتم أمير المؤمنين فأنتم للنعمى أنكر وأكفر.

وأما ما زعمت يا سعيد بن العاص^(٣) أني أعامل الناس بالمكر
والخداع فإني أنال بالأدب واللب، والرفق والصدق، إذ خرق من لم
يرفق، وخاب من لم يصدق.

وأما قولك أني غششت أمير المؤمنين فما غش امرؤ كريم امرأً
كريمًا، إن دعا إلى النصف أن يقبله، وإنك في قولك لأمر المؤمنين لأهل
للتضعيف والتعنيف، والغضاضة والمضاضة، غير أن حلمه يأتي ما وراء
ذلك كله. وإني أسألك يا أمير المؤمنين أن تغفو للقوم ما قالوا إن هم آلوا
لاستتمام نعمتك عليهم، وأياديك عندهم، فليسوا راجعين إلى أمر
تكرهه إن شاء الله.

(١) عود من نضار: عود من أثل بغور الحجاز وهو قوي.

(٢) الخروج: كل نبت ضعيف يثنى.

(٣) لا بدّ من الملاحظة أن عمرو بن العاص ليس من بني أمية^١
ولكنه من بني سهم وكانوا أقل شأنًا من بني أمية.

قال معاوية : قد فعلت يا أبا عبد الله .

ودخل ، وأمر القوم فانصرفوا»^(١) .

وهل انتهى الأمر يا تُرى بهذه الصورة بينه وبين قادة بني أمية؟

إن خسارة واحد من هذين الرجلين الكبيرين خسارة لا تعوّض .
وكان معاوية رضي الله عنه يدرك هذا المعنى أيما إدراك . وقد رأينا كيف
أنه رمى المدينة بمروان بن الحكم ، ومَن يستطيع حكم المدينة غيره ، وغير
صاحبه سعيد بن العاص؟

تُرى هل يغيّر معاوية نهجه فيعزل مروان عن المدينة بعد تلك
المواجهة العنيفة؟! أبدأً ، لقد عاد فأكد ولاية مروان بن الحكم عليها .
وكان هذا الأمر يعني استجابة غير مباشرة لاحتجاج قادة بني أمية . وبلغ
به الدهاء مبلغاً أعظم . أن صار يراوح بين الرجلين سعيد بن العاص ،
ومروان بن الحكم في إمرة المدينة ، وكما ذكر ابن كثير عن سعيد (وولاه
المدينة مرتين ، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم)^(٢) .

ولا أدلّ على مستوى التنافس بين الرجلين من هذه المحاوراة بين
سعيد ومعاوية .

معاوية : كيف تركت أبا عبد الله (يعني مروان) .

(١) ورد هذا النص بكامله في كتاب الموفقيات للزبير بن بكار .
ورواته الزبير (ثقة أخطأ السليماني في تضعيفه) عن أبي الحسن الأثرم
(فيه لين) عن أبي عبيدة معمر بن المثنى (صدوق أخباري) .

(٢) البداية بالنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٨٧ .

قال: تركته منفذاً لأمرِك مصلحاً لعملك.

قال معاوية: إنه كصاحب الخبزة، كفي إنضاجها فأكلها.

قال: كلا يا أمير المؤمنين إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا.

قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟

قال: خفته على شرفي، وخافني على مثله.

قال: فأَيُّ شيء كان له عندك؟

قال: أسوؤه حاضراً، وأسرّه غائباً^(١).

وقد أثبت الرجلان جدارة وكفاءة عالية في ولايتهما. والمدينة مصانع الرجال ومعامل الأبطال. تكاد لا تجد فيها إلا شريفاً أو قائداً. من المهاجرين والأنصار وذرائعهم.

وحرص معاوية على الاستفادة من كل الطاقات في الأمة دون أن يكون لأحد سيف مصلّت عليه، بل الجميع يتسابقون في طاعته.

غير أنه كان يرفض زعامة فارغة. فهذا أخوه عنبسة بن أبي سفيان، كان له ثأر عند عبد الله بن خالد بن أسيد، وقد أخذ عبد الله ألفي درهم بعد ولايته ومضى إلى مكة، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يمتحن مروءة عنبسة، فقال له:

قد ولّيتك على الحجاز (حيث يقيم عبد الله).

فتنهياً عنبسة ثم دخل عليه يودعه فقال له: ما أنت صانع بعبد الله بن خالد؟

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

قال : أضرب والله بيده وجهه . فقال معاوية :

بئس - والله - ابن العشيرة ، أنت تصنع بعبد الله هذا؟ ، والله لقد كنت عليه حقيقاً مغتاضاً وقد عطفني عليه ما سمعته من عنفك به ، هي والله له ، ولا كتبت إليك في شيء منها أبداً ، قد عزلتك عن عملك .



مَعَاوِيَةُ وَأَشْرَافُ أَهْلِ الْبَيْتِ

هذا موقف معاوية رضي الله عنه من أهل بيته وشيعته. لكن ما هو موقفه من أشراف بني هاشم وأهل بيت رسول الله ﷺ، وشيعة علي بن أبي طالب؟

إن الحكم العضوض الذي نعرفه يستأصل دائماً شأفة أعدائه ومنافسيه. وكثيراً ما يستقر الحكم على مجامع هؤلاء الأعداء والخصوم. فأين نرى شخصية معاوية رضي الله عنه في هذا الميزان؟

لقد كان معاوية ملكاً حقاً. لكنه كان يملك من العبقريّة والكفاءة ما يجعله خليفاً بهذا المُلْك، ولم يعتمد البطش والإرهاب سبيلاً لسيطرته واستتباب حكمه، بل كانت السياسة الرشيدة العاقلة الحكيمة التي اختطّها هي التي حفظت له هذا المُلْك عشرين عاماً دون منازع. ولا أبالغ إذا قلت إن نهج معاوية في هذا الشأن هو قبس من نهج النبوة. فكان غزو القلوب والإحسان إليها هو الأصل، مع الوعي والحذر الشديدين أن لا تنتفض الأمة عليه.

لقد كان يبذل المال بلا حساب لهذه القيادات، ويعتبر أن عليها

مسؤوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون مليئة لتسد الخلة، وتلبي الحاجة، وتحل المعضلة. ولعل أشرف بني هاشم كانوا في هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقاً عليهم بالمال، ولا بدع، فهم لا يزالون في عُرف الناس القيادات الشعبية التي تمثل جماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمرء.

هذا من جانب. أما من جانب آخر، فلم يشارك من هذه القيادات أحد في الحكم. إنها كانت تمثل حزب المعارضة، ولا ترتاح للمشاركة في الحكم تحت قيادة معاوية. والحفاظ على وحدة الأمة هو الذي ألجأها إلى قبول معاوية أميراً للمؤمنين ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا شخصية زياد بن أبيه الذي ضمّه معاوية إلى حزبه حين استلحقه بنسبه.

فكل الذين شاركوا في حرب معاوية أربع سنين متواليات، لا يتصور أن يشاركوا معه في الحكم من الناحية النفسية، ومن الناحية السياسية غير مؤهلة للمشاركة مع النظام الحاكم، لكنها انتهت إليها السيادة الشعبية.

ولنلق نظرة على هذه الشخصيات:

الحسن بن علي، الحسين، عبد الله بن عباس، عقیل بن أبي طالب، عبد الله بن جعفر، عبيد الله بن عباس.

هذا الحسن يغادر الكوفة بعد تنازله لمعاوية رضي الله عنهما (ومعه

أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق إلى أرض المدينة^(١). وقد كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركباً، ويرى هذا من النعم عليه. وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس أن يحطمونها مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما. وكان ابن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسين بن علي، وقال غيره: كان الحسن بن علي إذا صلى الغداة في مسجد رسول الله ﷺ يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده، ثم يقول فيدخل على أمهات المؤمنين فيسلم عليهن، وربما أتحنفنه ثم ينصرف إلى منزله. ولما نزل لمعاوية عن الخلافة من ورعه صيانة لدماء المسلمين، كان له على معاوية في كل عام جائزة، وكان يفد إليه، فربما أجازته بأربعمئة ألف درهم، وراتبه في كل سنة مائة ألف. فانقطع سنة عن الذهاب، وجاء وقت الجائزة فاحتاج الحسن إليها - وكان من أكرم الناس - فأراد أن يكتب إلى معاوية ليعث بها إليه، فلما نام تلك الليلة رأى رسول الله في المنام فقال له: يا بني أكتب إلى مخلوق بحاجتك؟ وعلمه دعاء يدعو به، فترك الحسن ما كان همّ به من الكتابة، فذكره معاوية وافتقده، وقال: ابعثوا إليه بمائتي ألف فلعل له ضرورة من تركه القدوم علينا، فحملت إليه من غير سؤال.. قالوا: وقاسم الله ما له ثلاث مرات، وخرج عن ماله مرتين، وحجّ خساً

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٠.

وعشرين مرة ماشياً وإن النجائب^(١) لتُقاد بين يديه^(٢).

هذا هو زعيم المعارضة في المجتمع الإسلامي، الحسن بن علي رضي الله عنهما، وهذه هي مواصفاته، وهذا موقف معاوية منه. فأَيَّ مجتمع هذا الذي تسوده هذه العلاقات بعد حرب ضروس استمرت أربع سنين متواليات؟!

لقد كان الحسن على عهده الذي هو فيه أميراً غير متوّج تفد إليه السادات من كل مكان، ويقصده طلاب الحاجات من كل صقيع. وأشدّ ما وقع بينه وبين الحاكمين ما رواه محمد بن إسحاق قال: (ما تكلم عندي أحد كان أحبّ إليّ إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي، وما سمعت منه كلمة فحش قطّ إلا مرة، فإنه كان بينه وبين عمرو بن عثمان خصومة. فقال: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه، فهذه أشدّ كلمة فحش سمعتها منه قطّ.

وعن رزين بن سوار قال: كان بين الحسن ومروان خصومة فجعل مروان يغلظ للحسن وحسن ساكت. فامتخط مروان بيمينه، فقال له الحسن: ويحك! أما علمت أن اليمنى للوجه، والشمال للفرج؟ أفّ لك، فسكت مروان.

(١) النجائب: النوق.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨، ص ٣٨ و ٣٩.

وقال جويرية بن أسماء: لما مات الحسن بكى عليه مروان في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه؟ فقال: إني كنت أفعل إلى أحلم من هذا. وأشار إلى الجبل^(١).

وعن جابر قال: شهدنا حسن بن علي يوم مات وكادت الفتنة تقع بين الحسين بن علي ومروان بن الحكم. وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يدفن مع رسول الله ﷺ فإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شر فليدفن بالبقيع. فأبى مروان أن يدعه. قال جابر فكلمت يومئذ حسين بن علي فقلت: اتق الله ولا تُثر فتنة، فإن أخاك كان لا يحب ما ترى، فادفنه بالبقيع مع أمه ففعل^(٢).

وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام^(٣).

بعد وفاة الحسن رضي الله عنه آلت زعامة المعارضة إلى أخيه الحسين رضي الله عنه، ولم تتغير سياسة الدولة معه.

فعن بريدة قال: قَدِمَ الحسن بن علي والحسين فأجازهما على الفور بمائتي ألف وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي، فقال له الحسين: ولم تعط أحداً أفضل منا.

(١) المصدر نفسه ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦.

أما ابن عباس رضي الله عنهما فقال:

(دخلت على معاوية حين كان الصلح وهو أول ما التقيت أنا وهو، فإذا عنده أناس فقال: مرحباً بابن عباس، ما تحاكت الفتنة بيني وبين أحد كان أعزَّ عليَّ بعداً ولا أحبَّ إليَّ قُرباً منك، الحمد لله الذي أمات عليّاً، فقلت له: إن الله لا يذمُّ في قضائه، وغير هذا الحديث أحسن منه، ثم قلت له: أحب أن تعفيني من ابن عمِّي، وأعفيك من ابن عمِّك، قال: ذلك لك^(١)).

(ثم وفد على معاوية فأكرمه وقُرِّبه واحترمه وعظَّمه، وكان يلقي عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية، فعزَّاه فيه بأحسن تعزية، وردَّ عليه ابن عباس ردّاً حسناً^(٢))، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس وعزَّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس^(٣)).

أما تعزية معاوية رضي الله عنه وإجازته لابن عباس. فكما رواها قتادة (..). ثم قال لابن عباس: لا يسؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي.

(١) البداية والنهاية ج ٨، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه ٣٠٧/٨.

فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزنني الله ولا يسوءني ما أبقي الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء، وقال: خذها فاقسمها في أهلِكَ^(١).

أما كيف كان ابن عباس يقود الأمة فنستمع إلى ما رواه أبو صالح عنه قال:

(لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها به الفخر، لقد رأيت الناس اجتمعوا على بابه حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر أن يجيء ولا أن يذهب قال، فدخلت عليه، فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي: ضع لي وضوءاً، قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: مَنْ كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أريد منه فليدخل، قال فخرجت فأذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحُجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثله ما سألوا عنه وأكثر، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل مَنْ أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، قال فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحُجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله أو أكثر ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: مَنْ كان يريد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها، فليدخل، فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة. فما

(١) المصدر نفسه ٨/١٤٠.

سألوه عن شيء إلا أخبرهم وزادهم مثله أو أكثر. ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: مَنْ كان يريد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب في الكلام فليدخل، فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله. قال أبو صالح: فلو أن قريشاً كلها فخرت بذلك لكان فخراً. فما رأيت مثل هذا لأحدٍ من الناس^(١).

هذا مع الأمة... وحتى مع أمير المؤمنين فهو مصدر العلم الذي يفيء إليه.

(فعن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله عن أحب الكلام إلى الله عز وجل، ومن أكرم العباد على الله عز وجل، ومن أكرم الإمام على الله عز وجل، وعن أربعة فيهم الروح فلم يركضوا في رحم، وعن قبر سار بصاحبه، وعن مكان في الأرض لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة، وعن قوس قزح ما هو؟ وعن المجرة.)

فبعث معاوية فسأل ابن عباس عنهن فكتب ابن عباس إليه:

أما أحب الكلام إلى الله ف سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأكرم العباد على الله، آدم، خلقه

(١) المصدر نفسه ٣٠٥/٨.

بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأكرم الإمام على الله مريم بنت عمران وأما الأربعة الذين لم يركضوا في رحم فآدم وحواء وعصى موسى وكبش إبراهيم الذي فدى به إسماعيل - وفي رواية ناقة صالح - وأما القبر الذي سار بصاحبه فهو حوت يونس، وأما المكان الذي لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فهو البحر لما انفلق لموسى حتى جاز بنو إسرائيل فيه، وأما قوس قزح فأمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب في السماء (وفي رواية) الذي ينشق منه^(١).

* * *

أما أخوه عبيد الله بن عباس، فهذه لمحة عن شخصيته..

(وكان يقدّم هو وأخوه عبد الله المدينة، فيوسعهم عبد الله علماً، ويوسعهم عبيد الله كرمًا. وقد روي أنه نزل في مسير له مع مولى له على خيمة رجل من الأعراب، فلما رآه الأعرابي أعظمه وأجلّه، ورأى حسنه وشكله، فقال لامرأته: ويحك ماذا عندك لضيفنا هذا؟ فقالت: ليس عندنا إلا هذه التسوية التي حياة ابنتك من لبنها، فقال: إنه لا بد من ذبحها، فقالت: أتقتل ابنتك؟ فقال: وإن.

فأخذ الشفرة والشاة وجعل يذبحها ويسلخها وهو يقول مرتجراً:

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٣٠٦ - ٣٠٧.

يا جارقى لا توقظى البنية إن توقظيها تنتحب عليه

وتنزع الشفرة بين يديه

ثم هيأها طعاماً فوضعها بين يدي عبيد الله ومولاه فعشاهما، وكان عبيد الله قد سمع محاورته لامرأته في الشاة، فلما أراد الارتحال قال لمولاه: ويملك ماذا معك من المال؟ فقال: معي خمسمائة دينار فضلت من نفقتك، فقال: ادفعها إلى الأعرابي، فقال: سبحان الله! تعطيه خمسمائة دينار، وإنما ذبح لك شاة واحدة تساوي خمسة دراهم؟ فقال: ويحك والله هو أسخى منّا وأجود، لأنه إنما أعطيناه بعض ما غلّك، وجاد هو علينا بجميع ما يملك، وآثرنا على مهجة نفسه وولده. فبلغ ذلك معاوية فقال: لله درّ عبيد الله، من أيّ بيضة خرج؟ ومن أيّ شيء درج^(١).

* * *

وماذا عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي ارتفعت حظوته عند معاوية رضي الله عنهم، فصار صديقاً مقرباً له.

قال ابن داب: (كان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة ألف ألف، ويقضى له مائة حاجة. فقَدِمَ عليه عاماً فأعطاه المال، وقضى له الحاجات، وبقيت منها واحدة فيبينها هو عنده إذ قَدِمَ أصفهَند سجستان يطلب من معاوية أن يملكه على تلك البلاد، ووعد مَنْ قضى

(١) المصدر نفسه ٩٤/٨.

له هذه الحاجة من ماله ألف ألف، فطاف على رؤوس الأشهاد والأمراء من أهل الشام وأمراء العراق، تَمَّنَ قَدِمَ مع الأحنف بن قيس، فكلهم يقولون: عليك بعبد الله بن جعفر، فقصدته الدهقان فكلم فيه ابن جعفر معاوية، ففضى حاجته تكملة المائة حاجة، وأمر الكاتب فكتب له عهده، وخرج به ابن جعفر إلى الدهقان فسجد له وحمل إليه ألف ألف درهم. فقال له ابن جعفر:

اسجد لله واحمل مالك إلى منزلك فإننا أهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن فبلغ ذلك معاوية فقال: لأن يكون يزيد قالها أحب إلي من خراج العراق، أبت بنو هاشم إلا كرمًا^(١).

* * *

ولعل عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قد جرت الصلوات معه ومعاوية في الإمرة وقبل الخلافة. ومن أطرف ما يروى عن هذه العلاقة.

عن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال:

بلغني أن معاوية قال لعمر بن العاص: إن الناس قد رفعوا أعينهم، ومدّوا أعناقهم إلى بني عبد المطلب. فلو نظرنا إلى رجل منهم فيه لوثة فاستملناه. فقال عمرو: عندك عقيل بن أبي طالب. فلما أصبح واجتمع الناس دخل عليه عقيل.

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ١٤٠.

فقال له : يا أبا يزيد أنا خير لك أم علي؟

فقال : أنت خير لنا من علي ، وعلي خير لنفسه منك .

فضحك معاوية ، فضحك عقيل ، فقال له : ما يضحك يا أبا

يزيد؟

قال : أضحك أني كنت أنظر إلى أصحاب عليّ يوم أتيتّه ، فلم أرَ معه إلا المهاجرين والأنصار وأبناءهم ، وألفت الساعة ، فلم أرَ إلا أبناء الطلقاء وبقايا الأحزاب . فقال معاوية : يا أهل الشام أتدرون من هذا؟ قالوا : لا . قال : أسمعتم قول الله عزّ جل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ قالوا : نعم . قال : إنه والله عمّ هذا .

قال عقيل : صدق أمير المؤمنين ، فهل قرأتم في كتاب الله تعالى ﴿ وامراته حمالة الحطب ﴾ فهي والله عمّة معاوية .

قال له معاوية : الحق بأهلك حسبنا ما لقينا من أخيك .

قال له عقيل : أما والله لقد تركتُ مع علي الدين والسابقة ، وأقبلتُ إلى دنياك فما أصبتُ دينه ، ولا نلتُ من دنياك طائلاً . فأعطاه وأكثرَ له .

قال : فدعا معاوية عمرو بن العاص فقال : ويحك يا عمرو هذا الذي زعمت أنه أهوج بني عبد المطلب؟

قال: ما ذنبي يا أمير المؤمنين، ما علمت منه إلا ما تعلم، فقال
معاوية في ذلك:

ألا يا عمر وعمر و قبيل سهم
لقد أخطأت رأيك في عقال
بليتُ بحية صماء باتت
تلفتُ أين ملتصق القليل
بعين تنفذ البیداء لحظاً
وناب غير مصقول كليل
وقد كانت ترجفه قریش
على عمياء من قال وقيل
ألا لله درُّ أبي يزيد
لهرج الأمر والخطب الجليل
فما خاصمت مثلك من خصيم
ولا حاولت مثلك من حوysl
أتاني زائراً، ورأى عليّاً
قليل المال منقطع الخليل
فقليل له معاوية بن حرب
فمال أبو يزيد إلى مميل
فأجزلت العطاء له ودبت
عقاربه لسالفه الدخول

فلم يرض الكثير وقد أراه
سخوطاً للكثير وللقليل

فرجع عقيل إلى علي، فأخبره الخبر. فقال:

كان في نفس معاوية شيء، فما أحب أنك لم تأت، فقد انقطع
ظهر من بني عبد المطلب^(١).



(١) الموفقيات للزبير بن بكار ص ٣٣٦.

مَعَاوِيَةُ وَمَوْقِفُهُ مِنَ الْخُصُومِ

رأينا موقف أمير المؤمنين من الخصوم المنافسين سواءً مَنْ كان منهم من أهل بيته أو من بني هاشم. ويمكن أن نلاحظ هذا الموقف من نموذجين آخرين.

النموذج الأول: قريش، وأبناؤها الذين ينافسون على الخلافة. إذ أن هذا الأمر قد استقر في الفقه الإسلامي أن الخلافة في قريش حيث حسم هذا الأمر بعد بيعة الصديق رضي الله عنه. ولم يشذ في المجتمع الإسلامي عن هذا الرأي إلا الخوارج، وقد رأينا موقفه منهم من قبل.

النموذج الثاني: الشخصيات الكبيرة على مستوى قادة القبائل العربية ومن الذين كانوا في حربهم بجانب علي رضي الله عنه. والتي كانت تشكل قلقاً لمعاوية فيما تحمل من حُبٍّ وولاء لأهل البيت.

وسنلاحظ معالم شخصيته، من خلال عرض هذه النماذج، ونشهد أيَّ شخصية عبقرية فذة كان معاوية... بحيث مسك بيده وحده كل التوازنات بحيث لا يطغى أحد على أحد ويطمئن الجميع إلى السمع والطاعة والولاء لأمير المؤمنين. دون أن يكون البطش والإرهاب سبيله. وإلى أيَّ حدٍّ كانت حرية الرأي متاحة في ظل حكمه المديد.

لقد مضى العشرة المبشرون في اللجنة ممن كانت الأنظار تتوجه

إليهم ليكونوا مرشحين للخلافة، ما عدا سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد.

أما سعد، فقد اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

(قال ابن عساكر: ذكر بعض أهل العلم أن ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص جاءه فقال له: يا عمّ هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحقّ الناس بهذا الأمر، فقال: أريد من مائة ألف سيف سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً، وإذا ضربت به الكافر قطع. وقال عبد الرزاق عن ابن جريج حدّثني زكريا بن عمرو أن سعد بن أبي وقاص وفد على معاوية فأقام عنده شهر رمضان يقصد الصلاة ويفطر. وقال غيره: فبايعه وما سألّه سعد شيئاً إلا أعطاه^(١)).

وثبت في صحيح مسلم أن ابنه عمر جاء إليه وهو معتزل في إبله فقال: الناس يتنازعون الإمارة وأنت هاهنا؟ فقال: يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد الغني الخفي التقي»^(٢).

فقد كفى سعد معاوية المؤونة، واعتزل الخلافة والتفكير فيها. وبايع مع مَنْ بايع لأمر المؤمنين معاوية. وتوفي رحمه الله عام خمسة وخمسين.

* * *

وأما سعيد بن زيد (فلم يذكره عمر في أهل الشورى لثلاثي بجاي بسبب قرابته من عمر فيولى، فتركه لذلك، وإلا فهو ممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة في جملة العشرة كما صحت بذلك الأحاديث

(١) و (٢) من البداية والنهاية لابن كثير ٧٥/٨.

الصحيحة المتعددة، ولم يتول بعده ولاية. وما زال كذلك حتى مات بالكوفة وقيل بالمدينة وهو الأصح، قال الفلاس وغيره سنة إحدى وخمسين وقيل سنة اثنتين وخمسين والله أعلم^(١).

لكن الأنظار كانت تتجه إلى الجيل الجديد وتتطلع إليهم من أجل الخلافة إلى أبناء هؤلاء العشرة وعلى رأسهم الحسن والحسين. وقد رأينا موقفه منهم. ثم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير.

* * *

أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقد اعتزل الفتنة كما اعتزلها سعد رضي الله عنه وبايع مع من بايع معاوية. وكان قد اتجه للعلم وتربية الأجيال المسلمة كما اتجه ابن عباس رضي الله عنهما، ولا يألو نصحاً لحاكم أو أمير (فقد قال عنه مالك:

بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفنى في الإسلام ستين سنة.

وما مات حتى أعتق ألف رقبة، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً. وكان تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر ولا يذوق فيه لحماً إلا وعلى يديه يتيم. وبعث إليه من معاوية بمائة ألف، فما حال عليه الحول وعنده منها شيء، وكان يقول: إني لا أسأل أحد شيئاً. وما رزقني الله فلا أردّه^(٢).

(وقال أبو مروان المرواني: بعث معاوية إلى الحسن بن علي بمائة

(١) المصدر نفسه ٥٩/٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦/٩.

ألف فقسمها بين جلسائه وكانوا عشرة، فأصاب كل واحد عشرة آلاف وبعث إلى عبد الله بن جعفر بمائة ألف فاستوهبتها منه امرأته فاطمة فأطلقها لها. وبعث إلى مروان بن الحكم بمائة ألف فقسم منها خمسين ألفاً وحبس خمسين ألفاً، وبعث إلى ابن عمر بمائة ألف ففرّق منها تسعين واستبقى عشرة آلاف. فقال معاوية: إنه لمقتصد يحبّ الاقتصاد^(١).

ولعلّ الأمر الوحيد الذي آذى عبد الله بن عمر في خلافة معاوية هو مقتل حجر بن عدي وأصحابه.

فقد روى الإمام أحمد عن ابن علية عن ابن عون عن ابن نافع قال: كان ابن عمر في السوق فنعي له حجر، فأطلق حبوته، وقام وغلب عليه النحيب.

* * *

أما عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها. فقد كان بعيداً عن أجواء معاوية رضي الله عنه رغم بيعته له. وكانت عائشة رضي الله عنها هي التي تسدّ هذا الجانب من العلاقة وتطغى عليه.

قال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز قال: قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه للناس. وقال هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: فهلاًّ أبقيت لنا درهماً نشتري به لحماً تفطرين عليه؟ فقالت: لو ذكرتيني لفعلت. وقال عطاء: بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوق قيمته مائة ألف فقبلته.

(١) المصدر نفسه ٨/١٤٠.

(وقال الزهري: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَنَّ مَعَاوِيَةَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ يَرِيدُ الْحَجَّ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَكَلَّمَهَا خَالِيْنَ لَمْ يَشْهَدْ كَلَامَهَا أَحَدٌ إِلَّا ذَكَوَانُ أَبُو عَمْرٍو وَمَوْلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: أَمَنْتَ أَنَّ أُخْبِيءَ لَكَ رَجُلًا يَقْتُلُكَ بِقَتْلِ أَخِي مُحَمَّدًا؟ فَقَالَ: صَدَقْتِي. فَلَمَّا قَضَى مَعَاوِيَةَ كَلَامَهُ مَعَهَا تَشْهَدَتْ عَائِشَةُ ثُمَّ ذَكَرْتُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَهُ ﷺ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَالَّذِي سَنَّ الْخُلَفَاءُ بَعْدَهُ، وَحَضَّتْ مَعَاوِيَةَ عَلَى الْعَدْلِ وَاتِّبَاعِ أَثَرِهِمْ، فَقَالَتْ فِي ذَلِكَ فَلَمْ تَتْرِكْ لَهُ عِذْرًا، فَلَمَّا قَضَتْ مَقَالَتَهَا قَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ:

أَنْتِ وَاللَّهِ الْعَالِمَةُ الْعَامِلَةُ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - النَّاصِحَةُ الْمَشْفُوقَةُ الْبَلِيغَةُ الْمَوْعِظَةُ، حَضَضْتَ عَلَى الْخَيْرِ، وَأَمَرْتِ بِهِ، وَلَمْ تَأْمُرِيْنَا إِلَّا بِالَّذِي هُوَ لَنَا مَصْلَحَةٌ، وَأَنْتِ أَهْلُ أَنْ تُطَاعِي.

وَتَكَلَّمْتَ هِيَ وَمَعَاوِيَةَ كَلَامًا كَثِيرًا. فَلَمَّا قَامَ مَعَاوِيَةَ اتَّكَأَ عَلَى ذَكَوَانٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ خَطِيئًا لَيْسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبْلَغَ مِنْ عَائِشَةَ^(١).

* * *

أَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَكَانَ لَهُ شَأْنٌ آخَرٌ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَاوِيَةَ يَخْشَى مِنْ أَحَدٍ خَشْيَتَهُ مِنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ، لَقَدْ كَانَ يُعْطِيهِ وَيَمْنَعُهُ، وَكَانَ يَدْنِيهِ وَيَرْهَبُهُ.

فَقَدْ (رَوَى الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: وَفَدَ الْحَسَنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى مَعَاوِيَةَ فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِابْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ بِثَلَاثِمِائَةِ أَلْفٍ، وَقَالَ لَابْنِ الزُّبَيْرِ مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِابْنِ عَمَةٍ رَسُولِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ لِمِائَةِ أَلْفٍ).

(وقال أبو مروان المرواني: .. وبعث إلى عبد الله بن الزبير (يعني

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨/١٣٤.

معاوية) بمائة ألف فقال للرسول: لِمَ جئت بالنهار؟ هَلَا جئت بها بالليل؟ ثم حبسها عنده ولم يعط منها أحد شيئاً فقال معاوية: إنه لخب ضب، كأنك به قد رفع ذنبه، وقع حبله^(١).

(وروى ابن أبي الدنيا عن أبي يزيد النميري، عن أبي عاصم النبيل، عن جويرية بن أسماء^(٢)) أن معاوية لما حجّ تلقته الناس، وتخلّف ابن الزبير، ثم جاءه وقد حلق رأسه فقال: يا أمير المؤمنين ما أكبر حجرة رأسك!! فقال: اتق الله أن لا يخرج عليك منها حيّة تقتلك. فلما أفاض معاوية طاف معه ابن الزبير، وهو آخذ بيده، ثم استدعاه إلى داره ومنازله بقيقعان، فذهب معه إليها، فلما خرجا قال: يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون جاء معي أمير المؤمنين إلى دوره ومنازله ففعل معي ماذا، لا والله لا أدعك حتى تعطيني مائة ألف فأعطاه^(٣).

وقال ابن أبي الدنيا عن . . مجاهد بن عروة أسأل ابن الزبير معاوية شيئاً فمنعه فقال: والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية (الكعبة) فلا أشتم لك عرضاً ولا أقصم لك حسباً ولكني أسدل عمامتي بين يدي ذراعاً، ومن خلفي ذراعاً في طريق أهل الشام، وأذكر سيرة أبي بكر وعمر فيقول الناس: مَنْ هذا؟ فيقولون ابن حواري رسول الله ﷺ وابن بنت الصديق. فقال معاوية: حسبك بهذا شرفاً. هات حوائجك^(٤).

(١) المصدر نفسه ٨/ ١٤٠ .

(٢) أبو زيد النميري (لم أجده) أبو عاصم النبيل (ثقة ثبت) جويرية بن أسماء (صدوق).

(٣) و (٤) المصدر نفسه ٨/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني عن عبد الله بن أبي بكر قال:

لحق ابن الزبير معاوية وهو سائر إلى الشام فوجده وهو ينعس على راحلته فقال له: أنتعس وأنا معك؟ أما تخاف مني أن أقتلك؟ فقال: إنك لست من قتال الملوك إنما يصيد كل طائر قدره. قال: لقد سرت تحت لواء أبي إلى علي بن أبي طالب وهو من تعلمه. قال: لا جرم قتلكم والله بشماله. قال: أما إن ذلك كان في نصرة عثمان ثم لم يجز بها. قال: إنما كان لبغض علي لا لنصرة عثمان، فقال له ابن الزبير:

إنّا قد أعطينا له عهداً فنحن وافون لك به ما عشت، فسيعلم من بعدك. فقال: أما والله ما أخافك إلا على نفسك. وكأنني بك قد خبطت في الحبال^(١)، واستحكمت علي الأنشودة^(٢). فذكرتني وأنت فيها، فقلت: ليت أبا عبد الرحمن لها، ليتني والله لها أما والله لأحللتك رويداً، ولأطلقتك سريعاً، ولبئس الولي أنت تلك الساعة^(٣).

وكانما كان معاوية أمير المؤمنين رضي الله عنه يستشف حجب الغيب. ولم يأن هو صاحب ابن الزبير حينما وقع، إنما كان الحجاج ابن يوسف الثقفي، ومن أجل ذلك لم يتركه حتى قتله وصلبه. ولو كان صاحبه معاوية لكان أول من عفى عنه.

(١) الحبال: المصيدة من الحبال.

(٢) الأنشودة: العقدة.

(٣) البداية والنهاية ٣٤٣/٨.

وقبل أن نودّع ابن الزبير، نعرض هذا الوصف له، ونرى كيف أن معاوية كان محققاً في تخوفه منه:

(كان عالماً عابداً مهيباً وقوراً كثير الصلاة والصوم، شديد الخشوع جيد السياسة. قال أبو نعيم الأصبهاني بسنده عن عمر بن قيس: كان لابن الزبير مائة غلام تكلم كل غلام منهم بلغة غير لغة الآخر، وكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته، وكنت إذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله والآخرة طرفة عين)^(١).
وحيث علمنا رأي معاوية رضي الله عنه بعبد الله بن الزبير، فلا بد أن نعرف رأي عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بمعاوية إذ يقول:

لله درّ ابن هند إن كنا لنُفرِّقه، وما الليث في برائه بأجراً منه فيتفارق لنا.

وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا. والله لوددت أنا متعنا به ما دام في الجبل حجر (وأشار إلى أبي قيس)^(٢).

* * *

وإذا خرجنا من دائرة قريش، فأمامنا سيد بني تميم الذي إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. وقد كان في صفتين من أخطر القيادات مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن

(١) المصدر نفسه ٣٤٤/٨.

(٢) المصدر نفسه ١٣٨ ٨.

أشد المتحمسين له . وهذا جانب من دوره بجانب علي :

ذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج أن أول من أشار بأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس ، وتابعه أهل اليمن ، ووصفوه أنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال .

وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز . قال علي : فإنني أجعل الأشر حكماً فقالوا : وهل سحر الحرب وشعر الأرض إلا الأشر؟ قال : فاصنعوا ما شئتم ، فقال الأحنف بن قيس لعلي :

والله لقد رُميت بحجر إنه لا يصلح هؤلاء القوم إلا رجل منهم ، يدنو منهم حتى يصير في أكفهم ، ويبتعد حتى يصير بمنزلة النجم ، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعني ثانياً وثالثاً ، فإنه لم يعقد عقدة إلا أحلها ، ولا يحل عقدة إلا عقدت لك مثلها أو أحكم منها ، قال : فأبوا إلا أبا موسى^(١) .

هذه هي شخصية الأحنف كما رسمها عن نفسه ذكاء ودهاء وحكمة . قاد جحافل المسلمين في أرض فارس وفتح الفتوح ، ووقف بجوار أمير المؤمنين بكل ثقله وثقل قومه . حتى عندما جرى التحكيم (كتبوا بينهم كتاباً هذه صورته : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين . فقال عمرو بن العاص : اكتب اسمه واسم أبيه . هو أميركم وليس بأمرنا . فقال الأحنف : لا تكتب إلا أمير المؤمنين . فقال علي : امح أمير المؤمنين واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب)^(٢) .

وعندما انتهت الفتنة ودخل الناس في الجماعة. كان معاوية رضي الله عنه يدرك قدر الأحنف، ويعرف مَنْ وراءه من قومه. فكان يكرمه أيما إكرام، ويستشيريه في المعضلات. ولا يترك مسامرته إن وجد سبيلاً إلى ذلك.

(قال له ذات يوم: أخبرني عن قول الشاعر:

إذا ما مات ميت من تميم
فسرُّك أن يعيش فجىء بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن
أو الشيء الملفف بالبجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً
ليأكل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشيء الملفف بالبجاد؟

قال الأحنف: السخينة^(١) يا أمير المؤمنين. قال معاوية: واحدة بأخرى والباديء أظلم^(٢).

وقدِمَ الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية. فأذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدّم الأحنف

(١) السخينة: طعام كانت تعمله قريش من دقيق وهو الحرية فكانت تُسبُّ به وفيه يقول حسان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها
ولتُغَلِبَنَّ مغالب الغلاب

(٢) العقد الفريد / ٢ / ٢٨٤.

ودخل قبله . فلما رآه معاوية غَمُّهُ ذلك وأحنقه ، فالتفت إليه وقال :

والله إني ما أذنت له قبلك ، وأنا أريد أن تدخل قبله ، وأنا كما نلي أموركم نلي آدابكم . ولا يزيد متزيد في خطوة إلا لنقص يجده في نفسه^(١) .

وأرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس فقال : يا أبا بحر ما نقول في الولد؟ قال : ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فارضهم يمنحوك ودّهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقيلاً ، فيملّوا حياتك ويحبوا وفاتك فقال :

الله أنت يا أحنف . لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غيظاً على يزيد ، فسלתه من قلبي . فلما خرج الأحنف من عنده بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب . وشاطره البعثة^(٢) .

واستعمل الأحنف كل حكمته عندبيعة يزيد عام ستة وخمسين .

و(وفدت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد . فكان فيمن قدّم الأحنف بن قيس ، فأمره معاوية أن يحدث يزيد . فجلسا ثم خرج الأحنف فقال له معاوية : ماذا رأيت من ابن أخيك؟ فقال : إنا نخاف الله إن كذبنا ، ونخافكم إن صدقنا ، وأنت أعلم به في ليله ونهاره ، وسره وعلايته ، ومدخله ومخرجه . وأنت أعلم بما أردت ،

(١) المصدر نفسه ٥٥/٢ .

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ - ٢٦٢ .

وإنما علينا أن نسمع ونطيع ، وعليك أن تنصح للأمة .

ولقد كانت أبعاد الأحنف ذات مدى شاسع . فهو يدرك أن يزيد قد اتسق له الأمر، وفي الوقت الذي لم يجد من الحكمة فيه أن يواجه يزيد أو يهاجمه . لكن أشار إلى ذلك بذكاء الأريب : ونخافكم إن صدقنا . رفض أن يثني عليه بقليل أو كثير، وحمل المسؤولية كاملة لأمر المؤمنين معاوية .

وكان زياد والي البصرة يعرف قدره، وكيف لا وكانا سوية في جيش أمير المؤمنين والأحنف أمير البصرة غير المتوج .

وكما روى أبو الضحاك قال :

(رأيت مصعب بن الزبير يمشي في جنازة الأحنف بغير رداء، وكان سيد الناس يومئذ - يعني الأحنف -) ^(١) .

(وقد سأل معاوية الأحنف : بِمَ سَدَّتْ قومك وأنت ليس بأسنهم ولا أشرفهم؟ قال : لا أتناول ما كفيت ولا أضع ما ولّيت) ^(٢) . وقد نالته دعوة الرسول ﷺ .

وعن الحسن (البصري) قال : إن الحنف بن قيس قال :

بينما أنا أطوف بالبيت زمن عثمان بن عفان إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال : ألا أبشرك؟ فقلت : بلى . قال : هل تذكر أن بعثني رسول الله ﷺ إلى قومك بني سعد فجعلت أعرض عليهم الإسلام،

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢٢٣/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٣١/١ .

وأدعوهم إليه فقلت أنت: إنه يدعو إلى الجنة، ويأمر بالخير مرتين، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: اللهم اغفر للأحنف.

وكان الأحنف يقول: ما لي عمل أرجى لي منه^(١).

لكن الجيل الجديد لم يكن يعرف مقامه. فعندما تولى عبيد الله بن زياد بعد وفاة أبيه لم يكن يأبه له. وهو في غمرة بهجته بولايته الجديدة.

و(وفد عبيد الله بن زياد على معاوية ومعه أشراف أهل البصرة والعراق. فاستأذن لهم عبيد الله عليه على منازلهم منه، وكان آخر مَنْ أدخله على معاوية الأحنف بن قيس - ولم يكن عبيد الله يجله - فلما رأى معاوية الأحنف رَحَّبَ به وعظَّمه وأجلَّه وأجلسه معه على السرير ورفع منزلته، ثم تكلم القوم فأتوا على عبيد الله والأحنف ساكت. فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال: إن تكلمت خالفت القوم، فقال معاوية: انهضوا فقد عزلته عنكم فاطلبوا والياً ترضونه. فمكثوا أياماً يترددون إلى أشراف بني أمية يسألون كل واحد أن يتولى عليهم فلم يقبل أحد منهم ذلك. ثم جمعهم معاوية فقال: مَنْ اخترتم؟ فاختلفوا عليه والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد غير أهل بيتك فرأيتك، فقال معاوية: قد أعدته إليكم. وقال ابن جرير: قال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن وليت عنا من أهل بيتك فإننا لا نعدل بعبيد الله بن زياد أحداً. وإن وليت علينا غيرهم فانظر لنا في ذلك. فقال معاوية: قد

(١) المصدر نفسه / ٢٣٠.

أعدته إليكم. ثم إن معاوية أوصى عبيد الله بن زياد بالأحنف خيراً،
وقبّح رأيه فيه وفي مبادئه ثم قال له بينه وبينه: كيف جهلت مثل
الأحنف؟ إنه والله الذي عزلك وولّك وهو ساكت. فعظمت منزلة
الأحنف بعد ذلك عند ابن زياد جداً^(١).

* * *

وكان من أكبر خصوم معاوية على الإطلاق قيس بن سعد
الأنصاري الذي قال فيه معاوية لمروان بن الحكم والأسود حين ضايقه
فألجّاه إلى معاوية:

(أمددتما عليّ بقيس بن سعد ورأيه ومكایدته. والله لو أنكما
أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان بأغيظ عليّ من إخراجكما قيس بن
سعد إلى علي)^(٢).

وثبت في صحيح البخاري عن أنس قال: كان قيس بن سعد من
النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير.

(وأقام قيس عند علي فشهد معه صفين والنهروان ولزمه حتى
قتل وصار إلى المدينة) وفي رواية (ثم كان مع الحسن بن علي حين
سار إلى معاوية ليقاتله. فكان قيس على مقدمة الجيش. فلما بايع
الحسن معاوية ساء قيساً ذلك وما أحبه)^(٣).

فلما اجتمعت الكلمة على معاوية جاء لبياعه كما بايعه

(١) البداية والنهاية ٩٨/٨ و٣٣٢.

(٢) الطبري ٧٠/٥.

(٣) البداية والنهاية ١٠٤/٨.

أصحابه، قال عبد الرزاق عن ابن عيينة قال: فقَدِمَ قيس بن سعد على معاوية. فقال له معاوية:

وأنت يا قيس تلجم علي مع مَنْ ألجم؟ أما والله لقد كنت أحب أن لا تأتيني هذا اليوم إلا وقد ظفر بك ظفر من أظفاري موجه، فقال له قيس: وأنا والله قد كنت كارهاً أن أقوم في هذا المقام فأحييك بهذه التحية، فقال له معاوية: ولم؟ وهل أنت إلا حَبْرٌ من أحبار اليهود؟ فقال له قيس: وأنت يا معاوية كنت صنماً من أصنام الجاهلية، دخلت في الإسلام كارهاً، وخرجت منه طائعاً؟ فقال معاوية: اللهم غفراً مَدَّ يَدُكَ. فقال له قيس بن سعد: إن شئت زدت وزدت).

كان معاوية في غنى عن سماع ما يكره، فما مثل قيس بن سعد تغمز قناته، ومن أجل ذلك سارع فاعتذر وقبل بيعته.

(يقول الزهري: دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل، وكانا مع علي.. كان المغيرة معتزلاً بالطائف)^(١).

(هذا عن دهائه أما عن كرمه فحدّث ولا حرج، ويكفي (أن يختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم. فقال أحدهم عبد الله بن جعفر، وقال الآخر قيس بن سعد وقال الآخر: عرابة الأوسي. فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة)^(٢).

(وقَدِمَ على معاوية في وفد من الأنصار فبايع معاوية بعد معاتبة

(١) البداية والنهاية ١٠٥/٨.

(٢) المصدر نفسه ١٠٤/٨.

شديدة وقعت بينهما، وكلام فيه غلظة، ثم أكرمه معاوية وقدمه وحظي عنده^(١).

(وفي رواية أن ملك الروم بعث إلى معاوية برجلين من جيشه يزعم أن أحدهما أقوى الروم، والآخر أطول الروم. فانظر هل في قومك من يفوقهما في قوة هذا وطول هذا. فإن كان في قومك من يفوقهما بعث إليك من الأسارى كذا وكذا، ومن التحف كذا وكذا، وإن لم يكن في جيشك من هو أقوى منهما وأطول منهما فهادني ثلاث سنين. فلما حضرا عند معاوية قال: من لهذا القوي، فقالوا: ما له إلا أحد رجلين، إما محمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب) أو عبد الله بن الزبير. فجيء بمحمد بن الحنفية. فلما اجتمع الناس عند معاوية قال له معاوية: أتعلم فيم أرسلت إليك؟ قال: لا، فذكر له الرومي وشدة بأسه، فقال للرومي إما أن تجلس لي أو أجلس إليك، وتناولني يدك أو أناولك يدي، فأبى قدر على أن يقيم الآخر من مكانه غلبه، وإلا فقد غلب. فقال له: ماذا تريد؟ تجلس أو أجلس؟ فقال له الرومي: بل اجلس أنت. فجلس محمد بن الحنفية، وأعطى الرومي يده. فاجتهد الرومي بكل ما يقدر عليه من القوة أن يزيله من مكانه أو يحركه ليقيمه فلم يقدر على ذلك. ولا وجد إليه سبيلاً. فغلب الرومي عند ذلك وظهر لمن معه من الوفود من بلاد الروم أنه قد غلب. ثم قام محمد بن الحنفية فقال للرومي اجلس لي، وأعطى محمداً يده فما أمهله أن أقامه سريعاً ورفعاً في الهواء ثم ألقاه على الأرض فسُرَّ بذلك معاوية سروراً عظيماً..

(١) البداية والنهاية ٨/١٠٥.

(فبينما هو مع الوفود - أي قيس بن سعد - إذ قَدِمَ كتاب ملك الروم على معاوية وفيه : أن ابعث لي بسراويل أطول رجل من العرب . فقال معاوية : ما أرانا إلا قد احتجنا إلى سراويلك؟ وكان قيس مديد القامة جداً لا يصل أطول الرجال إلى صدره . فقام قيس فتنحى ثم خلع سراويله فألقاها إلى معاوية . فقال له معاوية : لو ذهبت إلى منزلك ثم أرسلت بها إلينا فأنشأ قيس يقول عند ذلك :

أردت بها كي يعلم الناس أنها
سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه
سراويل عادي سمد وثمود
وإني من الحيّ اليماني لسيد
وما الناس إلا سيد ومسود
فكدهم بمثلي إن مثلي عليهم
شديد وخلق في الرجال مديد
وفضلني في الناس أصل ووالد
وباع به أعلو الرجال مديد

فأمر معاوية أطول رجل في الوفد فوضعها على أنفه فوقعت بالأرض . فاعترف الرومي بالغلب ، وبعث ملكهم ما كان التزمه لمعاوية^(١) .

لقد غدت هذه الطاقات ملكاً للأمة الإسلامية . بعد أن كانت

(١) البداية والنهاية ١٠٥/٨ - ١٠٦ .

تتصارع مع بعضها لقد كان من الممكن أن يكون معاوية في صفين هو ذلك الرجل الرومي الذي يمسك به محمد بن الحنفية فيصرع به الأرض ويقتله، وكان من الممكن أن يكون معاوية طعماً لرمح قيس بن سعد وسيفه، ولكنها الألفة والجماعة التي جعلت هذه الطاقات كلها لمناجزة الكفار والمشركين وأن توجه الأوامر لابن الحنفية فيحضر استجابة لأمر أمير المؤمنين، وأن توجه الأوامر لأعدى العدو، لقيس بن سعد أن يخلع سراويله فيخلعها. وكم هي هذه النعمة عظيمة؟ وكم كان معاوية عبقرياً، وهو يستفرغ كل هذه الطاقات العلمية والعسكرية والسياسية لخدمة الدولة الإسلامية.

لقد غدت الدولة للجميع بلا استثناء. وغدا معاوية بن حرب أميراً للمؤمنين في الأرض.



مَعَاوِيَةُ وَالرَّعِيَّةُ

ولم يكن يرى حرجاً رضي الله عنه أن يسمع آراء الناس فيه، ورأيهم في علي رضي الله عنه بل كان أحياناً يحرص على ذلك، ليرى مدى استعداد الناس لطاعته أو للثورة عليه فها هو يدغدغ عواطف شريفيين من قريش. وهما سيّدا بني مخزوم وبني جمح فعن علي بن سليم قال:

حضر قوم من قريش مجلس معاوية بن أبي سفيان فيهم عمرو بن العاص وعبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة.

فقال عمرو بن العاص: أحمد والله يا معشر قريش إذ جعل والي أموركم من يغضي على القذى، ويتصام عن العوراء، ويجرّ ذيله على الخدائع^(١). فقال عبد الله بن صفوان:

لو لم يكن كذلك لمشيئنا إليه الضراء، وديننا له الخمر، وقلبنا له ظهر المجن^(٢)، ورجونا أن يقوم بأمرنا أمر ولا يطعمك مال مضر.

قال معاوية: يا معشر قريش حتى متى لا تنصفون من أنفسكم.

(١) كناية عن مغفرته للذنوب وتجاهله للزلات.

(٢) كناية عن الخروج والثورة عليه لو لم يكن كذلك.

فقال عبد الرحمن: إن عمراً وذويه أفسدوك علينا، وأفسدونا عليك. ما كان عليك لو أغضيت على هذا.

قال: إن عمراً ناصح لي. فقال عبد الرحمن: أطعمنا مثل ما أطعمته، ثم خذنا بمثل نصيحته. إنا يا معاوية رأيناك تضرب عوام قريش بأياديك في خواصها. كأنك ترى كرامك حازوك دون لثامها. وإيم الله إنك تفرغ من وعاء فم في إناء ضخم، ولكأنك بالحرب قد حل عقالها عليك ثم لا ينظر لك. ثم لا ينظر لك.

قال معاوية: يا ابن أخي ما أحوج أهلك إليك يقول: لو فعلت ذلك قتلت ثم أنشد:

أغرّ رجالاً من قريش تتابعوا
على سفه مني الحيا والتكرم^(١)

فالقوم لا يحملون في قلوبهم الرضا عن معاوية وخاصة عن عمرو بن العاص الذي كان وزيره الأول، ولا شك أن هذه الحادثة كانت في بداية عهده، لأن عمرو رضي الله عنه قد توفي بعد سنتين من خلافة معاوية، ولم تكن الأمور قد استقرت بعد. ومن أجل هذا كان جواب معاوية فيه من الحزم والشدة والعنف ما يتناسب مع طبعه التهديد الذي أطلقه شريفا قريش، عبد الله بن صفوان، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

ويأتي الموقف والجواب بحجم الحادثة وضخامتها.

(١) الموفقيات للزبير بن بكار ١٥٣ - ١٥٤.

(فقد أتى معاوية يوم صفين بأسير من أهل العراق. فقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك قال: لا تقل ذلك يا معاوية، فإنها مصيبة. قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة، اضرب عتقه يا غلام. فقال الأسير: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، ولا لأنك ترضى بقتلي. وإنما يقتلني في الغلبة وعلى حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله.

قال له: ويحك لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسنت. خلّياً عنه^(١). فهو يعلم أن هذا الأسير لا حول له ولا طول، ولا داعي بأن يتملكه الغضب من كلامه، وهو على استعداد أن يسمع كامل حجته. بل ويعجب بها، وينتقل من حاكم يقتل بالإشارة إلى متعظ بكلام بليغ من أعرابي أسير.

* * *

ويدخل عليه أحد الخصوم الكبار أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني شاعر كنانة وأحد فرسانها ومن ذوي السيادة فيها. (فقال له معاوية: ألسنت من قتلة عثمان؟ قال: لا ولكني ممّن حضره ولم ينصره. قال: وما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار. قال معاوية: أما لقد كان حقه واجباً، وكان عليهم أن ينصروه قال: غما يمنعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟ فقال معاوية: أو ليس طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل وقال:

أنت وعثمان كما قال الشاعر:

(١) العقد الفريد ٢/٤٤.

لا ألفينك بعد الموت تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادي
فقال معاوية: يا أبا الطفيل: ما أبقي الدهر من ثكلك علياً؟
قال: ثكل العجوز المقلات^(١)، والشيخ الرقوب^(٢).
قال: فكيف حبك له؟

قال: حب أم موسى لموسى، وإلى الله أشكو التقصير^(٣).
ومعاوية يعلم أن القلب المفطور على حب علي رضي الله عنه
والذي يعادل حب أم موسى لموسى لن يحمل له شيئاً من الحب، بل
يمتلئ بالغيظ والحنق عليه، ولا يضيره أن يسمع هذا الكلام فحرية
الرأي متاحة للجميع، ما لم تشكل ثورة أو تهدد النظام العام الذي
بايعت عليه الأمة.

* * *

والأغرب من هذا كله أن يدعو شيعة علي إليه لسمع ثناءهم
عليه، وحبهم له. فعن الشعبي قال:

حدثني جماعة من بني أمية مَمَّنْ كان يمر مع معاوية، قال: بينما
معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد إذ ذكروا الزرقاء ابنة
عدي بن قيس الهمدانية، وكانت شهدت مع قومها بصفين. فقال:
أيكم يحفظ كلامها. قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين. قال:

(١) المقلات: التي لا يبقى لها ولد.

(٢) الرقوب: الذي لم يبق له ولد.

(٣) الموفقيات ١٥٤ - ٥٥.

فأشيروا عليّ بأمرها فقال بعضهم : نشير عليك بقتلها قال :

بش الرأي ، أشرتُم به عليّ . أيحسن لمثلي أن يتحدّث عنه الناس أنه قتل امرأة بعدما ظفر بها؟! . فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها مع ثلّة من ذوي محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاءً ليئناً ، ويسترها بستر خفيف ، ويوسع لها بالنفقة فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب فقالت :

إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي فإنني لا آتيه ، وإن كان حتمّ عليّ فالطاعة أولى . فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به ، فلما دخلت على معاوية قال : مرحباً وأهلاً . قدّمت خير مقدم قدمه وافد . كيف حالك؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة قال : كيف كنت في مسيرك؟ قالت : ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً . قال : بذلك أمرناهم ، أتدرين فيمّ بعثت إليك؟ قالت : أنى لي بعلم ما لم أعلم؟

قال : ألسنت الراكبة الجمل الأحمر! والواقفة بين الصّفين بصفين حضّين الناس على القتال وتوقدين الحرب ، فما حملك على ذلك؟

قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب . والدهر ذو عبر ، ومَن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت : لا والله لا أحفظه وقد أنسيته .

قال : لكنني والله أحفظه . الله أبوك حين تقولين : أيها الناس ارعوا وارجعوا إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم

عن قصد المحجة . فيا لها فتنة عمياء صماء بكاء لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، إن المصباح لا يضيء مع الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشد أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبراً يا معشر المهاجرين على الغصص فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودفع الحق الظلمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحنّاء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا الأمر ما بعده ، والصبر خير في الأمور كلها . إياها في الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين .

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه .

قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، مثلك من بشرٍ بخيرٍ وسرٍّ جليسه .

قال : أو يسرك ذلك ؟

قالت : نعم والله لقد سررت بالخبر ، فأنى لي بتصديق الفعل ؟

فضحك معاوية وقال : والله لوفاءكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته .

اذكر حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين : آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً . ومثلك أعطى من غير مسألة ، وجاء من غير طلبه .

قال: صدقت.

وأمر لها وللذين جاؤوا معها بجوائز وكسي^(١).

لقد كانت همدان كلها تذوب حباً ووفاءً لعلي رضي الله عنه وله الشعر الذي يقول:

ولو كنت بواباً على باب جنة
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وذلك من شدة إعجابه بوفائهم وتضحيتهم معه.

وجرأة الزرقاء في جوابها عن مشاركتها في الدماء التي سفكها علي هي التي تمثل نفسية المرأة المسلمة السوية الفذة، التي تقول كل ما تؤمن به أمام أمير المؤمنين الذي حارب علماً رضي الله عنه أربع سنين متواليات.

إن جو الحرية الذي مارسه المسلمون في ظل معاوية هو الذي هيا المجال الخصب للطاقت الإسلامية أن تنمو وتبدع. وهيا المناخ لمتابعة الفتوحات الإسلامية التي توقفت قرابة عشر سنين نتيجة الصراعات الداخلية والفتنة الكبيرة في الدولة الإسلامية.

ومعرفة معاوية بالرجال وحرصه على الكفاءات سد الطريق أمام المتسلقين والمتزلفين والمنافقين أن يكون لهم صولة في سلطانه حتى الشخصيات الكبيرة كان لا يغفر لها الهفوة والزلة إذا كانت تمس المبدأ والعقيدة.

(١) العقد الفريد ٣٣١/١.

فعبد الرحمن بن خالد رضي الله عنهما كان من أبرز الشخصيات بجوار معاوية في محنته . وكما رأينا معاوية مع أخيه عنيسة كيف يعزله عندما رأى عنصر التشقي والحقد هو الذي يحكمه . فهذا هو يعامل ابن خالد كذلك .

فعن عوانة بن الحكم أن معاوية بن أبي سفيان استعمل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي على الصائفة ثم قال له : ما تصنع بعهدي يا عبد الرحمن؟

قال : أتأخذه إماماً ولا أعصيه .

قال : اردد عليّ عهدي .

قال : تعزلني بعد أن استعملتني عن غير حدث؟ أما والله لو أنا بمكة على السواء لانتصفت منك .

قال : ويحك لو كنّا بمكة على السواء لكنت معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية ولكنت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . ولكن منزلي بالأبطح ينسق عنه الوادي ، وكان منزلك أجياداً أسفله عذرة وأعلاه مدرّة .

ثم قال معاوية : عليّ بسفيان بن عوف الغامدي ، فكتب له عهده ثم قال : يا سفيان ، ما تصنع بعهدي؟

قال : أتأخذه إماماً ما أعم الحرم فإذا خالفه خالفته . . .) .

وهذه هي زلة عبد الرحمن : أنه اعتبر طاعة معاوية ثابتة على كل حال .

والمبدأ الإسلامي الثابت: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

بينما انتبه سفيان للمبدأ. وربط الطاعة بطاعة الله، والمعصية بمعصيته.

ونحن لا نشك أن عبد الرحمن بن خالد من حيث الفعل سيكون كسفيان بن عوف. لكن معاوية لا يرضى هذا التسرع ولو بالقول، ويلمح الشخصية من خلاله. ومن أجل ذلك تابع قائلاً على موقف سفيان:

(هذا والله - الذي لا يكفكف عن عجلة^(١))، ولا يدفع في ظهره عن بطاء^(٢))، ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل الثفال^(٣). سرّ على بركة الله.

فسار فهلك في أرض الروم. واستعمل على الناس عبد الله بن مسعود الفزاري وقال له: إن ظفراً عظيماً وغنماً كبيراً أن يرجع بالمسلمين سالمين لم ينكبوا.

وكانت أول ولاية وليها ابن مسعود. فأقدم بالمسلمين فنكبوا.

فقال الشاعر لابن مسعود:

(١) لا يكفكف عن عجلة. أي لا يتهور بحيث يطلب منه الإحجام والتوقف.

(٢) لا يدفع في ظهره عن بطاء: أي لا يتراخي بحيث يدفع إلى الحركة والمواجهة.

(٣) لا يضرب ضرب الجمل الثفال: أي ليس من طبيته البطء والتراخي.

أقم يا ابن مسعود قناة قويمة
كما كان سفيان بن عوف يقيمها
وسمّ يا ابن مسعود مدائن قيصر
كما كان سفيان بن عوف يسومها

فلما دخل عبد الله بن مسعود على معاوية قال:

أقم يا ابن مسعود قناة قويمة.

فقال: يا أمير المؤمنين إن الشاعر ضمّني إلى رجل لا تضم إليه
الرجال فقال معاوية: والله إن من فضيلتك عندي معرفتك بفضله^(١).

والذي لا ينفذ إلى أعماق معاوية ويدرس أغوار شخصيته يجد
عجبا أن يعزل عبد الرحمن بن خالد عن الصائفة لأنه أكد طاعة
معاوية.

وأن يغفر لابن مسعود الفزاري هزيمته المنكرة على يدي الروم.
والنكبة التي نزلت بالمسلمين في مخالفة توجيهات القائد الفذ
سفيان بن عوف الغامدي الذي حقق انتصارات ضخمة وأمعن في
بلاد الروم، ثم قدّر بعد ذلك أن التقدّم أكثر مخاطرة، وقد تؤدي
بجميع الانتصارات السابقة.

والقائد الفذ هو الذي يتقن متى يتقدم، ومتى يتراجع.

والتاريخ العسكري الحديث يبيّن لنا كيف أن قائدين من أكبر
قادة العصر الحديث تحطموا على صخرة غرور انتصاراتهم، وتابعوا

(١) الموفقيات: ١١٣ - ١١٤.

زحفهم من حيث يحسن الرجوع والعودة وهما نابليون بوناپرت وهتلر.
وكيف أن ثلوج روسيا واتساع أراضيها ومقاومة الشعب هناك، حطمت
هاتين الشخصيتين. وذهبت بانتصاراتهما أدراج الرياح.

وعندما قَدِمَ ابْنُ مسعود الفزاري على معاوية. كان لا بدَّ أن
يحاسبه على موقفه وعلى النكبة التي أَلَمَّتْ بالمسلمين من وراء
إقدامه، فواجهه بقول الشاعر:

أقم يا ابن مسعود قناة قويمة.

والشخصية المهتزة المغرورة سرعان ما تهاجم خصمها. وتريد
أن تصغر من انتصاراته وتضع لنفسها انتصارات وهمية، وتبرر
هزائمها. لكن ابن مسعود لم يكن كذلك، وأدرك خطأه. ورأى أنه
ليس بمقام المقارنة مع سفيان في مجال القيادة.

إن الشاعر ضَمَّنِي إلى رجل لا تضم إليه الرجال..

وكان هذا الجواب الحكيم، والاعتراف غير المباشر بالخطأ
والتقصير كبيراً في عين معاوية والذي يدرك خطأه ويستفيد منه. هو
مؤهل للإبداع فيما بعد. فعبر معاوية عن إعجابه بابن مسعود بقوله:

والله إن من فضيلتك عندي معرفتك بفضله.

فلا يعرف الفضل إلا ذووه. ولا يعرف أقدار الرجال إلا الرجال.

ولقد رأينا معرفة معاوية بفضل علي وبطولته وقيادته عندما كان
يكلم قيادات بني أمية ويواجههم على الموقف العنيف.

* * *

لقد لخص لنا معاوية رضي الله عنه سياسته الفذة مع خصومه وجمهور الأمة الإسلامية من خلال لقائه مع عائشة بنت عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

فعن علوان بن صالح بن كيسان أن معاوية قدِمَ المدينة أول حجة حجّها بعد اجتماع الناس عليه. فلقى الحسن والحسين ورجال من قريش، فتوجه إلى دار عثمان بن عفان. فلما دنا إلى باب الدار صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها. فقال معاوية لمن معه: انصرفوا إلى منازلكم فإن لي حاجة في هذه الدار. فانصرفوا ودخل مسكن عائشة بنت عثمان، وأمرها بالكفّ وقال لها:

يا ابنة أخي إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلماً تحت غضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا. وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا شحّوا علينا بحقنا وغمطناهم حقهم. ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعة، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندري أ تكون لنا الدائرة أم علينا؟ وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين أحبّ إليّ أن تكوني أمة من إماء المسلمين، ونعمّ الخلف أنا لك بعد أبيك^(١).

وما نرى بعد كلام معاوية هذا زيادة لمستزيد. إنه لا تغرّه هذه المظاهر الضخمة من الطاعة في الولايات الإسلامية كلها فهو يعرف القلوب تحمل حقداً عليه. وهو يتعامل بالتحلّم ليستلّ هذا الحقد، وإلا انتقضت الأمة عليه، لكلّ منهم شيعة ويعرف مكان شيعة.

(١) البداية والنهاية ٨/١٣٥.

وكما يروى عن الأحنف بن قيس حين استثاره معاوية ذات يوم فقال:

يا أمير المؤمنين إن القلوب التي أبغضناك فيها لا تزال في صدورها، وإن السيوف التي حاربناك فيها لا تزال في أغمادها...

ولا يزال في الأمة من يستطيع أن يحرك مائة ألف سيف دون أن يسألوه عن السبب ومن أجل هذا وجدناه يمسك بأعناق هذه الشخصيات جميعاً دون أن تفلت منه ويبدل لها المعروف والإحسان، ويقدر لها قيمتها وفضلها، ولا يخس شرف واحدٍ منها ولعله كان أجراً ما يكون على بني عمه. ولو لم يفعل ذلك لركبوا على رقاب الناس، وطمغوا باسمه وفي ظل سلطانه.

وهذا جانب آخر من فقه السياسة عنده لرعيته وجنده:

يقول عمرو بن العاص:

رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفيين خرج في عدة لم أره خرج في مثلها فوقف في قلب عسكره، فجعل يلحظ ميمته. فيرى الخلل فيبدر إليه من ميسرته. فتغنيه اللحظة عن الإشارة. فدخله زهو مما رأى. فقال: يا ابن العاص: كيف ترى هؤلاء وما هم عليه: فقلت: والله لقد رأيت من يسوس الناس بالدين والدنيا، فما رأيت أحداً أوتي له من طاعة رعيته ما أوتي لك من هؤلاء. فقال: أفتدري مني يفسد هذا وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا، قال: في يوم واحد! قال: فأكثر العجب. قال: أي والله وفي بعض يوم. قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين. قال:

إذا كذبوا في الوعد والوعيد. وأعطوا على الهوى لا على الغناء.

فسد جميع ما ترى^(١). إنه صدق العطاء والمنع، والرغبة والرغبة،
والعطاء للكفاءة لا للهوى والمزاج. إنه درس عظيم في السياسة ما
أحوج القادة والحاكمين إليه، ويعرفون من خلاله سر هذا الملك الذي
قاد الأمة عشرين عاماً وحكم ثلث الأرض ودانت له القلوب التي تهتز
حقداً عليه، وتتميز غيظاً منه. فكان كما قال فيه الشاعر الأخطل:

تسمو العيون إلى إمام عادلٍ

معطي المهابة نافعٍ ضرار

وترى عليه إذا العيون لمحنه

سيما الحليم وهيبة الجبار

وكما قال عن نفسه: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ
ناصرًا إلا الله.



(١) العقد الفريد ٢٥/١.

إلى الفتوح من جديد

آن الأوان لأن يفرغ المسلمون إلى عدوهم الخارجي ، وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ممعناً في بلاد الروم يحمل راية الجهاد التي حملها أبوه سيف الله خالد بن الوليد من قبل .

ولئن كان أبو بكر رضي الله عنه قال :

لأنسين الروم وسأوس الشيطان بخالد بن الوليد !!

فلقد أنسى معاوية الروم وسأوس الشيطان بعبد الرحمن ابن خالد !!

ولئن قال خالد يوم حانت منيته :

والله ما في جسدي مقدار شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

فلقد امتدت أيدي الجبناء إلى عبد الرحمن بن خالد ، وقتلته غيلة بالسم (١) ؛ وذلك حين عجزت الصليبية أن تنال منه وجهاً

(١) أورد الطبري رواية يفهم منها أن لمعاوية ضلعاً في موت ابن خالد بالسم ، وأن العملية تمت بإيعاز منه ؛ والرواية ضعيفة ، وفيها مسلمة بن محارب (مجهول لا ذكر له في كل كتب التراجم) . وعلق عليها ابن كثير قائلاً : (وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ، ولا يصح) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١ .

لوجه ، بعد أن خضد شوكتها ، وحطم كبرياءها ، فأوعزت إلى ابن
أثال أحد نصارى الشام ، فسقاه شربة فيها سم ، فمات على إثرها
متأثراً بسمه . فتحرك خالد بن عبد الرحمن بن خالد من المدينة إلى
حمص فقتل ابن أثال ثأراً لأبيه .

وكان بجانب عبد الرحمن بن خالد فرسان آخرون يحملون
لواء الجهاد في تخوم الروم وهم : بسر بن أبي أرطاة ، ومالك بن
هيرة السكوني .

ومرت السنوات تترى والجهاد فيها قائم في بلاد الروم ، وكانت
سنة تسع وأربعين حافلة بالجهاد . فقد ذكر ابن جرير أنه :

(كان فيها مشتى مالك بن هيرة السكوني بأرض الروم ،
وفيهما كانت غزوة فضالة بن عبيد جربة ، وشتا بجربة وفتحت
على يديه ، وأصاب فيها سبياً كثيراً ، وفيها كانت صائفة عبد الله
ابن كرز البجلي ، وفيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر
فشتا بأهل الشام ، وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتا
بأهل مصر ، وفيها كانت غزوة يزيد بن معاوية الروم حتى بلغ
قسطنطينية ومعه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب
الأنصاري) (١) .

وتحقق موعود الله لهذه الأمة في غزو القسطنطينية مدينة
قيصر ، وشارك في هذا الغزو كبار صحابة رسول الله ، حيث تبدت
وحدة الأمة المسلمة في أروع مظاهرها في هذه المشاركة ، فكان فيهم
ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٣٢ . سنة تسع وأربعين .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري رضي الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام :

(أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) (١) .

وكان هذا أول جيش يغزو القسطنطينية .

وكان هذا إشارة من جانب آخر على مدى الاستقرار والتمكن والألفة التي وصلت إليه الأمة المسلمة بعد أن رقات جراحها ، وقطعت نزيقها الداخلي .

وكان هذا في الميزان العالمي يعني زعزعة الامبراطورية الكبرى من جذورها ، حين تغزى في عقر دارها ، ويدفن أحد سادات المسلمين - أبو أيوب الأنصاري - قريباً من أسوارها .

وهناك إشارة كبيرة وخطيرة إلى هذا الحادث الجلل ؛ هذه الإشارة هي بروز شخصية جديدة على المسرح الاسلامي هي شخصية يزيد بن معاوية الذي قاد هذا الزحف إلى القسطنطينية .

فلقد تعرف على كبار الصحابة ، وكبار القادة المسلمين ، واضطلع بمسؤولية ضخمة على مستوى الأحداث ، وتوجهت له الأنظار ، مما هيا الجو فيما بعد إلى أن يرشحه أبوه أميراً للمؤمنين من بعده .

(١) روى أبو داود بسند صحيح أن أول غزو تم للقسطنطينية كان بقيادة عبد الرحمن بن خالد ، فقد أخرج : (غزونا من المدينة نريد القسطنطينية . . . وعلى الجماعة عيد الرحمن بن خالد) وكان ذلك قبل عام ست وأربعين ، أما غزو يزيد فكان عام خمسين للهجرة . سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨/١ .

إنه ليس هناك أخطر من هذه المسؤولية التي انيطت به ،
واثبت انه كفؤ لها .

كما حدث في هذا العام أن غاب عن الساحة الإسلامية الحسن
ابن علي بن أبي طالب سيد شباب أهل الجنة ، والرجل الوحيد
الذي استحق من بين المسلمين هذا اللقب - سيد - كما سماه
عليه الصلاة والسلام .

« إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من
المسلمين » .

ولم يتوفَّ رضي الله عنه حتى شهد بأمر عينه ثمرة إثاره
وحدة كلمة المسلمين على الجاه والسلطان ، ووجد الفتوحات تزلزل
مدينة قيصر ، فلقد كانت هذه الثمار المباركة نتيجة حكمته وترفعه
عن هواه ، ولنتصور الوضع لو بقي الحسن رضي الله عنه ينازع
معاوية الخلافة ، وكيف سيكون التمزق والصراع والدماء !!

ولعل أفضل ما عبر به عن نفسه يوم قال :

(كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالم ، ويحاربون
من حاربت . فتركتها - أي الخلافة - ابتغاء وجه الله) .

وقوله كذلك :

(خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً أو
أكثر أو أقل تنضح أوداجهم دماً كلهم يستعدي الله فيم أهرق
دمه ؟!) (١) .

(١) تتضافر الروايات الموضوعة دائماً لتجعل كل شخصية
لها وزن خطير في الأمة ؛ تقضي نحبها بالسسم عن طريق معاوية . وكأنما

←

كما توفي الحكم بن عمرو الففاري الصحابي الذي كان يلي امر خراسان لزياد . وشهدت السنة الخمسون للهجرة تطورات حاسمة ونهائية في موضوع الولايات ، فلقد توفي فيها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الساعد الأشد لمعاوية ، والذي كان يكفيه الكوفة - معقل خصومه - بالحكمة واللين والمدارة . ومع وفاته كان لا بد لمعاوية ان ينهي امر المشرق الاسلامي كله ، وايقن معاوية ان الأمير الذي يليق بهذا المصر العظيم هو زياد بن أبيه ، فهو الرجل العاقل الخازم الشجاع الذي يليق بالإمرة وتليق هي به .

→

الامر غدا من المسلمّات التي لا نقاش فيها ، علماً بأن الروايات التي تذكر ذلك ليس لها سند ، وتبدأ عادة بـ (وسمعت بعض من يقول) . أما أقرب الروايات إلى الصحة في موضوع وفاة الحسن فهي ما رواه عبد الرحمن بن صالح العتكي - هو صدوق يتشيع - عن أبي أسامة (صدوق) عن ابن عون (ثقة) عن عمير بن اسحاق (مقبول) قال : دخلت أنا ورجل آخر من قريش على الحسن بن علي ، فقام فدخل المخدع ثم خرج ، فقال : (لقد لفظت - أخرجت - طائفة من كبدي أقلبها بهذا العود . ولقد سقيت السم مراراً ، وما سقيت مرة هي أشد من هذه . قال : وجعل يقول لذلك الرجل : سلني قبل أن لا تسألني - أي تفقدني - فقال : ما أسألك شيئاً ، يعافيك الله ، قال : فخرجنا من عنده ثم عدنا إليه من الغد وقد أخذ في السوق فجاء حسين حتى قعد عند رأسه . فقال : أي أخي ! من صاحبك ؟ قال : تريد قتله ، قال : نعم ! . قال : لئن كان صاحبي الذي أظن الله أشد نقمة . وإن لم يكن ما أحب أن تقتل بي بريئاً .) أورده ابن كثير عن ابن أبي الدنيا بهذا السند في كتابه البداية ج ٨ ص ٤٢ .

وهكذا أصبح زياد بن أبيه أمير الكوفة والبصرة ، وما يليهما
من أرض خراسان وسجستان والهند .

وهكذا اغدا زياد أمير المشرق الاسلامي .

ولقد بقي معاوية يخشى انقضاض العراق عليه ، وكان يحس
أن في سيف زياد رهقا وبطشا ، وكان يود أن تبقى الرهبة في قلوب
أهل العراق حتى لا يفتح مجالا لثغرات داخلية وحروب جانبية .

ويروى أنه كتب لزياد قائلا :

إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة ، باللين
فيمرحوا ، ولا بالشدة فيحمل الناس على المهالك . ولكن كن أنت
للشدة والفظظة والغلظة ، وأنا لللين والألفة والرحمة . حتى إذا
خاف خائف وجد بابا يدخل منه (١) .

ولا شك أن قناعة الناس بحكم معاوية رضي الله عنه ولينه
تبقى مجالا فسيحا للأمل أن لا يظلموا عنده ، وتجعل لدى الأمة
قناعة أنه مهما كانت سلطة الوالي وسطوته فلدى الخليفة في دمشق
ما يحقق العدل ، ويغفر الذنب ، ويعفو عن المسيء .

* * *

وماذا عن المغرب الاسلامي ؟

كان لعقبة بن نافع رضي الله عنه دور عظيم في افتتاح افريقية ،
وعندما احتاج مرة أن ينصب المعسكر في إحدى غابات افريقيا التي
تموج بالسباع والحشرات السامة ، تقدم عقبة ومعه بعض الصحابة
ونادى قائلا :

(١) البداية والنهاية لابن كثير . ج ٨ ص ١٣٦ .

أيها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ، فارحلوا
فإننا نازلون ، فمن وجدناه بَعْدُ قتلناه .

وما هي إلا لمحات قليلة حتى عمّ هذا الخبر اوساط هذه
الحيوانات ، فارتحلت تحمل اولادها (١) .

* * *

وكانت سياسة معاوية أمير المؤمنين تقوم على اختيار أعظم
الكفاءات وتقليدها أعظم المسؤوليات ، فجمع المغرب الإسلامي
كله ؛ مصر وبرقة وأفريقية وطرابلس إلى مسلمة بن مخلد .

وهكذا توزع الشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي بين مسلمة
وزياد ، وبقياً في مسؤوليتهما حتى وفاة معاوية رضي الله عنه
بالنسبة لمسلمة بن مخلد وحتى وفاة زياد بالنسبة إلى زياد .

وهكذا قبع الأعداء مذعورين ؛ خاصة الروم الذين كانوا
يفكرون في الانقضاء على الدولة الإسلامية منذ أيام الفتنة بين
المسلمين في الجمل وصفين (٢) ، وما إن تفرغ معاوية لهم حتى
جعل شأنه أن يقض مضجعهم في عقردارهم .

(١) عن كتاب : « اسباب سعادة المسلمين » صفحة ٥٩ طبعة
دار القلم بدمشق .

(٢) لما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى
بعض البلاد بجنود عظيمة وطمع فيه . فكتب إليه معاوية :
(والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين لأصلحن أنا وابن
عمي عليك ، ولاخرجنك من جميع بلادك ، ولاضيقت عليك الأرض
بما رحبت .) فعندئذ خاف وبعث يطلب الهدنة .

يقول أبو زرعة عن دحيم عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال:
لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تفزو حتى كان عام الجماعة،
فأغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية في الصيف
ويشتتوا بأرض الروم ثم تقفل وتعقبها أخرى . وكان في جملة من
أغزى ابنه يزيد ومعه خلق من الصحابة ، فجاز بهم الخليج ، وقاتلوا
أهل القسطنطينية على بابها (١) .



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٣٣ .

هَزَّةٌ جَدِيدَةٌ مِنَ الدَّاحِلِ

كانت هذه الهزة مقتل حجر بن عدي :

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن محمد بن سيرين (١) قال :
خطب زياد يوماً الجمعة ، فأطال الخطبة وأخر الصلاة ، فقال له
حجر بن عدي : الصلاة ! فمضى في خطبته ، ثم قال : الصلاة !
فمضى في خطبته . فلما خشي حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى
كفٍ من الحصى ، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه فلما رأى ذلك
زياد نزل فصلى بالناس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في
أمره ، وكثر عليه .

(فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم أحمله إلي .)

فلقد كانت الصورة التي بلغت معاوية رضي الله عنه - على
ما يبدو - توحى بأن الكوفة على وشك الخروج عليه . ولأول مرة
نجد لمعاوية موقفاً مغايراً لطبيعته وحلمه . ولقد تناقلت الآفاق
موقف حجر بن عدي ، لأن الكوفة كما قلنا من قبل هي معقل
الخصوم ، فأى موقف علني سرعان ما تتناقله الركبان ، يتوقعون

(١) أورده ابن جرير عن علي بن حسن (مقبول) عن مسلم
الجرمي (مجهول) عن مغلذ بن الحسن (مقبول) عن هشام بن
عروة (ثقة ربما دلس) عن محمد بن سيرين (ثقة ثبت) . وهو
أقرب الأسناد إلى الصحة .

من خلاله حدثاً جديداً تتلوه أحداث "جسام" ... تفسر موقف معاوية هذه المرة .

وبلغ الخبر أم المؤمنين عائشة ، فسارعت وأرسلت عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام إلى معاوية تسأله أن يخلي سبيل حجر ومن معه (١) .

ولكن هيهات فلم يصل رسول أم المؤمنين إلى معاوية إلا وقد أفلت الأمر من يده .

ويتابع ابن جرير حديثه قائلاً :

فكتب إليه معاوية أن شدة في الحديد ، ثم أحمله إلي . فلما أن جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه فقال :

لا ، ولكن سمع وطاعة .

فشد في الحديد ، ثم حمل إلى معاوية .

فلما دخل عليه قال :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال له معاوية : أمير المؤمنين !!؟

أما والله لا أقتلك ولا أستقتلك .

أخرجوه فاضربوا عنقه .

فأخرج من عنده .

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٤ عن محمد ابن سعد في الطبقات عن بعض أهل العلم .

وظاهر من موقف معاوية رضي الله عنه أنه موقف الغضبان المنزعج ؛ وذلك لأن كل الأجواء والدلائل تشير إلى اتهام حجر ، فلم يكن نكرة بين الناس ، وكان معروفاً بأنه من أشد شيعة علي وأقواهم شكيمة ، وهو لا يخفي حبه لعلي وولاءه له حتى أمام الولاة . وكان المغيرة بن شعبة كثيراً ما ينصحه في إخفاء موقفه العلني فلا يستجيب ، ولم يكن المغيرة راغباً في الوقت نفسه في فتح معركة مع حجر وشيعة علي خلفه ، إذ قال المغيرة :

إنه قد اقترب أجلي ، وضعف عملي ، ولا أحب أن ابتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك واشقي ، ويعز في الدنيا معاوية ويدل يوم القيامة المغيرة . ولكنني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئتهم ، وحامد حلیمهم ، وواعظ سفيهم ، حتى يفرق بيني وبينهم الموت .

لكن سياسة زياد تختلف عن سياسة المغيرة ، ومع هذا لم يجرؤ أن يتصرف بشيء دون إذن معاوية .

واندفع معاوية في موقفه .

وها هو حجر يلقي مصيره .

وقال حجر للذين يلون امره : دعوني حتى أصلي ركعتين .

فقالوا : صل .

فصلى ركعتين خفّف فيهما ، ثم قال :

(لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول

مما كانتا) !!

إنه يمضي على سنة خبيب رضي الله عنه الذي سن ركعتي الموت ، وكانتا ركعتين قصيرتين من خبيب كذلك . وقال :

لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت .

وهو ما عناه حجر رضي الله عنه ، خشي أن يظنوا أن خوف الموت هو الذي دفعه إلى إطالة الصلاة ، إنه أحب أن يقابل وجه ربه في آخر لحظات حياته ، ثم استعداد شريط حياته في لحظات قصار وقال :

ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير ، فما في هاتين خير .

وجاؤوا إليه يفكون وثاقه ، ولمعت في ذهنه بارقة ، فقال لهم في عزمة صادقة وثقة بحقه وموقفه :

لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً . فإني الاقي معاوية غداً على الجادة .

ثم قدّم فضربت عنقه !!

وكان معاوية قد جلس بعدما غادره الجند الذين أوكل لهم قتل حجر بن عدي وأصحابه وكانوا أربعة عشر رجلاً . وراح يراجع رأيه وموقفه ، ثم غلب حلمه عليه ، وأحب أن يحقن دماءهم ، فلم يضع دمه في عنقه ؟

الا يمكنه أن يسجنهم ، أو يفرقهم في الأمصار ، فيسكت الفتنة ويجتثها ؟!

الم تنجح هذه الخطة معه مع جميع خصومه دون أن يهريق دم أحد ؟ .

ثم استقر رأيه على ذلك بعد حديث نفسي طويل ، وقرر إنقاذ حياة القتلى قبل إنفاذ القتل ، فبعث رسولاً بذلك على عجل .

ووصل رسول معاوية بأمره إلى الجند . بَيند ان الامر كان قد افلت من يده ، فقد كان القوم قد لقوا مصرعهم ، ومضى حجر إلى ربه شهيداً بأصفاده ، ومضى معاوية قلقاً مهموماً كلما عاد حجر إلى ذاكرته هو وصحبه .

وسادت الأمة المسلمة موجة ألم وهم لما نزل بحجر .

حتى كان مقتل حجر بن عدي من أكبر ما أخذ الصالحون على معاوية رضي الله عنه ، فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها آلمها كثيراً مصرع حجر ، والحسن البصري كان يأخذ على معاوية فيما يأخذ قتله حجر بن عدي .

ومعاوية رضي الله عنه كان يأخذ فيما يأخذ على نفسه قتله حجراً ، ويقول :

يومي منك يا حجر يوم طويل (١) .



(١) أورده ابن جرير عن ابن سيرين في تنمة الرواية السابقة . ٢٥٦/٥ .

لِقَاء مَعَ قَادَةَ الْأُمَّةِ

كان معاوية رضي الله عنه قد أجرى هذا اللقاء عندما حج وزار مكة والمدينة وذلك بعد مقتل حجر بن عدي ، فقد التقى بالحسين وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . وها هو يجد نفسه الآن تتوق إلى حج بيت الله الحرام ، وإلقاء أوزاره التي تصدر عنه بصفته بشراً يخطيء ويصيب .

لقد أحس بأشواق روحية تدفعه إلى هذه الأماكن المقدسة ، ولعل مايعانيه من مقتل حجر وصحبه مايزال يؤرقه ، فهو يطمع أن يلقي قادة الأمة ، فيعتذر لهم عن هذا الحدث الجلل . وكان ما عزم عليه ، فحج بالمسلمين هذا العام ، ثم مضى إلى المدينة .

وكان أهم مايشاه لقاء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فهو يعرف موقفها العنيف من مقتل أخيها محمد بن أبي بكر ، وهو يود أن تكون له سنداً وعوناً في حكمه ، فلو اتخذت موقفاً معادياً منه لزعزعت بنيان حكمه .

وها هو يستأذن على عائشة فتتردد أولاً في الإذن له ، ثم تسمح له بذلك .

قالت عائشة : اقتلت حجراً ؟!

قال : يا أم المؤمنين إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس
خير من استحيائه في فسادهم (١) .
عائشة : يا معاوية قتلت حجراً واصحابه ، وفعلت الذي
فعلت ، أما خشيت أن أخبأ لك رجلاً يقتلك ؟!!
وصمت معاوية قليلاً وقال :
لا . إني في بيت الأمان .

(١) لاشك أن الفساد المقصود هنا هو إثارة الناس على الحكم
وخلق فتنة جديدة ، وهذا مرتبط بصحة المعلومات الواردة لمعاوية
رضي الله عنه في هذا الموضوع ، ولا يبعد أن يكون فيها شيء من
المبالغة ، وهذا لا مسؤولية على معاوية فيه ، لقد وجدنا خالد بن
الوليد رضي الله عنه يقع في بعض الأخطاء في القتل حتى ليتبرأ رسول
الله ﷺ من صنيعه في بني جذيمة قائلاً :

(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) !!
ووجدنا عمر رضي الله عنه يطالب بعزل خالد في قضية الأسرى
الذين قتلوا خطأ ، قائلاً لأبي بكر : اعزله إن في سيفه لرهقاً .
فكان جواب الخليفة العظيم لعمر رضوان الله عليه :
تأول فأخطأ ، كف لسانك عن خالد ، لا أشيم سيفاً سله الله
على المشركين !!
ولعل معاوية رضي الله عنه تأول فأخطأ ، كما قال في بعض
اعتذاراته :

إنما قتلهم من شهد عليهم .
ومما قاله فيما روي عنه : إن يقتل رجل واحد خير من أن
يقتل مائة ألف .
فتعود الدماء من جديد لاترقاً في الأمة ولا تصان .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) .

عائشة : أين ذهب عنك حلمك يا معاوية حين قتلت حجراً وأصحابه ؟!

معاوية : حين غاب عني من قومي مثلك يا أماء .

وسادت فترة صمت قصيرة ، ثم قطعها معاوية قائلاً :

فكيف بري بك يا أماء ؟

عائشة : إنك بي لبار .

معاوية : كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك وأمرك ؟

عائشة : صالح .

معاوية : فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا عزوجل (١) .

وغادر معاوية حجرة عائشة رضي الله عنها ، وأتاه وجوه أهل المدينة يسلمون عليه ، فاستقبلهم وبشاً لهم ، ثم أتى مسجد الرسول ﷺ وصعد المنبر ، فأعلن سياسته على المسلمين بمصارحة تامة ووضوح عجيب ، ووضع نفسه في الموضع الملائم ، بلا غرور ولا تغطرس ولا كبرياء ، وبتواضع متناهٍ وحكمة بالغة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(١) ورد هذا في روايات عديدة وصحيحة ، منها رواية للامام أحمد بسنده عن ابن أبي مليكة .

أما بعد : فإني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم انكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها ، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك ، ولكني خالستكم بسيوفي هذا مخالسة .

ويقف المرء أمام هذا التصور موقفاً متأنياً ويتساءل :

لم كان أهل المدينة لا يحبون إمرة معاوية !!؟

والجواب بيتن واضح :

فلئن كانت الكوفة مركز شيعة خصمه وهم الآن جنود واتباع ، فإن المدينة المنورة مركز القيادات الإسلامية ومستودع الأكفاء الذين يضارعون معاوية ؛ بل ويسبقونه جهاداً وسابقة وبلاء .

لا يزال في المدينة إلى الآن سعد بن أبي وقاص وهو من أهل الشورى الستة ، ولا يزال فيها سعيد بن زيد أحد المبشرين العشرة .

ولا يزال فيها أنصار رسول الله وعدد من المهاجرين ، وبقيّة أهل بدر ، وبقيّة أهل بيعة الرضوان .

إن المدينة هي التي كانت تفرز القادة والولاة ، والحاكمين .

أو ليس معاوية وكثير من ولاته هم من تربية المدينة المنورة ونتاجها المبارك ؟ . وانتقال السلطة من المدينة إلى الشام يعني الانتقال من الخلافة إلى الملك ، وهذا ما صرح به معاوية الأمة وقادتها بقوله :

(ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه ، وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك ، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت عليّ ،

واين مثل هؤلاء ؟ ومن يقدر على اعمالهم هيهات ان يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم ؟ رحمة الله ورضوانه عليهم) .

إنه يعلن على الأمة أن الخلافة مضت مع ذلك الرعيل ، وأنه لن يقدر أن يكون على مستواهم . فكيف يكون الوضع اليوم ؟ يقول : (غير أنني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك ، ولكل فيه مواكلة حسنة ، ومشاركة جميلة ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة) .

إنه يعلن خطته الاقتصادية في توفير الرفاه للأمة ، ويرى ارتباط هذا بالاستقامة على منهج الله من قبل الحاكمين ، والطاعة في المعروف من المحكومين .

ولا ينكر على الناس أن يعتقدوا أن فيهم من هو خير منه ؛ فهذا حق شخصي لكل فرد ، لا يتدخل فيه ، بل هو لا يخالف في واقع هذا الأمر . إذ يقول : (فإن لم تجدوني خيركم ، فانا خير لكم) .

ويعلن سياسته الأمنية فيقول :

(والله لا أحمل السيف على من لاسيف معه . ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دُبر أذني) .

ويعلن لهم أن حقهم محفوظ ، ولن يألو جهداً في إبلاغهم إياه ، ولكن نقصان هذا الحق لا يقتضي الفتنة والثورة ، لأن الفتنة تأكل النعمة ، وتورث النقرة ، وتأكل الأخضر واليابس ، فيقول :

(وإن لم تجدوني اقوم بحقكم فارضوا مني ببعضه . فإنها

بقابية (١) قوبها ، وإن السيل إذا جاء يبرى ، وإن قل أغنى - أي أن الفتنة إذا خرجت فلن تنتهي إلا بالإفناء - وإياكم والفتنة فلا تهموا بها ؛ فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال .

استغفر الله لي ولكم ، استغفر الله (٢) .

ثم نزل .

لقد كانت روح هذا البيان تختلف تماماً عن روح البيان الذي قدمه زياد :

بيان زياد ، تظهر منه روح السطوة والسلطة على قوم عاث سفهاؤهم فيهم فساداً .

أما روح بيان معاوية رضي الله عنه فهي أشبه باعترافات لأهل الحقوق بحقوقهم ، وإجلال لقادة الأمة في مراكزهم .

ونتساءل عن أهل المدينة وخليفتهم الراحل علي رضي الله عنه الذي كان آخر العقد في المدينة .

(١) قابية : البيضة . القوب : الفرخ (ويعني بانبثاق الفتنة من مهدها . كخروج الفرخ من البيضة) .

(٢) أورد ابن كثير هذه الخطبة عن الأصمعي (ثقة) عن الهذلي (إخباري) عن الشعبي (ثقة) . غير أن فيها إشكالاً هو أنها ذكرت في عام الجماعة ؛ علماً بأن معاوية رضي الله عنه لم يحج إلا عام أربعة وأربعين وعام خمسين أو واحد وخمسين . وأرجح أنها تمت في أحد هذين العامين . ونحن لا يضيرنا العام الذي قيلت فيه لأنها تمثل عرضاً نفسياً لطبيعة معاوية أياً كانت السنة التي قيلت فيها .

فلم يذكر معاوية علياً في خطبته ؛ لأنه في الأصل لم يعترف بخلافته .

وكان لابد أن يتعرف على رأي خاتمة هذا العقد ، على رأي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد المرشحين السابقين للخلافة . وتمت المقابلة بين الشخصيتين .

وبعد حديث قصير أحب معاوية أن يعرف مكنون قلب سعد ، فما أمهله أن سألته :

— مالك لم تقاتل معنا ؟

سعد : إني مرت بي ريح مظلمة فقلت : أخ أخ ، فأنخت راحلتي حتى انجلت عني ، ثم عرفت الطريق فسرت .

معاوية : ليس في كتاب الله أخ أخ ، ولكن قال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . .)؛ فوالله ما كنت مع الباغية على العادلة ، ولا مع العادلة على الباغية .

سعد : ما كنت لأقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ : أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي !!

معاوية : من سمع هذا معك ؟

سعد : فلان وفلان وأم سلمة .

معاوية : أما إني لو سمعته منه ﷺ لما قاتلت علياً (١) .

(١) رواه كثير النوري عن عبد الله بن بديل . أما كثير النوري : فلم أعثر على اسمه في تاريخ الرجال ، وأما عبد الله بن بديل : فصدوق يخطيء . (البداية والنهاية ج ٨ ص ٧٧) .

وهكذا وبكل بساطة يقول الحق ويعتذر لاهله ، ولا عجب من ذلك فالزبير عندما قال له علي : أما تذكر يا زبير يوم قال لك رسول الله ﷺ : إنك ستقاتل علياً وانت ظالم له ؟!

فقال الزبير يومها : لو ذكرت هذا ما خرجت إليك .

إنه الجيل الذي يعيش بالحق ومع الحق ، ولا يجد غضاظة في أن يؤوب إلى الحق ويدل نفسه للحق^(١)!

(١) روى الترمذي عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : «أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً . فقال : ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ قال :

أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله ﷺ فلن أسبه ، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم :

سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي وخلفه في بعض مغازيه فقال له علي : يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان فقال رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي وسمعت يقول يوم خيبر : لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله فقال : فتناولنا لها ، فقال : ادع لي علياً . فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدفع الراية إليه . ففتح الله عليه . وأنزلت هذه الآية : ﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ الآية ، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي .»

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

لقد كانوا كما وصفهم الله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء
بينهم ...) .

وكما وصفهم في مكان آخر :

(اذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ...) .

وكانوا بحق خير القرون على مدار التاريخ .



يزيد بن معاوية ولي للعهد

العام تلو العام يمر، والأمن يضرب بجرانه في الأرض الإسلامية، والفتوحات تمتد في المشرق والمغرب، والمجاهدون على الثغور مرابطون في سبيل الله .

ونظر معاوية في نفسه ، فرأى أنه يدلف إلى السبعين ، وقد ناءت به السنون ، وطال به العهد ، فراح يفكر في حال الأمة بعد موته كيف تؤول ؟ . كما أن ولاته الكبار قد تقدموا في العمر ، ولا بد أن يمارس الجيل من الشباب مسؤولياته ، خاصة بعد وفاة أمير المشرق زياد بن أبيه .

لقد حرص معاوية منذ لقائه مع عائشة رضي الله عنها على التأسي برسول الله ﷺ ، فأرسل إليها قائلاً : أن أرسلني لي بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره .

يقول راوي الحادثة :

(فأرسلت به معي أحمله حتى دخلت به عليه ، فأخذ الانبجانية فلبسها ، وأخذ شعره فدعا بماء فغسله وشربه وأفاض على جلده (١) ثم احتفظ بالشعر عنده .

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٢ عن خالد ابن محمد البجلي (صدوق يتشيع) عن سليمان بن بلال (ثقة) عن علقمة بن أبي علقمة (ثقة علامة) عن أمه واسمها مرجانة (مقبولة) .

وكان لا يدع فرصة تفوته يستمع فيها إلى صحابة رسول الله ﷺ ، يستشيرهم ويستأنس برأيهم .

هذا المسور بن مخرمة رضي الله عنه يفد على معاوية ، وكان يعلم أن المسور لا يفتأ يوجه نقده للخليفة وولاته ، فكانت فرصة سانحة أن يفتح معه هذا الحوار :

معاوية : ما فعل طعنك على الأئمة يا مسور ؟

المسور : ارفضنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له (فهو يريد صرف معاوية عن الحديث) .

معاوية : لتكلمني بذات نفسك .

يقول المسور : فلم أدع شيئاً أعيبه عليه إلا أخبرته به .

وساد الجو صمت قصير ، ثم رفع معاوية نظره للمسور وقال له في ثقة وعينه مركزتان فيه :

فهل لك من ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟

المسور : نعم : إن لي ذنباً إن لم يغفرها هلكت بسببها .

وأحسن المسور وهو يرد الجواب أنه قد أفحم ، لكنه تابع نظره بمعاوية الذي قال له :

فما الذي يجعلك أحق بأن ترجو أنت المغفرة أكثر مني ؟؟

ولم يحر المسور جواباً . لكن معاوية مضى في جوابه باندفاع وحرارة يقول :

فوالله لما إلي من إصلاح الرعايا ، وإقامة الحدود ، والإصلاح بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمور العظام التي لا يحصيها إلا الله ، ولا تحصيها ؛ أكثر مما تذكر من العيوب والذنوب .

وأطرق المسور ملياً يفكر ، ومعاوية لا يزال ماضٍ في حديثه :
وإني لعلّ دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات .
والله على ذلك ما كنت لأخبر بين الله وغيره ؛ إلا اخترت الله على غيره مما سواه .

واستأذن المغيرة ، ودخل على معاوية ، وكان المسور قد أخرجته كلمات معاوية ، فما عاد يطيق المكث عنده ، فخرج .
يقول المسور رضي الله عنه يصف ماجرى له بعد الحديث مع معاوية :

ففكرت حين قال لي ما قال ، فعرفت أنه قد خصمني .

قال : فكان المسور إذا ذكره بعد ذلك دعاً له بخير (١) .



كان أهم ما يشغل بال معاوية : من يستخلف بعده ؟

كان يستعرض في ذهنه القادة المرموقين في الساحة الإسلامية ، فيراهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس .

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٣ . عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن . عن المسور بن مخرمة . ورجال السند كلهم عدول ثقات .

لكنه كان يرى في نفس الوقت ان الأمر لا ينضبط لاي واحد منهم ، فقد تقع الأمة في خلافات ومحن جديدة ، وفي حروب تآكل فيها بعضها بعضاً ، وكفاها ما قدمت من تضحيات . إن يزيد ابنه ليس نِدْآ لهؤلاء ، ولكنه مع ذلك أهل للمسؤولية .

فلقد مارس مسؤولية ضخمة وأثبت جدارته لها يوم حاصر القسطنطينية ، وكانت تلك الغزوة قمينة بأن توجه الانظار إليه ، خاصة انه التقى فيها مع كبار المجاهدين وسادة المسلمين .

لكنه في هذا يسن سنة جديدة لم يسنها أحد قبله .

أن يجعل في حياته ولاية للعهد أولاً .

وأن يكون ولي العهد ابن أمير المؤمنين ثانياً .

ومع ذلك فقد أحب أن يتعرف على آراء بعض الصحابة في المدينة ؛ فبعث إلى واليه هناك : أن أوفد لي من شاء .

وكان الوافد الآخر :

(فوفد له عمرو بن حزم الانصاري يستأذن ، فجاء حاجب معاوية يستأذن فقال :

هذا عمرو قد جاء يستأذن .

معاوية : ماجاء بهم إلي ؟

قال : يا أمير المؤمنين يطلب معروفك .

معاوية : إن كان صادقاً فليكتب إلي فأعطيه ما سأل ، ولا أراه .

قال فخرج إليه الحاجب ، فقال : ما حاجتك ؟ اكتب ماشئت (فانفعل عمرو بن حزم رضي الله عنه وقال للحاجب :

(سبحان الله احيء إلى باب أمير المؤمنين ، فأحجب عنه ،
أحب أن القاه فأكلمه .

قال معاوية للحاجب : عده يوم كذا وكذا ، فإذا صلى الفداة
فليجيء) .

ومضى عمرو مهموماً لهذا الإرجاء ، وكاد يقطع زيارته ويمضي
إلى المدينة ؛ لولا أنه كان يشعر أن عنده رأياً خطيراً يود أن يقوله
لمعاوية ، ومرت الساعات ثقيلة عليه لكنه كان يحتسبها عند الله ،
وحانت صلاة الفداة .

(فلما صلى معاوية الفداة ، أمر بسريره ، فجعل في الإيوان .
ثم يخرج الناس عنه فلم يكن عنده إلا كرسي وضع لعمرو . فجاء
عمرو فاستأذن ، فأذن له ، فسلم عليه ثم جلس على الكرسي ،
فقال له معاوية : حاجتك ؟

قال :

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب من قریش،
غنياً عن المال ، غنياً إلا عن كل خير . وإني سمعت رسول الله ﷺ
يقول :

إن الله تعالى لم يسترع عبداً رعية إلا وهو سائله عنها يوم
القيامة ، كيف صنع فيها ؟ .

وإني أذكرك الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ من تستخلف
عليها) . وانتهى كلامه ، ونظر إلى معاوية ما يكون منه ، ولا
يضره ذلك بالغا ما بلغ .

أطرق معاوية ، ثم رفع رأسه وشهق شهيقاً طويلاً كاد يغيب فيه عن وعيه ، (فأخذه ربو ونفس في غداة قرّ (برد) حتى عرق ، وجعل يمسح العرق عن وجهه ملياً ، ثم أفاق) .

لقد كان الأمر يملك عليه حياته ، فلم يفكر في استخلاف يزيد إلا بعد دراسة مستأنية وطويلة ، وانتهى به التفكير إلى هذا الرأي .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(أما بعد فإنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك بالغاً مابلغ) .

فلقد أسعده جراءة عمرو بن حزم وتذكيره له بربه .

وتابع قائلاً : (.. وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحق من أبنائهم .

حاجتك .

قال عمرو : مالي حاجة .

قال : قم .

فقال له أخوه : إنما جئنا من المدينة نضرب أكبادها من أجل كلمات ؟!

قال : ماجئت إلا للكلمات ..

قال : فأمر لهم بجوائزهم ، وأمر لعمر و مثلها (١) .

عمرو بن حزم يضرب أكباد الإبل من المدينة للشام ليذكر معاوية بحديث رسول الله ﷺ ، وليطلب منه أن يستأني قبل أن يعلن قراره

(١) مجمع الزوائد عن ابن سيرين ج ٤ . سكت عنه البوصيري .

وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

الآخر ، لأن الله سألته عن هذه الأمة من استخلف عليها . عمرو
هذا يتجشم هذا السفر الطويل ليقول كلمة الحق ، لا يخشى في
الله لومة لائم ، بالغاً ما بلغ . لأنه يعلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله
ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ولا بد من نصيحة الإمام استجابة لله ورسوله .

وهذا الخليفة يجد من يتحرك إلى المدينة ليذكره بالله ورسوله ،
وأن يحسن اختيار الخليفة من بعده . فيشكر له نصحه ، ويشكر له
جهده ، ويعطيه جائزته كما يعطيها للوفد غير منقوصة درهماً واحداً
عن إخوانه .

ويعلم معاوية رضي الله عنه أن المعارضة ليزيد إن وجدت ،
فلن توجد إلا من قادة الأمة : عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن
ابن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي بن أبي طالب .

والمدينة هي المركز الوحيد الذي فيه صفوة خيار المسلمين
من المهاجرين والأنصار ؛ فلا بد من مواجهة الموقف والمسير إلى
المدينة لأخذ البيعة بشخصه لأنه لن يستطيع هذا الأمر أحد غيره .

ومما يسعدنا أن يكون بين أيدينا رواية للمحدثين تصور كيف
أخذ معاوية هذه البيعة ، وهي أصح ماورد في هذا الموضوع :

فعن ذكوان مولى عائشة قال : لما أجمع معاوية أن يبايع لابنه
يزيد حج فقدم مكة في نحو من ألف رجل ، فلما دنا من المدينة خرج
ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فلما قدم معاوية
المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ابنه يزيد فقال :
من أحق بهذا الأمر منه ؟ !

ثم ارتحل فقدم مكة ف قضى طوافه ، ودخل منزله فبعث إلى
ابن عمر ، فتشهد وقال :

أما بعد يا بن عمر فإنك كنت تحدثني أنك لاتحب أن تبیت ليلة
سوداء ليس عليك أمير ، وإني احذرك أن تشق عصا المسلمين ، وأن
تسعى في فساد ذات بينهم .

فلما سكت تكلم ابن عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(أما بعد : فإنه قد كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير
من آبائهم ، فلم يروا في آبائهم ما رأيت أنت في ابنك ، ولكنهم
اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار) .

لقد أدى ابن عمر رضي الله عنهما نصيحته ، وقال كلمة الحق
لايهاب لومة لائم ثم قال :

(وإنك تحذرني أن اشق عصا المسلمين ، وأن أسعى في فساد
ذات بينهم ؛ ولم أكن لأفعل ، إنما أنا رجل من المسلمين ، فإذا
اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم) .

وهذه هي وجهة نظر ابن عمر رضي الله عنهما في مواقفه دائماً .

لن يكون أساساً لشق عصا المسلمين .

(وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، فتشهد وأخذ في
الكلام . فقطع عليه كلامه فقال : إنك والله لوددت أن وكلناك في
أمر ابنك إلى الله ، وإنا والله لانفعل . والله لتردن هذا الأمر شورى
في المسلمين أو لنعيدنها عليك جذعة . ثم وثب فقام) .

وموقف ابن أبي بكر رضي الله عنهما موقف واضح صريح .
لا بد من تطبيق منهج الخلافة ، من تطبيق الشورى في الحكم ، أو
الحرب إن لم يكن ذلك .

فقال معاوية : اللهم آلفنيه بما شئت ، ثم خاطبه معاوية :

على رسلِك ايها الرجل ، لا تشرفنَ بأهل الشام ؛ فإنِّي اخاف
أن يسبقوني بنفسك ، حتى اخبر العشية أنك قد بايعت . ثم كن
بعد ذلك على ما بدا لك من امرك) .

إن معاوية قد خشي على حياة ابن ابي بكر ، فسارع إلى
نصحه أن لا يواجه جماعة الشام بأفكاره ، وترك له أن يتصرف كما
يحب بعد إظهار البيعة .

ثم ارسل إلى ابن الزبير فقال :

يا ابن الزبير ، إنما انت ثعلب رؤّاغ ، كلما خرج من جحر
دخل آخر ، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين - ابن عمر ، وابن
ابي بكر - فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رايهما .

فتكلم ابن الزبير فقال :

إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها ، وهلم بنا ابنك فلنبايعه !
أرايت إذا بايعنا ابنك معك لايكما نسمع ؟ لايكما نطيع ؟! لا نجمع
البيعة لكما والله أبداً) .

لقد واجه ابن الزبير رضي الله عنهما الأمر من طرف آخر ،
من باب الإنكار على اجتماع البيعتين في وقت واحد ، ورفض هذا
المنطق الجديد الذي لم يسبق له أحد .

إن معاوية بين امرين : إما أن يفرض البيعة بالقوة على معارضيهِ
وهو مقتنع فيها ، وهذا قد يقود إلى إزهاق أرواح أكرم الشخصيات
الإسلامية وهذا مالا يرضاه أبداً ، ولا شيء اكره له من ذلك .

وإما أن يترك هؤلاء بلا بيعة فيشقون عصا الطاعة ، وقد
يقود هذا إلى أن تراق دماء الأمة كلها في تحزبها لقيادات جديدة .

لقد كانت وجهة نظره أن يسكت قادة الأمة على البيعة فلا يشقون عصا الطاعة ، ولا يذلون في البيعة ، وهذا الذي سارع إلى تنفيذه :

(ثم قام فراح معاوية فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار ؛ زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد ! قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له .

فقال أهل الشام : لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم . فقال :

مه ، سبحان الله ، ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء ! لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم . ثم نزل .

فقال الناس : بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ، ويقولون : لا والله ما بايعنا . ويقول الناس : بلى لقد بايعتم . وارتحل معاوية فلحق بالشام (١) .

ثم ما هي وجهة نظر معاوية في ولاية يزيد للعهد ؟

(١) تاريخ خليفة بن خياط عن وهب بن جرير (ثقة) عن جرير بن حازم (لا بأس به) عن النعمان بن راشد (صدوق فيه ضعف) عن الزهري (الفقيه الجافظ الثقة) . أما الرواية الثانية التي تشير إلى تهديدهم بالقتل فهي مروية عن أشياخ من المدينة مجهولين فلا يمكن الاطمئنان إليها (عن وهب بن جرير عن جويرية ابن أسماء عن أشياخ من المدينة) .

فلقد كانتبيعة يزيد في حقيقة الامر من علائم الملك لا من علائم الخلافة ، إنه لا غضاضة أن تتم البيعة في حياة معاوية لاحد قادة الأمة كي يطمئن على الأمة بعد وفاته ، فلقد استخلف قبله من هو خير منه كما فعل الصديق رضي الله عنه .

ولا غضاضة أن يدع الأمر بعده للمسلمين ، فلقد ترك رسول الله ﷺ الأمر للمسلمين من بعده .

ولا غضاضة أن يحدد الأمر في قادة المسلمين من بعده كما فعل من هو خير منه الفاروق رضي الله عنه .

أما أن تكون البيعة لولده من بعده من جهة ، وأن تحدد به في حياة الخليفة نفسه من جهة ثانية ؛ فهو الشيء الخارج على الأصول المرعية في الخلافة الإسلامية ، وهو أشبه ما يكون بالملك لا بالخلافة ، وهذا ما حدا ببعض المسلمين أن يطلق على هذا التصرف : هرقلية وكسروية ؛ كلما مات قيصر قام قيصر .

ونعود لتسائل ثانية : ما هي وجهة نظر معاوية في ولايته للعهد ؟

إن الفتن التي تلاحقت يتلو بعضها بعضاً جعلت من الصعوبة بمكان أن يلتقي المسلمون على خليفة واحد ، خاصة والقيادات الإسلامية المتكافئة في الإمكانيات قد يضرب بعضها بعضاً ، فتقع الفتن والملاحم بين المسلمين مرة ثانية ، ولا يعلم إلا الله مداها .

ومرور قرابة عشرين عاماً ، وذات البين حسنة ، وطاقات المسلمين موجهة إلى عدوهم ؛ هو نموذج رائع لوحدة الكلمة بين المسلمين .

هذا من جهة .

ومن جهة ثانية :

فإمكانيات الحكم ورجاله وسلاحه كلها متوفرة في الشام ،
وبنو أمية عصب الملك قد تمرسوا بمسؤوليات الحكم ، وخبروا
أساليبه . وجمهور قاعدة الحكم من الجنود وأجهزة الدولة قد
انصاعوا على الولاء لمعاوية رضي الله عنه ، فأى تغيير جديد في هذه
الأجهزة قد يعيد البلبلة والفوضى من جديد .

وكون يزيد بن معاوية قد تمرس بالسلطة وخبر أساليبها
ومارس جوانب من مسؤولياته فيها ، وعرف فنونها وطرائقها ،
وقاد الجيوش ، وحاصر العدو ، وعرف نكايته وأساليبه وطرائقه ؛
كان هذا كافياً لأن يقع اختيار معاوية على يزيد .

لقد كانت هذه القناعة واضحة في خط معاوية السياسي كله .

فلقد ذكر ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي قول معاوية :

يا أيها الناس : ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير مني .
عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما من الأفاضل . ولكن
عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكاكم في عدوكم ، وأدركم حلباً (١) .

ولا ننكر أبداً دور العاطفة البشرية من الأب لابنه ، فقد
ساهمت مع الأسباب السابقة في اختيار يزيد ولياً للعهد .

وإنكار دور العاطفة البشرية إنكار لا مبرر له ، وحصر الأسباب
من خلال هذه العاطفة هو تعصب كذلك لا مبرر له ، فثقة معاوية
بكفاءة يزيد ثقة جيدة .

(١) رواه أصحاب محمد عن ابن سعد عن محمد بن مصعب
(صدوق كثير الغلط) عن أبي بكر بن أبي مريم (ضعيف) عن ثابت
مولى معاوية (البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٤) .

ولكننا حين نقارن بين الموقفين : موقف علي وموقف معاوية :
نلاحظ الفرق بين الملك والخلافة .

علي رضي الله عنه يسأله المسلمون وهو على فراش الموت :
أنولي الحسن بعدك ؟
فكان جوابه : لا آمركم ولا أنهاكم .

فرغم ثقته بكفاءة ابنه الحسن ؛ لكنه ابتعد عن ذلك لئلا يكون
للعاطفة الأبوية دور في هذا التوجيه ، وأعلن رأيه بصراحة تامة :
لا آمركم ولا أنهاكم .

فالأمر أمر المسلمين ، وهم أدري بشؤونهم منه ، وهو متجه
إلى جوار ربه .

يقول ابن كثير رحمه الله :

(فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية ، ورأى أنه لذلك
أهلاً ، وذلك من شدة محبة الوالد لولده ، ولما كان يتوسم فيه من
النجابة الدنيوية ، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب
الملك ، والقيام بأبنته . وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة
في هذا المعنى . ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به :

**إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس
لها راع) (١) .**

ولقد صدق الواقع حدس معاوية ونبوءته ؛ فبعد هلاك يزيد
ابن معاوية ماذا كان الأمر ؟ العراق والحجاز لعبد الله بن الزبير ،
والشام لعبد الملك بن مروان .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٨٠ .

ووقعت دماء وسالت أنهاراً حتى انتصر عبد الملك على خصمه
عبد الله بن الزبير .

وتلك العراق التي أقضت مضجع الخلافة الإسلامية ، هي
نفسها التي تعلن الثورة على يزيد ، وتستدعي الحسين بن علي
رضي الله عنهما ، ثم تقوده إلى الذبح متخيلة عنه ؛ بعد أن منحوه
قلوبهم وشهروا عليه سيوفهم .

وعندما دعي ابن الزبير رضي الله عنه إلى أن يمضي إلى الشام ،
رفض ذلك ؛ لأن أركان الحكم في الشام وجنوده وأعوانه لا يرتاح
إليهم أولاً ، ولا يمكن أن يخلصوا له من جهة ثانية .

إن طبيعة المعركة التي تمت بين علي ومعاوية جعلت جيش
معاوية في استقرار تام ، وطاعة عظيمة ، واتباع عجيب . بينما
كان جيش علي رضي الله عنه يخرج عليه ، ويتلكأ أهل العراق في
طاعته ؛ حتى يدعو ربه أن يتخلص منهم ومن سلبيتهم وخذلانهم له .

ولقد أصاب الحسن بن علي رضي الله عنه من أهل العراق
ما أصاب أمير المؤمنين علياً رضوان الله عليه .

ولو قام الحكم في أي مكان غير دمشق فلسوف تكون الشام
خطراً عليه .

لقد تركز الملك ومفاهيمه في الشام ، ولقد تبدل كثير من
أسس الخلافة الأولى التي كانت تربط الأمة بالمبدأ أكثر من ربطها
بالشخص .

هكذا آل الوضع ، وصدق معاوية حين قال : رضينا بها
ملكاً .

هل يمكن أن نقول : ان الجيل الثاني من الامة لم يكن على مستوى الخلافة ؟

نعم ، يمكن أن يكون ذلك .

وفي ميزان الملك : فيزيد جدير به .

وفي ميزان الخلافة : فكل اولئك نفر هم أجدر من يزيد بها : عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، والحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين .

لقد كان معاوية رضي الله عنه يدرك هذه الجوانب جميعاً ، وكان على ثقة من كفاءة يزيد ، ولكنه كان يخشى في الوقت نفسه أن يكون اختيار يزيد قد طغت عليه العاطفة ، فدفعته عن الحق في هذا الإطار .

لقد كان يدعو ربه متضرعاً إليه وعلى ملاء من الناس ، وعلى المنبر ، ويقول :

(اللهم إن كنت تعلم أنني وليته لأنه فيما أراه أهلاً لذلك ؛ فأتمم له ما وليته . وإن كنت وليته لأنني أحبه ؛ فلا تتم له ما وليته) .

فهذا النص الذي أورده ابن كثير رحمه الله ورواه عن معاوية كاف لأن يعطينا أوضح دليل على نفسية معاوية ودوافعه رضوان الله عليه .

لقد اختلطت العاطفة الأبوية بمفهوم القناعة والكفاءة ، فضرع إلى ربه جل وعلا أن يختار للأمة ما يرضيه ، ولو أن الأمر خرج من يزيد . لقد كان معاوية رضي الله عنه يرى الكفاءة في العديد من قادة الامة ، ولكنه لم يكن يرى أن يزيد أقل منهم كفاءة ، ولعل هذا الأمر

ترجح له في المرحلة الأخيرة من حياته ، أما قبل فلم يكن الأمر كذلك ،
فقد ذكر قبيصة بن جابر قوله :

بعثني زياد في شغل إلى معاوية ، فلما فرغت من أموري قلت :

يا أمير المؤمنين لمن يكون الأمر من بعدك ؟

فسكت ساعة ثم قال :

يكون بين جماعة : إما كريم قریش سعيد بن العاص ، وإما
فتى قریش حياءٌ ودهاءٌ وسخاءٌ عبد الله بن عامر ، وإما الحسن بن
علي فرجل سيد كريم ، وإما القاريء لكتاب الله الفقيه في دين الله
الشديد في حدود الله مروان بن الحكم ، وإما رجل فقيه عبد الله بن
عمر ، وإما رجل يرد الشريعة مع دواهي السباع ، ويروغ روغان
الثعلب فعبد الله بن الزبير (١) .

وصدق حدس معاوية ، فما انتهى يزيد حتى آل الأمر لمروان
ابن الحكم القاريء الفقيه الشديد في حدود الله .



هذا ولا بد لنا أن نقول كلمة فيما ذكر أن ناساً من أهل المدينة
كانوا يتهمون يزيد باللهو ومعاقرة الخمر فنقول :

لم يرد ذلك في رواية صحيحة أبداً وحاشى لمعاوية رضي الله
عنه أن يبايع لرجل يفعل هذا ، ولقد تضخم هذا الأمر عند أهل

(١) أورده ابن كثير ج ٨ ص ٨٥ عن عبد الملك بن عمير (ثقة)
عن قبيصة بن جابر (ثقة) .

المدينة ، ولم يوافقهم على هذا الاتهام ليزيد أعظم الصحابة قدراً
في ذلك العهد : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقد روى الإمام أحمد
عن نافع مولى ابن عمر قال :

(لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم
تشهد وقال : أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ،
وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الفادر ينصب له لواء يوم
القيامة يقال : هذه غدره فلان ، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون
الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث
بيعته . فلا يخلعن أحد منكم يزيد ، ولا يسرفن أحد منكم في هذا
الأمر فيكون الفیصل بيني وبينه) ورواه مسلم والترمذي .

(ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع
وأصحابه إلى محمد بن الحنفية؛ فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم .
فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى
حكم الكتاب .

فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت
عنده ، فرأيتته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عن
الفقه ، ملازماً للسنة .

قالوا : فإن ذلك كان تصنعاً لك .

فقال : ما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع؟!
فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟! فلو كان أطلعكم على
ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا
بما لا تعلموه !!

قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه .

فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ولست من أمركم من شيء .

قالوا : فلعلك تكره أن يتولى غيرك فنحن نوليك أمرنا .

قال : ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً أو متبوعاً .

قالوا : قد قاتلت مع أبيك .

قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه . . . (١) .



(١) البداية والنهاية ٢٣٣/٨ .

الملك المجاهد إلى جوار ربّه

الجهاد لم ينقطع طيلة حياة معاوية رضي الله عنه ؛ خاصة في الحدود المتاخمة للروم ، فهذا سعيد بن عثمان (١) يقاتل الصفند وينتصر عليهم ، ويأخذ أبناء عظمائهم رهينة عنده عنواناً على استسلامهم . وهذا عبد الله بن قيس يجعل مشتاه بأرض الروم في عام ثمانية وخمسين . ولم يخل هذا العام من شرور الخوارج في العراق ، فخرجوا فحوصروا وقتلوا .

(١) سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما كان ذا شأن بين الشخصيات الإسلامية . وفد على معاوية وسأله أن يستعمله على خراسان ، قال معاوية : إن بها عبيد الله بن زياد (وكان قد تولاها بعد وفاة زياد أبيه) فانفعل سعيد وخاطب معاوية بغلظة وجفاء قائلاً :

أما لقد اصطنعك أبي ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجارى إليه ولا يسامى ، فما شكرت بلاءه ، ولا جازيته بالائه ، وقدمت عليّ هذا (يعني يزيد بن معاوية) وبايعت له ؛ ووالله لانا خير منه أباً وأماً ونفساً .

فقال معاوية :

أما بلاء أبيك : فقد يحق عليّ الجزاء به ، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشفت الأمور ، ولست بلائم لنفسي في التشمير .

وها هو معاوية يودع الرعيل الأول الذين كانوا رفاقه في الجهاد
أو خصومه ، فيموتون واحداً إثر الآخر : عائشة أم المؤمنين رضوان
الله عليها ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد بن
العاص ، وزباد بن أبيه ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . وها هي الأوجاع
تترى على جسمه الضعيف وقد غدا وله نيّف وسبعون عاماً .

وكانت أغرب رسالة وصلته من رجل من أهل المدينة ففضها
فإذا فيها :

إذا الرجال ولدت أولادها
واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أسقامها تعتادها
فهي زروع قد دنا حصادها

فطوى الكتاب ، وصمت هنيهة ، ثم قال :

تعى إلي نفسي .

ورأى انه غدا ثقیل الحركة ، بطيء الخطا . فخرج إلى الناس ،

→

وأما فضل أبيك على أبيه : فأبوك والله خير مني ، وأقرب
برسول الله ﷺ . وأما فضل أمك على أمه فما ينكر ؛ امرأة من
قريش خير من امرأة من كلب . وأما فضلك عليه : فوالله ما أحب أن
الغوفة دَحَسَتْ - أي امتلأت - ليزيد رجلاً مثلك .

وكاد أن يتفجر الموقف ؛ لولا حصافة يزيد ولبقائه التي انقذت
الموقف فقال لأبيه : يا أمير المؤمنين ابن عمك ، وانت أحق من نظر في
أمره ، وقد عتب عليك لي فأعتبه - أرضه - . فولاه حرب
خراسان . الطبري ج ٥ ص ٥٣٠ عن عمر (صدوق) عن علي (صدوق)
عن محمد بن حفص (مقبول) .

وصعد درج المنبر بصعوبة وعيون المسلمين شاخصة إليه ، وهم يرون آثار الجهد بادية على وجهه ، فيعلو وجوههم الهمة ، وتبدو عليها مسحة الكآبة . وما هم يستمعون إلى أمير المؤمنين ، ينعي إليهم نفسه ، فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، إني من زرع قد استحصد ، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم أحد بعدي خير مني ، وإنما يليكم من هو شر مني ، كما كان من يليكم قبلي خيراً مني .

ويا يزيد إذا دنا أجلي فولّ غسلي رجلاً لبيباً ، فإن اللبيب من الله بمكان .

وترقرقت الدموع في الحاجر . وكان أمير المؤمنين يتحدث امامهم اليوم في الوداع الأخير . وتابع معاوية رضي الله عنه حديثه :

(فلينعهم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره واظفاره ...) وما كاد يتم كلامه حتى سالت الدموع على الوجوه غزيرة ، فقد ذكر امامهم سيد الأجابة محمداً ﷺ ، ثوبه واظفاره وقراضة من شعره .

وبين هذا السيل الجارف من الذكريات ، وبين أمير المؤمنين الذي يلقي عليهم نظرة الوداع - فلعلهم لا يلقونه بعد اليوم - كان القوم غارقين . وكلام معاوية كأنما يعصر قلوبهم عصراً من الألم .

وتابع معاوية كلامه :

(فاستودع القراضة انفي وفمي وأذني وعيني ، فإذا أدرجتموني في جريدتي ، ووضعتوني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين)

وغادر معاوية المسجد ، وكان اللقاء الأخير له مع المسلمين في الشام ، ودخل بيته ، وكان البرد قد اشتد عليه فلبس ثوباً ثقيلاً ، فاغتم منه .

ودنا أجل الملك المجاهد ، فرمى ببصره بعيداً بعيداً وراء الأفق . واستعاد شريط ذكرياته الطويل ، وحصيلة سبعين عاماً ونيّفاً انسلخت من عمره ، ورأى تفاهة الدنيا وضالة شأنها ماثلة بين عينيه ؛ فقال :

تباً لك من دار ، ملكتك أربعين سنة ، عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، وهذا حالي فيك ، ومصري منك !!

ثم تنهد وقال بصوت متهدج : تباً للعالم ومحببها !!



وكان لا بد أن يقدم وصيته لخليفته من بعده ، فمهوم الأمة تلاحقه حتى الرمق الأخير ، فاستدعى قائد شرطته الضحاک بن قيس الفهري وطلب منه أن يكتب وصيته إلى يزيد الذي لم يكن حاضراً في أيامه الأخيرة ، كما دعا مسلم بن عقبة المري - وكان من أخص مستشاريه - فأفضى إليهما بخاصة نفسه ، وأمرهما أن يبلّغا يزيد وصيته وهي :

١ - انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب .

٢ - وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ؛ فإن عزل عاملٍ أجب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف .

٣ - وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد اهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم ، أخذوا بغير اخلاقهم .

٤ - وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة :

حسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .
فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتصقاً شيئاً قبلك .

وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وإن له رحمة ماسة ، وحقاً عظيماً ، وقربة من محمد ﷺ . ولا اظن اهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنني لو أني صاحبه عفوت عنه .

وأما ابن الزبير فإنه خبّ ضب ، فإذا شخص لك فالبند له ، إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل منه (١) .

٥ - واحقن دماء قومك ما استطعت (٢) .

وهكذا القى لابنه يزيد بحصالة تجاربه خلال ثلاثة أرباع القرن .

(١) هناك رواية أخرى للوصية يتهم فيها معاوية عبد الرحمن ابن أبي بكر باللهو والنساء ويوصي فيها يزيد بأن يقطع ابن الزبير إرباً إرباً إن ظفر به . وهي رواية متهافة محورها أبو مخنف الشيعي الذي كان له دور كبير في تشويه شخصيات الاسلام ، والذي يدل على كذب هذه الرواية أن عبد الرحمن بن أبي بكر توفي في حياة معاوية .

(٢) الطبري ٣٢٣/٥ عن هشام عن عوانة .

واحس انه قد القى حملاً ثقيلاً عن كتفه ، ثم احس بثقل اكبر ،
فقال لاهله : احشوا عيني إثمداً ، وأوسعوا رأسي دهناً .

ولم يدر اهله سبباً لذلك ، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن .

وطلب وسادة يتكىء عليها ، فأجلس ، ثم قال :

اثنوا للناس فليسلموا علي قياماً ، ولا يجلس أحد .

فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً ، فيراه مكتحلاً مدهناً

فيقول : يقول الناس : إن أمير المؤمنين لمآبه ، وهو أصح الناس .

فلما خرجوا من عنده قال معاوية في صوت متهدج وهو

يتمثل قول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهم

اني لريب الدهر لا اتضعض

وإذا المنية انشبت اظفارها

الفيت كل تميمه لا تنفع

وكان هذا آخر عهده بالناس والدنيا .

وبقي بين يدي اهله ، ففاضت دمعة من مآقيه ، ورسم خط

حياته كله ؛ فقال وهو يحتضر - وكأن المجد في الدنيا كله يعلن

على لسانه - :

لعمرى لقد عمرت في الدهر برهة

ودانت لي الدنيا بوقع البواتر

واعطيت حمر المال ، والحكم والنهي

ولي سلمت كل الملوك الجبابر

ثم ماذا جرى بهذا المجد :

فأضحى الذي قد كان مما يسرني
كحكم مضى في الزمنات الفوابر

ثم ها هي الأمجاد تتلاشى سريعاً ويفقدها من بين يديه ،
وما هو حاكم الدنيا الإسلامية يعلن أمام الموت ، ويتمنى .

وماذا يتمنى ؟!!

فياليتني لم اعن في الملك ساعة
ولم أسع في لذات عيش نواضر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغة
فلم يك حتى زار ضيق المقابر

إيه يا أول الملوك ، تغبط ذا الطمرين الذي عاش ببلغة في حياته؛
وانت أبو المجد والجاه والسؤدد .

وأوصى معاوية . . وماذا كانت وصيته ؟

أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال ، وكأنه أراد أن
يطيب له الباقي وأن يكون له اقتداء بالفاروق عمر بن الخطاب الذي
قاسم ولاته نصف أموالهم . وهم الذين لا يرقى الشك إلى ورعهم
وتقاهم .

وانقطع عن الكلام ، وخيم على المكان صمت رهيب ، إنه
صمت الموت . ثم قال وقد فتح عينيه وهو في وداعه الأخير :

(ياليتني كنت رجلاً من قریش بذي طوى ، ولم أل من هذا
الامر شيئاً) .

إنه موقف الخليفة الفاروق رضي الله عنه وقد جاءه الموت ،
وراح الناس يعرضون عليه ولاية ابنه عبد الله : بحسب آل عمر أن

يحاسب منهم رجل واحد ، إن خرجت من الدنيا كفافاً لا علي ولا لي ؛ إني إذا لسعيد !!

إنها اللحظات التي تستجمع فيها الذنوب ، وتغيب فيها الدنيا بهجاتها ولذاتها ، فمن له في هذه اللحظات غير رب العالمين .

هاهم أهله يسمعونه يناجي ربه ، ولا يكاد يلتقط نفسه ، وحسرة الموت تخالط أنفاسه الضعيفة :

إن تناقش يكن نقاشك يارب
عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو واصفح
عن مسيء ذنوبه كالتراب

وها هو يتقلب على فراشه ، ويعاني من سكرات الموت :

يضع خدّاً على الأرض ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ، ويقول :

اللهم إنك قلت في كتابك : (إن الله لا يفر أن يشرك به ، ويفر ما دون ذلك لمن يشاء) اللهم اجعلني فيمن تشاء أن تغفر له .

إنه يرى الموت عياناً فأين الفرار منه !!

هو الموت لا منجاة من الموت والذي

تحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم يقول :

اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك ، فإنك واسع المغفرة ، ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك .

ثم غاب عن الوعي . وأغمي عليه .

فقاموا فتحسبوا يديه .

لا يزال قلبه ينبض ، فلم يسلم الروح بعند .

ثم فتح عينيه بعد غيبوته ، وكان آخر ما قاله يوصي أهله :

اتقوا الله عز وجل فإن الله سبحانه يقي من اتقاه . ولا وافي

لن لا يتقي الله .

وما هي إلا لحظات حتى أسلم معاوية الروح لبارئها سبحانه .

أسلمها وكل رجائه بالله أن يغفر الله له .

(إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فرفعته . وقلّم أظفاره يوماً

فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة . . فإذا مت فألبسوني ذلك

القميص ، وقطّعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفيّ ،

فعسى الله أن يرحمني ببركتها .

يا رحمة الله لك يا معاوية . يا أول الملوك .

يا من كنت تهز الدنيا بيدك ، وتقود الجيوش بإشارتك ،

وترتجف كثير من القلوب هيبة من ذكرك .

ها أنت على فراش الموت تقلبك ابتلاك دون أن تملك حراكاً .

وقد شارفت على الثمانين ، وها أنت واقف على أعتاب قبرك وأنت

طامع برحمة ربك ؛ دون أن ينتابك غرور الدنيا بجهدك وجهادك

أربعين عاماً أو يزيد . . . ومضيت وبقيت الدنيا بعد أن غاب شخصك

تحدث عنك . . عن أعظم ملوك الاسلام الملك المجاهد ، معاوية بن أبي

سفيان .



قالوا في معاوية

- ١ - اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب .
محمد رسول الله ﷺ
- ٢ - اللهم اجعله هادياً مهدياً واهداً به .
محمد رسول الله ﷺ
- ٣ - لما عزيت هند (أم معاوية) في يزيد بن أبي سفيان
قيل لها :
إنه قد جعل معاوية اميراً مكانه .
قالت : أو مثل معاوية يجعل خلفاً من أحد ؟
فوالله لو أن العرب اجتمعت متوافرة ثم رمي به فيها لخرج
من أي أعراضها (نواحيها) شاء .
- ٤ - دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك عند
الغضب ، ولا ينال منه إلا على الرضا ، ومن لا يأخذ من فوق رأسه
إلا من تحت قدميه .
عمر بن الخطاب
- ٥ - هذا كسرى العرب ، تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما ؛
وعندكم معاوية ؟!
عمر بن الخطاب
- ٦ - دخل معاوية على عمر وعليه حلّة خضراء ، فنظر إليها
الصحابه ، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة ، فجعل يضربه بها .
وجعل معاوية يقول : يا امير المؤمنين ! الله الله فيّ .

فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم :
لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله ؟

فقال : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني
غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته - وأشار بيده إلى
رأسه - فأحببت أن أضع منه ما شمع .

٧ - رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان
عنده فسلمت عليه وجلست . فبينما أنا جالس إذ أتني بعلي ومعاوية ،
فأدخلا بيتاً وأجيف الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج
علي وهو يقول :

قضي لي ورب الكعبة .

ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول :
غفر لي ورب الكعبة .
عمر بن عبد العزيز

٨ - أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية فإنكم لو فقدتموه
رأيتم الرؤوس تندرج عن كواهلها كأنها الحنظل .
علي بن أبي طالب (منصرفه من صفين)

٩ - ما رأيت أحداً بعد عثمان أفضى بحق من صاحب هذا
الباب - يعني معاوية -
سعد بن أبي وقاص

١٠ - ما رأيت أحداً أعظم حتماً ، ولا أكثر سوءداً ، ولا أبعد
أناة ، ولا ألين مخرجاً ، ولا أرحب باعاً بالمعروف ، ولا أشبه سريرة
بعلانية من معاوية .
قبيصة بن جابر

١١ - قد علمت بم غلب معاوية الناس : كان إذا طاروا وقع ،
وإذا وقعوا طار !!
عبد الله بن عباس

١٢ - لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو ، حتى كان عام الجماعة فأغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية في الصيف وتشتو بأرض الروم ، ثم تقفل وتعقبها أخرى .
سعيد بن عبد العزيز

١٣ - أدرك خلافة معاوية عدة من الصحابة منهم : أسامة وسعد وجابر وابن عمر وزيد بن ثابت ومسلمة بن مخلد وأبوسعيد ورافع بن خديج وأبو أمامة ، وأنس بن مالك ، ورجال أكثر ممن سمينا بأضعاف مضاعفة . كانوا مصابيح الهدى ، وأوعية العلم ، حضروا من الكتاب تنزيله ، ومن الدين جديده ، وعرفوا من الاسلام ما لم يعرفه غيرهم ، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويل القرآن . ومن التابعين لهم بإحسان ما شاء الله ، منهم : المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الله بن محرز ، وفي أشباه لهم لم ينزعوا يداً من جماعة في أمة محمد ﷺ .
الأوزاعي

١٤ - نظر أبو سفيان يوماً إلى معاوية وهو غلام فقال لهند : إن ابني هذا عظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه .
فقالت هند : قومه فقط ؟!! . ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة .

١٥ - أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فقال : أوتر معاوية بركعة بعد العشاء !
فقال : دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ ، أصاب ، إنه لفقيه .

١٦ - كان معاوية إذا حدث عن رسول الله ﷺ لم يتهم .
محمد بن سيرين

١٧ - كان معاوية يبعث رجلاً يقال له : أبو الجيش في كل يوم؛
فيدور على المجالس يسأل هل ولد لأحدٍ ولد ؟ أو قدم أحد من
الوفود ؟ فإذا أخبر بذلك أثبت في الديوان - يعني ليجري عليه
الرزق - . محمد بن سيرين

١٨ - رأيت معاوية في سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفاً ،
عليه قميص مرقوع الجيب ، وهو يسير في أسواق دمشق .
يونس بن ميسرة بن حلبس

١٩ - لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي .

الأعمش عن مجاهد

٢٠ - ما رأيت أحداً أسود (من السيادة) من معاوية .
قال : قلت : ولا عمر ؟ قال : كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية
أسود منه !! عبد الله بن عمرو

٢١ - ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية
قيل : ولا أبو بكر ؟ قال : كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه
وهو أسود . العوام بن حوشب

٢٢ - ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية ، إن كان ليرد
الناس منه على أرجاء واد رحب .

عبد الله بن عباس

٢٣ - نميل على جوانبه كأننا
نميل إذا نميل على أبينا
نقله لنخبر حالتيه
فنخبر منهما كرمأوليننا
أبو الجهم

٢٤ - لله در ابن هند ، إن كنا لنفرقه ، وما الليث في برائه
باجراً منه . فيتفارق لنا - يظهر الخوف - وإن كنا لنخدعه وما
ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا . والله لوددت أنا
متعنا به مادام في هذا الجبل حجر . عبد الله بن الزبير

٢٥ - قال معاوية لابن عباس يعزّيه في الحسن رضي الله عنه :
لايسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي .
فقال ابن عباس لمعاوية : لا يحزنني الله ولا يسوؤني ما أبقي الله
أمير المؤمنين .

٢٦ - من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وشهد
للعشرة بالجنة ، وترحم على معاوية ؛ كان حقاً على الله أن لا يناقشه
الحساب . سعيد بن المسيب

٢٧ - تراب في أنف معاوية خير من عمر بن عبد العزيز .
عبد الله بن المبارك

٢٨ - سئل المعافى بن عمران أيهما أفضل ؟ معاوية أو عمر بن
عبد العزيز ؟ فغضب وقال للسائل : أتجعل رجلاً من الصحابة مثل
رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله .

٢٩ - معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل
الستر اجترأ على ماورائه . الربيع بن نافع

٣٠ - ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً
شتم معاوية ، فإنه ضربه أسواطاً إبراهيم بن ميسرة

٣١ - الدهاة أربعة : معاوية ، وعمرو ، والمغيرة ، وزياد .
الشعبي

٣٢ - الدهاة في الفتنة خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص
والمغيرة بن شعبة وكان معتزلاً ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعبدالله
ابن بديل بن ورقاء .
الزهري

٣٣ - ما رأيت معاوية متكئاً قط ، واضعاً إحدى رجليه على
الأخرى ، كاسراً عينه يقول لرجل تكلم إلا رحمته .
عمرو بن العاص

٣٤ - كان معاوية طويلاً أبيض جميلاً ، إذا ضحك انقلبت
شفته العليا وكان يخضب .

ابو بكر بن أبي الدنيا

٣٥ - كان أبيض طويلاً أجلع ، أبيض الرأس واللحية ،
يخضبهما بالحناء والكتم ، وقد أصابته لوعة في آخر عمره ، فكان
يستر وجهه ويقول : رحم الله عبداً دعا لي بالعافية ، فقد رميت في
أحسني - أي وجهه - ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي . وكان
حليماً وقوراً ، رئيساً سيلاً في الناس عادلاً شهماً .

ابن كثير

٣٦ - إياكم والفرقة بعدي ، فإن فعلتم فإن معاوية بالشام ،
وستعلمون إذا وكلمت إلى رأيكم كيف يستبزها دونكم .

عمر بن الخطاب

٣٧ - قلت للحسن بن علي لما قدم من الكوفة إلى المدينة :
يا مذل المؤمنين قال : لا تقل ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :
لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية .

سفيان بن الليل

* * *

من كلمات معاوية

١ - في خطابه لعائشة بنت عثمان :

يا بنت أخي ، إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حِلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد . فبعضناهم هذا بهذا ، وباعونا هذا بهذا . فإن أعطيانهم غير ما اشتروا منا شحوا علينا بحقنا ، وغمطناهم بحقهم ، ومع كل إنسان منهم شيعته ، وهو يرى مكان شيعته ، فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ثم لا ندري أكون لنا الدائرة أم علينا . وإن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين ، أحب إلي أن تكوني أمة من إماء المسلمين ، ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك .

٢ - في خطبة له على منبر دمشق يوم الجمعة :

أيها الناس اعقلوا قولي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني ، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة أو ليخالفن الله بين قلوبكم .

خذوا على أيدي سفهائكم ، أو ليسلطن الله عليكم عدوكم ، فليسومنكم سوء العذاب .

تصدقوا ولا يقولن الرجل : إني مقل ، فإن صدقة المقل أفضل من صدقة الفني . إياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول : سمعت وبلغني ، فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة .

٣ - أنا أول الملوك وآخر خليفة .

٤ - إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي ،
وجهل أكثر من حلمي ، أو عورة لأواريتها بستري ، أو إساءة أكثر
من إحساني .

٥ - يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ،
ويأخذ أخذ الأسد ، وإن قليله يغلب كثير الناس .

ثم امر معاوية لأبي الجهم بمال .

٦ - يا بني أمية فارقوا قريشاً بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى
الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعهُ حلماً ؛ فأرجع وهو لي
صديق ، إن استنجدته أنجدني ، وأثور به فيثور معي . وما وضع
الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرمأ .

٧ - آفة الحلم الذل .

٨ - لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله ،
وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .

٩ - قيل لمعاوية من أسود الناس فقال :

أسخاهم نفساً حين يُسأل ، وأحسنهم في المجالس خلقاً ، وأحلمهم
حين يستجهل .

١٠ - كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات :

فما قتل السفاهة مثل حلم	يعود به على الجهل اللئيم
فلا تسفه وإن ملئت غيظاً	على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب	فإن الذنب يغفره الكريم

١١ - كتب معاوية إلى نائبه زياد قائلاً :

إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة ، باللين فيمرحوا ،

ولا بالشدة فنحمل الناس على المهالك . ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة ، وأنا للين والالفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه .

١٢ — قال عبد الله بن جعفر لدهقان فارس :
اسجد لله ، واحمل مالك إلى منزلك ، فإننا أهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن .

فقال معاوية :

لأن يكون يزيد قالها أحب إلي من خراج العراق .
أبت بنو هاشم إلا كرمأ .

١٣ — قيل لمعاوية : أيكم كان أشرف ، أنتم أو بنو هاشم ؟
فقال : كنا أكثر أشرافاً وكانوا هم أشرف .
فيهم واحد لم يكن في عبد مناف مثل هاشم .
فلما هلك كنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً .

وكان فيهم عبد المطلب ، ولم يكن فينا مثله ؛ فلما مات صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً .

ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ؛ فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبي .

فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرين بمثله محمد ﷺ .

فمن يدرك هذه الفضيلة ، وهذا الشرف ؟!

١٤ — المروءة في أربع :

العفاف في الاسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الإخوان ،
وحفظ الجار .

١٥ - قيل لمعاوية : اسرع إليك الشيب ! قال :

كيف لا ، ولا ازال ارى رجلاً من العرب ، قائماً على رأسي يلقح لي كلاماً يلزمني جوابه ؛ فإن أصبت لم أحمد ، وإن أخطأت سارت بها البرود .

١٦ - العقل والحلم افضل ما اعطي العبد : فإذا ذكر ذكر ، وإذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا وعد انجز ، وإذا قدر غفر ، وإذا أساء استغفر .

١٧ - ما من شيء الذ عندي من غيظ اتجرعه .

١٨ - زين الشريف العفاف .

١٩ - قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاص :

يا ابن أخي إنك قد لهجت بالشعر : فإياك والتشبيب بالنساء فتعزّ الشريفة ، والهجاء فتعز كريمة وتستشير لئيماً ، والمدح فإنه طعمة الوقاح ؛ ولكن افخر بمفاخر قومك ، وقل من الأمثال ما تزيد به نفسك ، وتؤدب به غيرك .

٢٠ - أغلظ رجل لمعاوية فأكثر ، فقليل له : اتحلم عن هذا ؟

فقال : إني لا أحول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

٢١ - رحم الله أبا بكر ، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا . وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصاب منه ؛ وأما نحن فتمرغنا فيها .

ثم كانه ندم فقال : والله انه لملك آتانا الله إياه .

* * *

الفهرس

٣	هذا الرجل
٥	بين يدي البحث
١٥	مقدمة الطبعة الثانية
١٩	الملك المجاهد والزاهد المجاهد
٢٣	أبو سفيان وهند بنت عتبة
٣٢	الإسلام يغزو قلب معاوية
٣٧	الإسلام يدخل بيت أبي سفيان
٤٧	معاوية في مدرسة النبوة
٦٠	أمراء في سبيل الله
٦٧	يزيد أمير دمشق
٧٢	معاوية الأمير
٨٨	غيوم في الأفق
٩٤	إسفين في قمة النصر
١٠٦	دعاة الفتنة ومعاوية
١١٩	الفتنة تخرج خطمها لشب
١٣٧	بيان عثمان إلى الأمة
١٤٥	المتآمرون يحتلون المدينة
١٥٦	أمير المؤمنين يُقتل
١٦٩	علي أمير المؤمنين
١٧٨	معاوية وأمير المؤمنين

١٨٧ عمرو بن العاص في المعركة
١٩٥ مأساة صفّين
٢٠٣ رسول الله يتحدث عن المعركة
٢١٢ قصة التحكيم
٢٢٥ عام ثمانية وثلاثين
٢٣٠ محاولات امتداد لمعاوية
٢٣٥ معاوية أمير للمؤمنين
٢٤٢ داهيتا العرب ينضمّان إلى معاوية
٢٤٩ الداهية الثالث والليث المتربص
٢٥٧ شيعة علي في وجه المارقين
٢٦٩ زياد بن أبيه أميرٌ للمشرق
٢٧٤ من الخلافة إلى الملك
٢٩٠ قيادات بني أمية تحتجّ وتنذر
٣١١ معاوية وأشراف أهل البيت
٣٢٥ معاوية وموقفه من الخصوم
٣٤٣ معاوية والرعية
٣٥٧ إلى الفتوح من جديد
٣٦٥ هزّة جديدة من الداخل
٣٧٠ لقاء مع قادة الأمة
٣٧٩ يزيد بن معاوية وليّ للعهد
٣٩٧ الملك المجاهد إلى جوار ربّه
٤٠٦ قالوا في معاوية
٤١٢ من كلمات معاوية

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه،
وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

- ١ - عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.
- ٢ - الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.
- ٣ - مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.
- ٤ - عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.
- ٥ - أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.
- ٦ - عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.
- ٧ - أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.
- ٨ - سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.
- ٩ - السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.
- ١٠ - الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.
- ١١ - الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.
- ١٢ - السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.
- ١٣ - الإمام البخاري
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاہر.
- ١٤ - عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.
- ١٥ - عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.
- ١٦ - جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

- ١٧ - أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
- ١٨ - كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكّي العاني.
- ١٩ - أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي
المظاهري.
- ٢٠ - أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
- ٢١ - معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
- ٢٢ - عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
- ٢٣ - مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
- ٢٤ - عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
- ٢٥ - معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
- ٢٦ - الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
- ٢٧ - القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
- ٢٨ - عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
- ٢٩ - تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب.
- تحت الطبع :
- ٣٠ - السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
- ٣١ - الإمام الأوزاعي
تأليف د. عبد الستار أبو غدة.
- ٣٢ - السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.
- ٣٣ - الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف د. محمد الزحيلي.